الجزء الرابع‏

(52) (جوابات المسائل المصريات)

ص: 17

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

ما وجد من المسائل الواردة من النيل و جوابها سوى ما شذ منها:

المسألة السادسة [الحوادث لا يمكن حدوثها الا بمحدث‏]

قوله [زيد] بهاؤه:

ان حشرات الأرض و البراغيث حوادث لا محدث لها، من أي طريقة قال‏[[1]](#footnote-1) و الى أي شي‏ء ذهب و ما يقبل منهما، و العمل‏[[2]](#footnote-2) و الصبيان أيضا بغير ذنب له عوض أم لا، و ان كان ليس له عوض فما بال غيره؟

(الجواب) و باللّه التوفيق:

انه رأى استحالة حدوثها هنا لتعذر فعل الأجسام و يليه‏[[3]](#footnote-3) الحياة علينا و خفي عليه‏

ص: 18

وجه الحكمة و المصلحة في وقوعها من القديم تعالى فقال: لا يصح وقوعها منه، فلما رأى تعذر وقوعها من الفاعل المحدث و قد ثبت حدوثها قال: انها حوادث لا محدث لها. و لو علم وجه الحكمة لأضافها الى القديم تعالى.

فأما العوض فهو ثابت فيما يدخل عليها من الآلام كما يستحقه غيرها من المؤلمات، و الدليل على ثبوت العوض في الموضعين واحد.

المسألة السابعة (في الرعد و البرق و الغيم)

ما هو قوله تعالى‏ «وَ يُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ مِنْ جِبالٍ فِيها مِنْ بَرَدٍ»[[4]](#footnote-4) و هل هنا برد أم لا؟

(الجواب) و باللّه التوفيق:

ان الغيم جسم كثيف، و هو مشاهد لا يمكن الشك فيه.

و أما الرعد و البرق فقد روي أنهما ملكان‏[[5]](#footnote-5).

و الذي نقوله هو: ان الرعد صوت من اصطكاك أجرام السحاب، و البرق يبعد[[6]](#footnote-6) أيضا من تصادمهما[[7]](#footnote-7).

و قوله‏ «مِنْ جِبالٍ فِيها مِنْ بَرَدٍ» لا شبهة فيه أنه كلام اللَّه تعالى، و أنه لا يمتنع أن يكون جبال البرد مخلوقة حال ما ينزل البرد.

ص: 19

المسألة الثامنة [الدليل على حياة الفاعل‏]

إذا كان الفاعل لا يكون الا حيا فما ينكر ألا يكون الا جسما.

(الجواب) و باللّه التوفيق:

ان الفاعل لا يكون الا قادرا، و كون الحي حيا يصح أن يكون قادرا، فمن هذا الوجه [يصح‏][[8]](#footnote-8) ان يكون الفاعل حيا. و ليس كونه جسما مصححا لكونه فاعلا و لا قادرا، فلا يجب ذلك فيه.

و الفاعل منا انما احتاج الى كونه جسما لأنه قادر بقدرة و حي بحياة، و للقدرة و الحياة تأثير في محلهما، فيصير محلهما آلة في فعله. فمن هو قادر لا بقدرة و حي لا بحياة و لا يحتاج الى ذلك معارف‏[[9]](#footnote-9) كونه جسما لكونه حيا.

المسألة التاسعة [تعقل من لا مثل له و لا ضد]

فان قيل: كيف يعقل من لا مثل له و لا ضد.

(الجواب) و باللّه التوفيق:

ان إثبات المثل و الضد و الخلاف تابع للدليل، و إن كان إثبات مخالف‏

ص: 20

للذات لا بد منه، لان تميزها من غيرها نفسها [..][[10]](#footnote-10)، الا أنه يكفي أن يعلم أن لها مخالفا[[11]](#footnote-11) على جهة الجملة، فأما إثبات ضد و مثل فمنه بدأ و يجوز أن يكون و يجوز أن لا يكون بحسب الدليل.

و القدر التي يتقدر بها لا مثل لواحدها، لأنه لا يصح أن تتعلق قدرتان بمقدور واحد.

و إذا كان الدليل قد دل على أن القديم تعالى لا مثل له و لا ضد له- بما بيناه في موضعه- وجب أن نقول به و عجب‏[[12]](#footnote-12) فيما دل الدليل عليه.

المسألة العاشرة [تعقل فاعل من دون لمس‏]

فان قيل: كيف يعقل فاعل‏[[13]](#footnote-13) من غير ملامسة و لا اتصال.

(الجواب) و باللّه التوفيق:

ان الفاعل انما يحتاج فيما كونه فاعلا الى ما يصح الفعل من كونه قادرا و ما يجري مجراه، و ليس الملامسة و الاتصال من ذلك في شي‏ء. و قد بينا أنه انما يحتاج إلى الجسمية فبينا[[14]](#footnote-14) لأجل القدرة و الحياة فصار محلهما آلة في استعمالهما، فاحتيج الى الاتصال في الملامسة لأجل استعمال القدرة و الحياة، فمن هو حي لا بحياة لا يحتاج الى ذلك.

ص: 21

المسألة الحادية عشر [القدرة على خلق الأجسام‏]

فإن قيل: فمن أين هذا أن تكون الأجسام خلق غيره، فمن أقدره عليها من جسم آخر.

(الجواب) و باللّه التوفيق:

انه إذا ثبت أن القدر لا يصلح لها فعل الأجسام و كان وقوع الأجسام بها محالا لم يصح ما ذكر في السؤال، و قد ذكرت في الذخيرة و الشيوخ‏[[15]](#footnote-15) و غيرهما من كتب الشيوخ.

و بهذا توصلنا إلى إبطال قول المفوضة الذين قالوا: ان اللَّه تعالى فوض الى محمد[[16]](#footnote-16) و علي عليهما السلام الخلق و الرزق و غير ذلك.

المسألة الثانية عشر [القدرة على الاختراع من غير مباشرة]

فإن قيل: ما تنكرون أن يعطيه قدرة على الاختراع من غير مباشرة و لا تولية[[17]](#footnote-17).

(الجواب) و باللّه التوفيق:

انه إذا كان مستحيلا بالقدرة فعل الجسم، لأن القدرة لا يصح الفعل بها الا باستعمال محلها في الفعل ان كان مباشرا أو في سبب الفعل الى اثنين من حيث كان‏

ص: 22

في العالم خير و شر، و لا يجوز أن يكون الخير و الشر من فاعل واحد[[18]](#footnote-18).

المسألة الثالثة عشر [وقوع الخير و الشر من فاعل واحد]

(الجواب) و باللّه التوفيق:

ان الخير و الشر لا يستحيل وقوعهما من فاعل واحد، و لهذا يفعل الواحد منا[[19]](#footnote-19) الخير و الشر.

و إذا كان كذلك فما الملزم‏[[20]](#footnote-20) لنا أن يكونا فاعلين، و انما كان يجب ذلك لو كان الخير يقع من فاعل واحد مستحيل أن يقع الشر منه، و الشر يقع عن فاعل يستحيل أن يقع عنه [..][[21]](#footnote-21)، فلا وجه لإثبات الاثنين.

المسألة الرابعة عشر [تعقل الشي‏ء من دون ان يكون جسما]

[..] هو لا ظلمة و لا ضياء و لا زمان و لا مكان و لا شي‏ء [..][[22]](#footnote-22).

(الجواب) و باللّه التوفيق:

ص: 23

إذا كانت الظلمة اسما لجسم [فيه سواد و الضياء اسما لما][[23]](#footnote-23) فيه بياض و الزمان اسما لحركات الفلك و المكان اسما لما اعتمد عليه جسم آخر، و كان جميع ذلك معلقا بالأجسام و الأعراض التي قد ثبت أنها محدثة، فالمحدث لا بد أن يكون وجوده لم يكن و لا يتصور، و قد عقل يعني الظلمة و الضوء و الزمان و المكان، لأنه تعلق بوجود الأجسام و الاعراض، و قبل وجودها لا يجب أن يكون شيئا.

المسألة الخامسة عشر [حدوث شي‏ء و لا من شي‏ء]

فان قيل: كيف يعقل حدوث شي‏ء و لا من شي‏ء.

(الجواب) و باللّه التوفيق:

ان أراد كيف يعقل حدوث شي‏ء و لا من شي‏ء موجود، فإنه يعقل ذلك، لأن الشي‏ء إذا كان موجودا أو محدثا فقد صح وجوده و احداثه و استغنى بوجوده عن وجود ثان. و إن أراد من شي‏ء معدوم فما حدثت الأشياء الا من أشياء معدومة، لأن الأجسام و الاعراض كانت معدومة قبل وجودها ثم وجدت، و قد عقل حدوث شي‏ء لا من شي‏ء موجود.

المسألة السادسة عشر [الإضافة إلى الطبع مضاف الى العرض‏]

فان قيل: لم لا يكون قديم العالم [..][[24]](#footnote-24).

ص: 24

(الجواب) و باللّه التوفيق:

[..][[25]](#footnote-25) أولا معقولة حتى يقال أوجبته الطبائع [..][[26]](#footnote-26) الطبائع الا بأنها لا تعقل، لأن كل ما تضيفونه الى الطبع مضاف عندنا الى عرض من الأعراض أو الى غيره مما دل الدليل عليه، فمن ادعى أنه يرجع الى طبع فعليه الدلالة.

و إذا ثبت أن الطباع معقولة صح إثبات إضافة ما يريد إضافته اليه، و إذا لم تكن معقولة فقد بطل ما قاله من أصله و استغنينا عن الكلام معه.

المسألة السابعة عشر [استغناء الطبائع أو عدمه‏]

فان قيل: فما تنكر أن تكون الطبائع حية قادرة عالمة قديمة مستغنية عن محل أو غيره.

(الجواب) و باللّه التوفيق:

ان هذه المسألة تجري مجرى التي قبلها، و انما يصح الكلام في أن الطبائع حية و قادرة أو عالمة أو قديمة أو غير ذلك إذا ثبتت الطبائع، فأما إذا لم تثبت فلا معنى للكلام في صفاتها، لأن الصفات فرع، فإذا بطل الأصل بطل الفرع.

ص: 25

المسألة الثامنة عشر [تمثل جبرئيل في صورة دحية الكلبي‏]

نزول جبرئيل عليه السلام بالوحي في صورة الكلبي‏[[27]](#footnote-27) كيف كان يتصور بغير صورته، ثم هو القادر عليها أو القديم تعالى يشكل و ليست صورة جبرئيل، فإن كان الذي من القرآن من صورة غير جبرئيل ففيه ما فيه، و ان كان من جبرئيل فكيف يتصور بصورة البشر. و هذه القدرة قد رويت أن إبليس يتصور و كذلك الجن.

أريد توضيح أمر الفلك و ما كان يسمعها جبرئيل من الوحي أمن الباري تعالى أم من [وراء][[28]](#footnote-28) حجاب، و كيف كان يبلغه و هو جبرئيل يعلم من صفات الباري أكثر مما نعلمه أو مثله، و أين محله من السماء، و هل القديم إذا خطر ببال جبرئيل يكون متحيرا فيه مثلنا و يكون سبحانه لا تدركه الأوهام، أو منزه علينا و جميع الملائكة أيضا.

(الجواب) و باللّه التوفيق:

ان نزول جبرئيل عليه السلام بصورة دحية كان لمسألة من النبي صلّى اللَّه عليه و آله للَّه تعالى في ذلك، فأما تصوره فليس بقدرته بل اللَّه تعالى يصوره كذلك حقيقة لا شكلا[[29]](#footnote-29).

ص: 26

و الذي كان يسمعه‏[[30]](#footnote-30) النبي صلّى اللَّه عليه و آله و سلم من القرآن من جبرئيل في الحقيقة كان، فأما إبليس و الجن فليس يقدران‏[[31]](#footnote-31) على التصور.

و كل قادر بقدرة فحكمهم‏[[32]](#footnote-32) سواء في أنهم لا يصح أن يصوروا[[33]](#footnote-33) نفوسهم، بل اقتضت المصلحة أن يتصور بعضهم بصورة يصوره اللَّه تعالى للمصلحة.

فأما جبرئيل عليه السلام و سماعه الوحي فيجوز أن يتكلم اللَّه تعالى بكلام يسمعه فيعلمه، و يجوز أن يقرأه من اللوح المحفوظ.

فأما ما يعلم جبرئيل من صفات اللَّه تعالى، و طريقه الدليل، و هو و العلماء فيه واحد.

فأما محله من السماء، فقد روي أنه في السماء السابعة[[34]](#footnote-34).

فأما ما يخطر بباله، فلا يجوز أن يتجوز فيه، لأن جبرئيل عليه السلام معصوم لا يصح‏[[35]](#footnote-35) أن يفعل قبيحا.

المسألة التاسعة عشر [معنى الصفة في القديم تعالى‏]

قول أبي علي الجبائي أن القديم تعالى بكونه سميعا بصيرا صفة زائدة، أريد

ص: 27

أن توضح الصفة هل تجعلونها مثل القدرة و العلم أو غير ذلك؟

(الجواب):

ان الصفة في الأصل هي قول الواصف، فأما الصفة التي [يوصف‏] تعالى بكونه [قادرا][[36]](#footnote-36) و عالما و غير ذلك، فالمراد بها فاعلة الذات من الحال التي يختص بها، سواء كانت للنفس أو للمعنى أو لفاعل.

فأما القدرة و العلم فليست عندنا صفة، انما يسميها الصفاتية أصحاب الأشعري و أما نحن فنسمي الصفة و الحال ما أوجبته القدرة و العلم من كونه قادرا أو عالما أو [ما] يجري‏[[37]](#footnote-37) مجرى ذلك.

المسألة العشرون [كلام اللَّه تعالى كيف يكون‏]

كلام اللَّه تعالى هل يكلم به أو أحدثه مثل غيره من المحدثات، و كلامه لموسى عليه السلام من الشجرة كيف كان و قد كان تعالى و ما كان أن يكلمه اللَّه الا وحيا.

(الجواب) و باللّه التوفيق:

انه إذا أحدثه فقد تكلم به، لان المتكلم هو فاعل الكلام، فإذا فعل الكلام فقد تكلم به و قد أحدثه، و المعنى فيهما واحد.

و أما كلام موسى عليه السلام من الشجرة، فاللّه تعالى كلمه، و لذلك قال‏

ص: 28

«وَ كَلَّمَ اللَّهُ مُوسى‏ تَكْلِيماً»[[38]](#footnote-38).

و أما قوله‏ «وَ ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ»[[39]](#footnote-39)، فقد قال أيضا «أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا» فمن بعضها [يفسر][[40]](#footnote-40) بعض.

المسألة الحادية و العشرون [حول الكعبة و الميثاق و العقل و الروح‏]

الكعبة كانت قبلة من تقدمنا أولنا لإبراهيم عليه السلام‏[[41]](#footnote-41).

و قول الحجاج للحجر «وفيت بعهدي و تعهدت ميثاقي»[[42]](#footnote-42)، أ يسمع الحجر ذلك أو يحدث فيه يوم القيامة العلم بذلك، و هل الميثاق له‏[[43]](#footnote-43) أصل، فإن كان هناك ميثاق فيجب أن نذكره ان كنا عقلاء في ذلك الوقت، و ان كنا غير ذلك فحوشي أن يؤخذ الميثاق على غير عاقل. فأيضا فهذا مما يقوى به أصحاب التناسخ، لأنهم يحتجون علينا بأن الأرواح مخلوقة قبل الأبدان بألفي عام.

و أريد أيضا أن تشرح صورة الأرواح هل خلقت قبل الأبدان أم لا، و أكثر تعلقهم بهذا الخبر و كون الأرواح قديمة قبل الأجسام.

و هذه الأرواح إذا فارقت الأبدان هل تحس أم لا، و هل الحسيات عليها و على‏

ص: 29

الأبدان أو عليها وحدها.

و إذا نام الإنسان ما يعدم من البدن منها و ما الذي يبقى فيه.

و العقل أين مستقره من البدن، و هل هو في العالم سواء أو يتفاضل الناس فيه و هل الأنبياء و الأئمة عليهم السلام لهم علينا مزية فيه أو نحن و هم فيه سواء، بأن اكتساب علوم فلا بد (من أصل الماء أعني)[[44]](#footnote-44) بذلك الأصل‏[[45]](#footnote-45)، و هل يكبر مع الصبي كلما كبر أو الذي يكسبه علوم.

و الروح في الإنسان لم روح، و أين مستقر العقل، و هل هو داخل فيها أو خارج عنها، و الإنسان من هو؟

(الجواب) و باللّه التوفيق:

ان الكعبة معلوم أنها قبلتنا، و أما كونها قبلة من تقدمنا فغير معلوم، و هو مجوز.

و أما قول الحاج للحجر، فانا تعبدنا بذلك أن نقول هذا اللفظ عند الحجر و كيف يجوز أن يسمع الحجر و السمع يفتقر الى كونه حيا و معلوم أنه جماد.

و أما قوله «هذا الميثاق» الأصل ميثاق الذر، و هو قوله‏ «أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى‏»[[46]](#footnote-46).

و ليس الأمر كذلك، لأن الميثاق الذي يعنيه هو الميثاق الذي أخذه اللَّه تعالى علينا بالحج على لسان نبيه صلّى اللَّه عليه و آله، و إذا كان كذلك و لا مالة[[47]](#footnote-47) علينا إلا في خطابه للحجر، و قد قلنا انه عبادة من اللَّه تعالى لنا بذلك.

و أما قوله ان هذا [..][[48]](#footnote-48) أهل التناسخ.

ص: 30

فقد بينا في مواضع من كلامنا و كلام شيوخنا بطلان التناسخ بأدلة لا يمكن دخول الشبهة عليها، فكيف يرجع عليها بمثل ذلك.

فأما قوله: انهم قالوا ان الأرواح مخلوقة قبل الأبدان بألفي عام.

فمن جملة الدعاوي الباطلة التي يفتقرون في تصحيحها إلى الأدلة الظاهرة، و لا دليل. و نحن فقد دللنا على حدوث الأجسام جميعها روحا كانت أو غير روح، و دللنا على حاجتها الى محدث في مواضع. و عمدة كلامهم على أن الروح نفسها حية، و الحي عندنا هو الجسم الذي الروح له. و هذه المسألة مبنية على معرفة الإنسان الحي الفعال من هو، فإذا عرف سقط كلامهم و ثبت ما نقوله.

و من الذي يسلم لهم أن الأرواح قديمة، و الأرواح عندنا جملة من الأجسام، و قد دللنا على حدوثها.

و قوله: و هذه الأرواح إذا فارقت الأبدان هل تحس.

فقد قلنا: ان الذي يحس هو الحي، و الحي هو الذي تحله الحياة، و هو الجملة التي تدرك المدركات. و إذا كانت الأرواح إذا انفردت لا يكون لها هذا الحكم لم يجز أن تحس‏[[49]](#footnote-49)، لأن الحس عبارة عن إدراك.

و قوله: و هل الحساب عليها أو على الأبدان.

و الحساب على الحي المكلف المأمور المنهي، و إذا كانت الأرواح لا تقوم بنفسها- أعني عن كونها حية- و انما هي تابعة فالحساب على من هي تابعة له لا عليها.

و أما قوله: إذا نام الإنسان ما الذي يعدم من البدن و ما الذي يبقى.

فالروح عندنا عبارة عن الهواء المتردد في مخارق الحي، و هذا الهواء الحال‏

ص: 31

في حالتي النوم و الانتباه‏[[50]](#footnote-50).

و قوله: و العقل أين مستقره.

فمستقره القلب، و قد ذكرنا ذلك في مسألة أخرى، و قد قلنا: ان الناس فيه سواء لا يتفاضلون. و لا مزية للأنبياء عليهم السلام علينا فيه، و انما المزية[[51]](#footnote-51) في علوم أخرى.

و قوله: و هل يكبر مع الصبي.

فإنه من فعل اللَّه تعالى، و هو مجموع علوم بين الناس فيه خلاف هل يكون في من ليس بعاقل يعضد أم لا. و الظاهر أن اللَّه تعالى يفعله‏[[52]](#footnote-52) متى شاء بأن يفعله صغيرا كان من يفعله فيه أو كبيرا، لأنه يتعلق به باختياره تعالى متى [شاء][[53]](#footnote-53) أن يفعله فعله، و قد فعله لعيسى عليه السلام و هم أطفال.

و قوله: و الروح في الإنسان ثم روح.

و الروح روح واحدة، و قد قلنا انها عبارة عن الهواء المتردد في مخارق الحي، و إذا لم يكن في مخارق حي فهو هواء و روح.

و قوله: و أين مستقرها.

فقد قلنا: مخارق الحي.

و قوله: أين مستقر العقل منها.

فليس الروح هي العاقلة، و تكون الروح داخلة في العقل و لا العقل فيها.

ص: 32

و قوله: و الإنسان من هو.

فهذه المسألة أصل لجميع‏[[54]](#footnote-54) هذه المسائل، و هي مسألة طويلة لا يحتملها هذا الموضع، و قد أشرنا إلى تفصيلها.

المسألة الثانية و العشرون [أول ما خلق اللَّه تعالى‏]

إذا كان القديم تعالى قديما فيما لم يزل فكيف يقطع عليه أن [..][[55]](#footnote-55) السماوات و الأرض و ما فيهما أول ابتداء خلقه، فهل الشريعة تقطع بذلك أو غيره. توضح ذلك. و هو قديم فيما لم يقطع بذلك.

(الجواب) و باللّه التوفيق:

انا لا نقطع على أن السماوات و الأرض أول ما خلق، و ذلك فجوز[[56]](#footnote-56) اللَّه تعالى هو العالم بذلك، و ليس في العقل و لا في الشرع ما يقطع به عن ذلك.

المسألة الثالثة و العشرون [حقيقة الفراغ و هل له نهاية]

الفراغ له نهاية، و القديم تعالى يعلم منتهى نهايته، و هذا الفراغ أي شي‏ء هو. و كذلك الطبقة الثانية من الأرض و الثامنة من السماء نقطع ان هناك فراغا

ص: 33

أم لا، فان قلت لا طالبناك بما وراء الملاء، و هل القديم تعالى يعلم أن هناك نهاية، فإن قلت نعم طالبناك أي شي‏ء وراء النهاية؟

(الجواب) و باللّه التوفيق:

ان الفراغ لا يوصف بأنه منتهاه و لا أنه غير منتهاه على وجه الحقيقة، و انما يوصف بذلك مجازا و اتساعا.

و أما قوله: و هذا الفراغ أي شي‏ء هو. فقد قلنا انه لا جوهر و لا عرض و لا قديم و لا محدث و لا هو ذات و لا معلوم كالمعلومات.

فأما الطبقة الثانية من الأرض فما نعرفها، و الذي نطق به القرآن‏ «سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً»\*[[57]](#footnote-57) «وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ»[[58]](#footnote-58). فأما غير ذلك فلا طريق يقطع به من عقل و لا شرع.

المسألة الرابعة و العشرون [تكليف أهل جابرقا و جابرسا]

قول الحسن و الحسين عليهما السلام: ما بين جابرقا و جابرسا حجة للَّه غيرنا.

هل هذه جابرقا و جابرسا لهما تحقيق و ما تكليفهم.

(الجواب) و باللّه التوفيق:

ان الخبر قد ورد بذلك، و لا يقطع عليه بصحة و لا بطلان، لأنه من أخبار

ص: 34

الآحاد، فلن نقطع‏[[59]](#footnote-59) على صحته، فان قد اتصل بهم خبر نبينا عليه السلام فهم متعبدون بما في العقل و شريعته و يجرون مجرانا، و ان لم يكن قد اتصل بهم خبر نبينا عليه السلام فهم متعبدون بما في العقل فقط.

المسألة الخامسة و العشرون [تكليف الأطفال يوم القيامة]

الأطفال ما حكمهم يوم القيامة، أطفال المؤمنين و الكافرين، يعني من له أربعون يوما و ما زاد عليه.

(الجواب) و باللّه التوفيق:

المروي أن [أولاد][[60]](#footnote-60) المؤمنين يدخلون الجنة تفضلا عليهم، أو يرون بذلك سرور آبائهم، فيكون من جملة ثواب الإباء. فأما أولاد الكفار فحكمهم حكم غيرهم ممن ليس بعاقل في أنه يعاد للعرض ثم يصير ترابا.

المسألة السادسة و العشرون [عقاب من قاتل اماما]

من قاتل اماما عادلا و هو مؤمن بجميع الشريعة إلا خروجه على الامام و قتل و لم يصح منه توبة، هل يجوز أن يقتص منه بقدر ظلمه للإمام و يدخل الجنة.

(الجواب) و باللّه التوفيق:

ص: 35

مقاتلة الامام العادل كفر [..][[61]](#footnote-61) عقاب فاعله عقاب الكفار على وجه الدوام، و لا يصح العفو عنه و الشفاعة فيه، و لا يسقط عقابه الا بالتوبة.

المسألة السابعة و العشرون [الملائكة و الجن بعد انتهاء التكليف‏]

إذا حصل أهل الجنة في الجنة ما حكم الملائكة، هل يكونوا في جنة بنى آدم أو غيرها، و هل يراهم البشر، و هم يأكلون و يشربون مثل البشر أو تسبيح و تقديس، و هل يسقط عنهم التكليف. و كذلك الجن.

(الجواب) و باللّه التوفيق:

انه يجوز أن يكونوا في الجنة مع بنى آدم، و يجوز أن يكونوا في جنة سواها، فان الجنان كثيرة: جنة الخلد، و جنة عدن، و جنة المأوى، و غير ذلك مما لم يذكره اللَّه تعالى.

و أما في رؤية البشر لهم فلا تصلح الا على أحد الوجهين: اما أن يقوي اللَّه تعالى‏[[62]](#footnote-62)، أو يكيف الملائكة.

و أما الأكل و الشرب فمجوز، و اللَّه تعالى ينبئهم بما فيه لذتهم، فان جعل لذتهم في الأكل و الشرب جاز، و ان جعلها في غيره جاز.

و أما التكليف فإنه يسقط عنهم، لأنه لا يصح أن يكونوا مكلفين مثابين في حالة واحدة.

و الكلام في الجن يجري هذا المجرى.

ص: 37

(53) (جوابات المسائل الواسطيات)

ص: 39

بسم اللَّه الرّحمن الرّحيم‏

المسألة الخامسة من المسائل الواسطيات [إنكاح النواصب و الغلات‏]

هل يجوز للمؤمن أن يزوج ابنته الناصب أو الغالي أو فيها[[63]](#footnote-63) ما يخرج من حد النكاح الى السفاح، و ما الفرق بينهما في هذه الحالة، و ما حقيقة بعدهما جمعا من حقائق الإسلام على مقتضى الاعتقاد و أصول الدين؟

(الجواب) و باللّه التوفيق:

الناصب كالغالي في الكفر و الخروج عن الايمان، و لا يجوز مناكحة كل واحد منهما مع الاختيار. و لا فرق بينهما في أنهما كافران لا يتعلق عليهما أحكام أهل الإسلام.

فأما مقادير عقاب كل واحد منهما و زيادة بعضه على بعض أو نقصانه فمما يعلمه اللَّه تعالى و لا طريق لنا الى تحقيقه و تفصيله.

ص: 40

المسألة السادسة من الواسطيات [ميراث أهل الذمة]

هل يرث المسلم ممن مات من أهل بيته ممن هو من أهل الذمة على مقتضى الشريعة أو الإسلام يمنعه من ميراث أهل المخالفين لملته، لقول النبي صلّى اللَّه عليه و آله: أهل ملتين لا يتوارثون. بحسب ما ذكره ابن محبوب «ره» في كتاب المشيخة[[64]](#footnote-64).

(الجواب) و باللّه التوفيق:

انه لا يختلف أصحابنا في أن المؤمن يرث الكافر و ان كان الكافر لا يرث المؤمن و ما يروى عن النبي صلّى اللَّه عليه و آله من قوله «ان أهل ملتين لا يتوارثون» ان كان صحيحا فإنه خبر واحد غير مقطوع به، فمعناه أن كل واحد منهما لا يرث صاحبه و ذلك لا يمنع من أن يورث المسلم الكافر، لأن التوارث تفاعل و لا يكون الا بين اثنين على كل واحد واحد، و إذا كان من جهة واحدة لم يكن تفاعلا و لا توارثا.

المسألة السابعة من الواسطيات [الصلاة في ثوب إبريسم ممزوج‏]

مع ثبوت الخبر أنه لا يجوز الصلاة في ثوب إبريسم الا أن يكون ممزوجا بقطن أو كتان، فهل تجب الصلاة في ثوبين أحدهما إبريسم و الأخر كتان وجوبهما جميعا مجرى الثوب الممزوج إذا كان المعتمد في ذلك نقض الصلاة في الحرير

ص: 41

إذا لم يكن معه غيره.

(الجواب) و باللّه التوفيق:

ان الثوب إذا كان حريرا محضا لا يخالطه قطن أو كتان فلبسه حرام و الصلاة فيه أيضا غير جائزة، و لا يجري الثوبان اللذان أحدهما حرير محض و الأخر قطن مجرى ثوب واحد ممزوج، لأن لابس الثوبين و أحدهما حرير محض لابس لما حرم من الحرير، و ليس كذلك الثوب الممزوج.

المسألة الثامنة من الواسطيات [عدة وفاة الذمي‏]

إذا مات الذمي عن زوجته فكم أقل ما يجب أن تعتد بعده فتحل للمستمتع بها من المسلمين؟

(الجواب) و باللّه التوفيق:

لا يجوز التمتع و لا أن ينكح الدوام و التأبيد امرأة الذمي إذا مات عنها زوجها[[65]](#footnote-65) الذمي إلا بعد أن تعتد العدة المفروضة في ذلك على الزوجة الحرة المسلمة.

المسألة التاسعة من الواسطيات [المرأة المتسامحة في نفسها عن مراعاة الطلاق‏]

إذا ثبت على المرأة المتسمحة في صيانة نفسها أنها تتزوج كثيرا و لا تراعي طلاقها الا بالخروج من بيت زوجها لا ينضبط لها استقرارهم و طلب الخلاص من‏

ص: 42

حالهم و تزوجهم، فكيف يكون السبيل للراغب فيها الى التزوج بها؟

(الجواب) و باللّه التوفيق:

ان نكاح‏[[66]](#footnote-66) المرأة المتزوجة في دينها المتسمحة فيما يلزمها من عدة أو غيرها مكروه و ان لم يكن محرما، و كل امرأة لم يعلم أنها في حبال زوج أو عدة منه جاز نكاحها على ظاهر الأمر فيه و ليس يلزمه ما في الباطن، فمن أراد الاحتياط مع من خاف أن تكون فرطت في عدتها جاز له أن يلزمها أن تعتد عدة كاملة قبل العقد عليها و ان لم يكن ذلك واجبا.

المسألة العاشرة من الواسطيات [لا حد للمستمتعات في العدد]

هل تجري المستمتعات بهن مجرى الزوجات في التحصين، فيحرم على المستمتع الزيادة على الأربع أو تجري مجرى الإماء في كثرة العدد و ترك الالتفات الى هذا الباب.

(الجواب) و باللّه التوفيق:

لا خلاف بين أصحابنا في أن للمتمتع أن يجمع بين النساء أكثر من أربع حرائر و أنهن يجرين مجرى الإماء اللواتي يستباح بملك اليمين وطؤهن، و قوله تعالى‏ «مَثْنى‏ وَ ثُلاثَ وَ رُباعَ»[[67]](#footnote-67) و كل ظاهر من قرآن أو سنة يقتضي ذلك الزائد على أربع، نحمله على أن المراد نكاح الدوام دون المتعة.

ص: 43

المسألة الحادية عشر من الواسطيات [طلاق المضطر ثلاثا كم يعد]

إذا اضطر الرجل المؤمن إلى التزوج في أسفاره أو حسب اختياره و هو مقارب لمن يتقيه و لا يتمكن أن يجعل طلاقه لهن بحسب اعتقاده فيطلقهن إذا اضطر الى ذلك تطليق الثلاث مع مكان واحد، فهل يجزيه ذلك مع التقية أو هن في حباله حين لم يطلقهن على مقتضى المذهب الذي يعتقده فيحرم عليه حينئذ التزويج بعد الأربع اللواتي طلقهن على ما شرح أولا.

(الجواب) و باللّه التوفيق:

لا تقية على أحد في أن يطلق امرأته الطلاق الذي تذهب إليه الإمامية، فإنه إذا طلقها تطليقة واحدة في طهر لا جماع فيه بمشهد من عدلين فقد فعل السنة و خلاف ذلك هو البدعة و ان وقع الطلاق معه عند المخالف.

الا أنه يمكن أن يسأل عمن طلق نساء له أربعا بلفظ واحد.

و الجواب: انه إذا طلق جميعهن و هن في طهر لإجماع فيه بلفظ واحد بمشهد من عدلين فقد وقعت بهن تطليقة واحدة، و لا يحل له أن يتزوج بأخرى إلا بعد أن يخرجن من العدة و يبن منه بالخروج منها.

المسألة الثانية عشر من الواسطيات [جواز التمتع للمستمتع بها قبل انقضاء العدة]

هل يجوز للمستمتع بالامرأة إذا بانت عنه بخروج الأجل المسمى بينها و بينه أن يستمتع بها قبل انقضاء عدتها أو بعد ذلك، أو تحرم عليه بالمتعة الأولى من‏

ص: 44

إعادتها و مراجعة الاستمتاع بها، و ما الحكم و الرخصة في ذلك؟

(الجواب) و باللّه التوفيق:

يجوز للمستمتع بالمرأة بعد انقضاء عدتها منه أن يعاود الاستمتاع بها، و يجوز له بعد انقضاء الأجل المضروب و قبل أن تعتد منه أن يعاود التمتع. و انما العدة شرط في إباحة نكاح غيره لها و ليست شرطا في نكاحه هو إياها.

ص: 45

(54) (المسائل الرملية)

ص: 47

بسم اللَّه الرّحمن الرّحيم‏ (1)

[حكم الطلاق بعد ارتفاع الدم و إيلاء المرأة]

مسألة من المسائل الرملية، قال:

إذا كان الطلاق لا يقع بالمرأة الا و هي طاهر في طهر لا ملامسة فيه، فما الحكم في رجل قصد الى امرأة و هي طاهر فلامسها ثم آلى منها عقيب ملامستها و ارتفع الدم عنها فتربصت به أربعة أشهر لم يقربها وجب عليه فيها مرافعته الى الحاكم بعد الأجل فأمره بالكفارة فامتنع منها، أ يلزمه الطلاق و هي في طهر قد وقعت فيه الملامسة فيكون قد أفتى بضد ما يقتضيه المذهب، أم يتركه على حاله لا يكفر و لا يطلق فيخالف الإجماع في ذلك؟

(الجواب) و باللّه التوفيق:

ان الطلاق انما لا يقع في طهر تخللته الملامسة إذا كانت المرأة ممن تحيض و تطهر، فأما إذا ارتفع الدم عنها و يئست من الحيض و دام ارتفاع الدم‏[[68]](#footnote-68) فان‏

ص: 48

الطلاق يقع بها على كل حال.

و إذا كان الأمر على ما أوضحنا و صادف انقضاء الأربعة أشهر مرافعة المرأة لزوجها الى الحاكم اليائس من الحيض فالحاكم يأمره بالكفارة، فإذا امتنع ألزمه الطلاق، فان طلق وقع طلاقه، لأن طلاقه طلاق يائسة.

اللهم الا أن يسأل عمن صادف مرافعة من زوجته الى الحاكم بعد انقضاء الأجل حيضا و امتنع الزوج من الكفارة، و قيل لنا: كيف تقولون هاهنا أ يلزمه الطلاق و هو لا يقع منه أو تمسك عن إلزامه فيكون غير مكفر و لا مطلق؟

و الجواب عن ذلك:

انا نقول: انه ألزمه الطلاق بشرط طهارة زوجته، فكأنه يقول له: قد ألزمتك و حكمت عليك بأن تطلق زوجتك إذا طهرت فقد صار الطلاق لازما لما امتنع من الكفارة لكن على الوجه المطلوب.

و هذا بين بحمد اللَّه و توفيقه.

(2)

[حكم الخلاف في رؤية الهلال‏]

مسألة من المسائل الرملية:

ما القول في من طلب هلال شهر رمضان فلم يره، أو رآه و جوز رؤية غيره له من قبل في بلد آخر و كانت رويته لا تعطي معرفة له، أي شي‏ء يعتقد و على أي شي‏ء يقول؟

و كذلك إذا ظهر آخر الشهر لقوم و استتر عن قوم حتى وجب الصيام على من استتر عنهم و الإفطار على من ظهر لهم، أ ليس يؤدي هذا الى نقصانه عند بعض‏

ص: 49

المكلفين و تمامه عند آخرين فتبطل حقيقة شهر رمضان في نفسه، أو يكون له حقيقة عند اللَّه تعالى لم ينصب لخلقه دليلا يتفقون به عليها و يعتقدونها على وجهها، و يؤدي أيضا الى اختلاف الأعياد و فساد التواريخ و مماثلة أهل الاجتهاد في الخلاف؟

(الجواب) و باللّه التوفيق:

ان تكليف كل مكلف يختص به و لا يتعلق بغيره، فليس بمنكر أن يختلف تكليف الشخصين في الوقت الواحد، كما لا يمتنع اختلاف تكليف الشخص الواحد في الوقتين و الوجهين و في الوقت الواحد و الوجه الواحد إذا كان التكليف على التخيير.

و إذا صحت هذه الجملة فما المانع من أن يكون تكليف من رأى هلال شهر رمضان الصوم و تكليف من لم يره و لا قامت حجة برؤيته الفطر، و كذلك حكمها في رؤية الفطر.

و أي فساد في اختلاف التكليف إذا اختلفت وجوهه أو طرقه؟ أو ليس اللَّه تعالى قد كلف واجد الماء الطهارة به دون غيره و أسقط من فاقد الماء تكليف الطهارة به و كلفه التيمم بالتراب و جعل تكليفهما في صلاة واحدة مختلفا كما ترى، و لم يقتض ذلك فسادا.

و كذلك تكليف المريض الصلاة من قعود و الصحيح الصلاة من قيام، فاختلف التكليف فيهما لاختلاف أسبابهما به.

و من طلب جهة القبلة و غلب في ظنه بأمارة لاحت له أنها في بعض الجهات وجب عليه ان يصلي إليها بعينها، و من طلبها في تلك الحال و غلب في ظنه بأمارة أخرى أنها في جهة سواها وجب عليه أن يصلي الى خلاف الجهة الأولى. و كل واحد منهما مؤد فرضه و ان اختلف التكليف.

ص: 50

و لو ذهبنا الى ما ذكر مما يختلف فيه التكليف من ضروب الشرائع لطال القول و اتسع.

و لسنا نعيب أصحاب الاجتهاد بالاختلاف في التكليف على ظن المسائل، لأن الاختلاف إذا كان عن دليل موجب للعلم و حجة صحيحة لم يكن معيبا. و انما عبناهم بالاجتهاد و القياس في الشريعة، لأنه لا دليل عليهما و لا طريق إليهما.

ص: 51

(55) (شرح القصيدة المذهبة)

ص: 53

بسم اللَّه الرّحمن الرّحيم‏ الحمد للَّه رب العالمين، و العاقبة للمتقين، و صلاته على سيدنا محمد نبيه و آله الطاهرين.

سأل الأستاذ الفاضل أبو الحسن علي بن شه‏فيروز أدام اللَّه عزه تفسير قصيدة أبي هاشم إسماعيل بن محمد الحميري الملقب بالسيد رضي اللَّه عنه البائية التي أولها «هلا وقفت على المكان المعشب»، و إيضاح معانيها و مشكل ألفاظها.

و أنا أجيب الى ذلك على ضيق وقتي و تقسيم فكري و كثرة قواطعي.

و من اللَّه أستمد المعونة و التوفيق في كل قرب و طلب.

(1)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| هلا وقفت على المكان المعشب‏ |  | بين الطويلع‏[[69]](#footnote-69) فاللوى من كبكب‏ |
|  |  |  |

المعشب: هو المكان الكثير العشب، و العشب معروف، و منه مكان معشب‏

ص: 54

و عشيب و عاشب. و جمع العشب أعشاب.

و الطويلع: ماء لبني تميم في ناحية الضمان. و يكون مصغرا من أحد شيئين:

اما أن يكون من «طلع على القوم» أي أشرف عليهم، و اما من قولهم «اطلع الرجل» إذا قاء، و الطلعاء القي‏ء. فإن كان الأول فهو تصغير «طالع» لاشراف موضعه من الوادي الذي هو فيه و علوه، و ان كان من الثاني فهو تصغير على الأصل كأنه قال اطلع الرجل أي قاء، فطلع القي‏ء، كما أنهم قالوا: أتاع الرجل إذا قاء أيضا، كما قال القطامي:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و ظلت تعبط الأيدي كلوما |  | تمج عروقها العلق المتاعا |
|  |  |  |

قالوا: أتاع القي‏ء، نفسه. و إذا كان الاسم على ما قلنا طالعا، فان تصغيره «طويلع» الا أن التصغير دخله بعد أن صار اسما، لأن الصفة لا تصغر.

و اللوى مقصورا: انحناء بعد منقطع الرملة، و اما اللواء بالمد فهو الذي يعقد للوالي.

و أما «كبكب» فهو جبل معروف، و هو المطل على عرفات، و هو فعلل من الكبة و هي معظم الحرب. و كذلك كبة النار معظمها و جاحمها، و منه قوله تعالى‏ «فَكُبْكِبُوا فِيها هُمْ وَ الْغاوُونَ»[[70]](#footnote-70)، و معناه فكببوا، كقولك فتحت الأبواب إذا أردت تكثير الفعل. و يجوز أن يكون المعنى: ألقوا على وجوههم فيها.

و يمكن أيضا أن يكون اشتقاق «كبكب» من المتكبب، و هو المجتمع المتلون.

فان قيل: كيف يقول «بين الطويلع فاللوى من كبكب» و الكلام يدل على تقارب الموضعين، لأنه قال: هلا وقفت على المكان المعشب، بين كذا و كذا، و قد قلتم ان الطويلع بناحية الضمان، و كبكب جبل مطل على عرفات و بينهما بون‏

ص: 55

بعيد؟

قلنا: ليس يمتنع أن يأمره بالوقوف على كل مكان معشب بين هذين الموضعين و ان تباعدا. و يجوز أيضا أن يكون أمره بالوقوف على مكان بعينه معشب بين الطويلع فكبكب و ان تباعد ما بينهما، و هذا أحسن.

(2)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| فنجاد توضح فالنضايد فالشظا |  | فرياض سخة فالنقا من جونب‏ |
|  |  |  |

النجاد: جمع نجد، و هو الطريق المرتفع. و النجد أيضا: الأرض المستوية و جمعها نجود. و نجاد السيف حمائله. و النجاد أيضا اللجام.

و توضح: موضع مشهور، قال النابغة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| الواهب المائة الأبكار زينها |  | كالعين ترعى في مسالك أهضب‏ |
|  |  |  |

و توضح بالحمى حمى .. كانت إبل الملوك ترعاه، فلذلك ذكره النابغة و هو من «وضح الأمر» إذا بان و انكشف، و منه وضح الصبح: إذا بان و ظهر.

و أما «النضائد» فمشتقة من نضدت الشي‏ء: إذا عبأت بعضه الى بعض.

و النضد ما نضدت من متاع البيت بعضه على بعض. و النضد أيضا الشريف من الرجال و جمعه أنضاد. و النضائد أعمام الرجل و أخواله.

و الشظاء: موضع يشبه أن يكون سمي بذلك لبروزه و ظهوره، من قولهم شظي الفرس و تشظى شظى: إذا تحرك شظاه، و هو عصبة بين الوظيف و الابجر.

و يجوز أن يكون مشتقا من المشقة و الشدة، من قولهم: شظي الأمر شظا و شظوظا إذا شق و اشتد.

ص: 56

و أما «سنحة» فمشتقة من السنح بمعنى الاعتراض، يقال سنح سنوحا إذا عرض سنح الطريق متنه. و السانح ما أولاك ميامنه، و البارح ما أولاك مياسره من الوحش و الطير[[71]](#footnote-71).

و أما «النقا» فهو قطعة من الرمل تنقاد محدودبة به، و التثنية نقوان و نقيان لغتان.

و أما «جونب» فهو اسم موضع بلا شك، إلا أنني لست أعرف جهته و ناحيته الى الان، و قد تصفحت ما يجب أن يكون ذكره فيه فلم أجد، و ان وجدت مستقبلا ما يدل على هذا الموضع بعينه و جهته استأنف ذكره بمشيئة اللَّه تعالى.

(3)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| طال الثواء على منازل أقفرت‏ |  | من بعد هند و الرباب و زينب‏ |
|  |  |  |

أما «الثواء» فهو الإقامة، يقال ثويت بالمكان و أثويت. و الثوية: المنزل الذي يثوى اليه، و الثوي الضيف. و الثوية أيضا: عين تنبعث من حجارة للراعي يرجع إليها ليلا.

و أقفرت: بمعنى خلت من أهلها، يقال أرض قفر و قفرة للتي لا شي‏ء بها.

ص: 57

(4)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| أدم حللن بها و هن اوانس‏ |  | كالعين ترعى من مسالك اهضب‏ |
|  |  |  |

الأدم من الرجال و النساء: البيض الى السمرة، و من الإبل و الضباع: البيض إلى الحمرة.

و قوله «أوانس» يعني النساء، و قد مضى ذكرهن في البيت الأول.

و العين: بقر الوحش، الواحدة عيناء، سميت بذلك لكبر عينها.

و أهضب: جمع هضبة، و هو ما ارتفع من الأرض.

(5)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| يضحكن من طرب بهن تبسما |  | عن كل أبيض ذي غروب اشنب‏ |
|  |  |  |

الطرب: ما يستخف الإنسان من فرح أو حزن، قال الشاعر:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و أدالوا طربا في أمره‏ |  | طرب الواله أو كالمختبل‏ |
|  |  |  |

و قوله «يضحكن تبسما» مناقض، لأن الضحك الاستغراب و المبالغة إلى غاية لا يدركها التبسم، الا أنه أقامه مقامه فأجرى عليه اسمه‏[[72]](#footnote-72).

ص: 58

«و الغروب» جمع غرب، و هو من كل شي‏ء حده، و انما أراد تحديد الأسنان و ذلك من علامة حداثة السن.

و الشنب: برد الأسنان و عذوبتها، يقال: رجل أشنب و امرأة شنباء.[[73]](#footnote-73)

(6)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| حور مدامعها كأن ثغورها |  | و هنا صوافي لؤلؤ لم يثقب‏ |
|  |  |  |

حور: جمع حوراء، من الحور الذي هو شدة بياض العين و شدة سواد سوادها. و قيل بل هو أن يكون البياض محدقا بالسواد. و انما يكون ذلك في البقر و الظباء، و يستعار للناس.

و وهن الليل: قريب من نصفه، و أراد أن ثغورهن وصف من النساء (كذا) يعني يضي‏ء في هذا الوقت من الليل كما يضي‏ء الصافي من اللؤلؤ. و خص ما لم يثقب منه لأنه قبل الثقب لا يلبس و لا يستعمل و لا يستبذل فيتدنس بذلك.

(7)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| انس حللن بها نواعم كالدمى‏ |  | من بين محصنة و بكر خرعب‏ |
|  |  |  |

الانس: جمع آنسة.

و الدمى: جمع دمية، و هي الصورة.

و المحصنة: العفيفة، و هي أيضا ذات الزوج، و المراد بها هاهنا ذات زوج حتى يقابل قوله «بكر خرعب».

و أما «الخرعب» مق النساء و الخرعبة: فهي الطويلة اللينة العصب.

ص: 59

(8)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| لعساء واضحة الجبين اسيلة |  | وعث المؤزر جثلة المتنقب‏ |
|  |  |  |

اللعس: أن تشتد حمرة الشفة حتى تضرب الى السواد، امرأة لعساء و نساء لعس.

و وضح الجبين: بياضه و إشراقه.

و الأسئلة: السهلة الخد.

و قوله «وعث المؤزر» أي هي ثقيلة الردف مع لين و .. كالواعث من الرمل: و هو ما اجتمع منه في سهولة و لين.

فأما قوله «جثلة المتنقب» فالجثل: الكثيف و الكثافة في الوجه ليس فيها جمال توصف الحسناء به، و انما توصف بالسهولة في الخد و الوجه. و ما أعلم الى أي شي‏ء ذهب في هذا المعنى‏[[74]](#footnote-74).

(9)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| كنا و هن بنضرة و غضارة |  | في خفض عيش راغد مستعذب‏ |
|  |  |  |

النضرة: الحسن، يقال نضر الشي‏ء فهو ناضر أي حسن.

و الغضارة: البهجة.

ص: 60

و الخفض: لين العيش.

و الراغد: الواسع.

(10)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| أيام لي في بطن طيبة منزل‏ |  | عن ريب دهر حائر متقلب‏ |
|  |  |  |

طيبة: مدينة النبي صلى اللَّه عليه و آله و سلم، و من أسمائها: طيبة و يثرب و المدينة و الدار و المسكينة و جابرة و المجبورة و المحبة و المحبوبة و العذراء و الرعبوبة و القاصمة و يندد[[75]](#footnote-75)، فذلك ثلاثة عشر اسما.

ريب الدهر: خطوبه و طوارقه، و أصل الريب و الريبة الشك، يقال رابني الدهر إذا خفت منه و شككت فيه، في توجه الشر منه.

و معنى «عن ريب دهر» أي بدلا و عوضا عن ريب دهر، يقولون أعطيتك كذا من كذا أي بدلا عنه.

(11)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| فعفا و صار الى البلا بعد البنا |  | و أزال ذلك صرف دهر قلب‏ |
|  |  |  |

عفا: بمعنى درس، يقولون: عفا الموضع يعفو عفوا، و عفا فهو عاف إذا درس. و عفا القوم يعفون: إذا كثروا، و عفا الشعر و غيره إذا كثر.

ص: 61

و البناء: جمع بنية.

و صرف الدهر: تقلبه و تصرفه.

و القلب: المتقلب المتردد في الأمور، و من أوصاف الذئب: القلوب و القلب.

(12)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و لقد حلفت و قلت قولا صادقا |  | تاللّه لم آثم و لم اتريب‏ |
|  |  |  |

الإثم: الذنب و الفعل القبيح، و الإثم أيضا عند قوم الخمر، و الإثم بالفتح مصدر قولهم «ان الناقة لتأثم المشي أثما» إذا أبطأت.

و معنى لم أتريب: لم أجي‏ء بريبة و بما يشك فيه.

(13)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| لمعاشر غلب الشقاء عليهم‏ |  | و هوى امالهم لأمر متعب‏ |
|  |  |  |

أي حلفت لهؤلاء القوم الذين وصفتهم أن الشقاء غلب عليهم و أمالهم بهواهم الى الأمر المتعب.

(14)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| من حمير أهل السماحة و الندى‏ |  | و قريش الغر الكرام و تغلب‏ |
|  |  |  |

يشبه أن يكون انما خص بخطابه و وعظه حمير التي هي قبيلته لأن الانحراف عن أمير المؤمنين كان فيهم فاشيا شائعا، و قد روي في الأخبار أن داخلا دخل على السيد في غرفة له، فقال له السيد: لقد لعن أمير المؤمنين عليه السلام في هذه‏

ص: 62

الغرفة كذا و كذا سنة، و كان والداي يلعنانه في كل يوم كذا و كذا مرة، ثم قال:

و لكن الرحمة غاصت علي غوصا فاستنقذتني.

و لقد صدق في قوله، لأن من شأن الولد أن ينشأ في الأغلب و الأكثر على مذهب والديه لالفه لهما و تمرنه باستماع ما يقولانه، و لكن اللَّه تعالى اسمه يوفق من يشاء.

(15)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| اين التطرب بالولاء و بالهوى‏ |  | أ الى الكواذب من بروق الخلب‏ |
|  |  |  |

البرق الخلب: الذي لا مطر فيه، و هو مأخوذ من الخلب و الخلاب الذي هو الغدر و الخداع، يقال رجل خلاب و خلبوت بالتاء أي غادر. و الخلب أيضا:

الطير. و الخلب: قلب النخلة. و الخلب: الليف واحده خلبة. و الخلب: القطع، و قد خلبت الشي‏ء أخلبه خلبا، و به سمي المنجل: المخلب، و منه سمي مخلب الطائر. و الخلب: حجاب القلب. و يقال انه يخلب النساء: أي تحبه النساء.

فكأنه قال: إلى أين تذهبون بأهوائكم و ولائكم؟ أ تذهبون الى ما لا محصول له و لا ثمرة فيه و لا نفع يعود منه. و جعل الاعتقاد الذي لا يعود بنفع كالبرق الخلب الذي لا يتعقبه المطر.

(16)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| أ إلى أمية أم الى شيع التي‏ |  | جاءت على الجمل الخدب الشوقب‏ |
|  |  |  |

ذكر القبيلة نفسها و أراد أبناءها و من نسلت، و هذا في الكلام المنظوم و المنثور كثير.

ص: 63

و أما «الخدب» فهو الضخم، يقولون رجل خدب إذا كان عظيما، و رجل في خدب أي هوج، و هو رجل أخدب. و خدب جمع خدب. و درع خدباء أي واسعة.

و الشوقب: الطويل، يقولون حافر شوقب إذا كان واسعا.

و انما أراد بالتي جاءت على الجمل الذي وصفه: عائشة بنت أبي بكر الصديق فإنها جاءت في يوم الجمل راكبة على جمل هذه صفته.

و قيل ان اسم هذا الجمل «عسكر»، و شوهد من هذا الجمل في ذلك اليوم كل عجب، كلما أنبتت منه قائمة من قوائمه ثبت على أخرى، حتى روى أن أمير المؤمنين نادى: اقتلوا الجمل فإنه شيطان. و ان محمد بن أبي بكر و عمارا رحمة اللَّه عليهما توليا عقره بعد طول زمانه. و روي أن هذا الجمل بقي باركا ضاربا بجرانه سنة لا يأكل منه سبع و لا طائر.

(17)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| تهوى من البلد الحرام فنبحت‏ |  | بعد الهدو كلاب أهل الحوأب‏ |
|  |  |  |

إنما قال «تهوى من البلد الحرام» لأنها أقبلت من مكة تريد البصرة.

و تقول العرب: أتانا بعد هدو من الليل، و بعد هدء من الليل، و هدي من الليل- على مثال فعل- أي حين سكنوا، و الجمع هدوء على مثال فعول.

و الحوأب: ماء في الطريق ما بين البصرة و مكة من مياه بني كلاب.

و الحوأب: الوادي الكثير الماء، قال الراجز:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| هل لك من شربة بالحوأب‏ |  | فصعدي من بعدها و صوبى‏ |
|  |  |  |

ص: 64

و يجوز أن يكون هذا الماء انما سمي بالحوأب للسعة و الكثرة، و قد قيل انما سمي بالحوأب نسبة الى بنت كلب بن وبرة.

و روي أنه لما جاءت عائشة الى هذا الموضوع نبحتها كلاب الحوأب، فقالت عائشة: أي ماء هذا؟ قالوا: ماء الحوأب. فقالت: ردوني ردوني فاني سمعت رسول اللَّه يقول «أبصري لا تكوني التي تنبحها كلاب الحوأب».

فقالوا: ليس هذا ماء حوأب، فأبت أن تصدقهم، فجاؤا بخمسين شاهدا من العرب، فشهدوا أنه ليس بماء حوأب، و حلفوا لها، فكسوهم أكسية و أعطوهم دراهم، و كانت هذه أول شهادة زور حدثت في الإسلام‏[[76]](#footnote-76).

(18)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| يحدو الزبير بها و طلحة عسكرا |  | يا للرجال لرأي أم مشجب‏ |
|  |  |  |

معنى «يحدو» يسوق، يقال: حدوته أي سقته، و حداني إليه أي ساقني، و الاسم الحداء.

و انما قال «يا للرجال» بفتح اللام لأنه استغاث بهم، و كسر اللام في قوله «لرأي أم» لأنه المستغاث له.

و الشجب: الهلاك، يقال شجب يشجب شجبا فهو شاجب، و أشجبت زيدا إذا أهلكته.

و الأم هاهنا عائشة، لقول اللَّه عز و جل‏ «النَّبِيُّ أَوْلى‏ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ‏

ص: 65

وَ أَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ»[[77]](#footnote-77) و فسر ذلك بتفسيرين: أحدهما أنه تعالى أراد أنهن يحرمن علينا كتحريم الأمهات، و الأخر أنه يجب علينا من تعظيمهن و توقيرهن مثلما يجب علينا في أمهاتنا. و يجوز أن يراد الأمران معا فلا تنافي بينهما.

و من ذهب لأجل تسميته بأنهن أمهات المؤمنين الى أن معاوية خال المؤمنين فقد ذهب مذهبا بعيدا، و حاد عن رأي الصواب السديد، لأن أخا الأم انما يكون خالا إذا كانت الأمومة من طريق النسب، و أما إذا كانت على سبيل التشبيه و الاستعارة فالقياس غير مطرد فيها، و لهذا لا يسمى آباء أزواج النبي أجدادا لنا و لا أخواتهن لنا خالات، و لا يجري القياس في هذا الموضع مجراه في النسب.

و كيف اختص بالخؤولة معاوية دون كل اخوة أزواج النبي؟ و هلا وصف محمد بن أبي بكر و عبد اللَّه بن عمر بالخؤولة ان كان القياس مطردا؟ و لكن العصبية تعمي و تصم.

(19)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| يا للرجال لرأي أم قادها |  | ذئبان يكتنفانها في اذؤب‏ |
|  |  |  |

انما أراد بالذئبين هاهنا طلحة و الزبير، و قد سماهما بهذا الاسم للمكر و الخديعة و المؤاربة و المخاتلة، فإنهما كانا من أشد الناس على عثمان و أبسطهم لسانا فيه و اجلابا له، و كان طلحة ممن حاصر الدار و قاتل أهلها و باشر القتل و تولاه و تحدد فيه، ثم بايعا أمير المؤمنين مسابقين الى بيعته، مغتبطين على ولايته. ثم مالا عن ذلك حسدا و نفاسة، و استأذناه في الخروج إلى مكة للعمرة، فاذن لهما على ريبة

ص: 66

بهما و شك فيهما.

فقد روي عن ابن عباس رضي اللَّه عنه قال: كنت جالسا عند علي عليه السلام حين دخل طلحة و الزبير فاستأذناه في العمرة، فأبى أن يأذن لهما و قال: قد اعتمرتما، فأعادا عليه الكلام فأذن لهما، ثم التفت الي فقال: و اللَّه ما يريدان العمرة. فقلت له: لا تأذن لهما، فردهما ثم قال لهما: و اللَّه ما تريدان العمرة، و ما تريدان الا نكثا لبيعتكما و فرقة لأمتكما، فحلفا فأذن لهما، ثم التفت الي فقال: و اللَّه ما يريدان العمرة و لكن يريدان الغدرة. فقلت: فلم أذنت لهما؟ فقال: حلفا باللّه. قال:

فخرجا إلى مكة، فدخلا على عائشة فلم يزالا بها حتى أخرجاها.

و الاخبار من الطرق المختلفة متظافرة أن طلحة و الزبير حملا عائشة على المسير إلى البصرة بعد أن كان أشار عليها جماعة من الصحابة بالمقام، و جرى في ذلك من الجدال و الحجاج ما هو مشهور مشروح‏[[78]](#footnote-78). و من أراد تفحصه و النظر فيه فلينظر في الكتب المصنفة لا سيما في نصر بن مزاحم المنقري الذي أفرده لأخبار يوم الجمل، فإنه يقف من بواطن هذا الأمر على ما يكثر فيه عجبه، و يطول له ذكره.

و من الأخبار الطريفة ما رواه نصر بن مزاحم هذا عن أبي عبد الرحمن المسعودي عن السري بن إسماعيل بن الشعبي عن عبد الرحمن بن مسعود العبدي قال: كنت بمكة مع عبد اللَّه بن الزبير و بها طلحة و الزبير. قال: فأرسلا الى عبد اللَّه بن الزبير، فأتاهما و أنا معه، فقالا له: ان عثمان قتل مظلوما و انا نخاف‏

ص: 67

الانتشار من أمة محمد صلى اللَّه عليه و آله، فإن رأت عائشة أن تخرج معنا لعل اللَّه يرتق بها فتقا و يشعب بها صدعا. قال: فخرجنا نمشي حتى انتهينا إليها، فدخل عبد اللَّه بن الزبير في سمرها و جلست على الباب، فأبلغها ما أرسلا به إليها، فقالت: سبحان اللَّه، ما أمرت بالخروج، و ما تحضرني امرأة من أمهات المؤمنين الا أم سلمة، فإن خرجت خرجت معها فرجع إليهما فأبلغهما ذلك، فقالا: ارجع إليها فلتأتها فإنها أثقل عليها منا، فرجع إليها فبلغها، فأقبلت حتى دخلت على أم سلمة، فقالت أم سلمة: مرحبا بعائشة، و اللَّه ما كنت لي بزائرة فما بدا لك؟ قالت: قدم طلحة و الزبير فخبرا أن أمير المؤمنين عثمان قتل مظلوما. قال: فصرخت أم سلمة صرخة أسمعت من في الدار، فقالت: يا عائشة أنت بالأمس تشهدين عليه بالكفر و هو اليوم أمير المؤمنين قتل مظلوما، فما تريدين؟ قالت: تخرجين معي فلعل اللَّه أن يصلح بخروجنا أمر أمة محمد «ص». فقالت: يا عائشة أخرج و قد سمعت من رسول اللَّه ما سمعت، نشدتك باللّه يا عائشة الذي يعلم صدقك أن صدقت، أ تذكرين يومك من رسول اللَّه فصنعت حريرة في بيتي فأتيته بها و هو عليه السلام يقول: و اللَّه لا تذهب الليالي و الأيام حتى تتنابح كلاب ماء بالعراق يقال له الحوأب امرأة من نسائي في فتية باغية، فسقط الإناء من يدي، فرفع رأسه الي فقال: ما بالك يا أم سلمة؟ قلت: يا رسول اللَّه ألا يسقط الإناء من يدي و أنت تقول ما تقول؟ ما يؤمنني أن أكون أنا هي، فضحكت أنت، فالتفت إليك فقال «ص»: ما يضحكك يا حمراء الساقين، انى لأحسبك هي.

و نشدتك باللّه يا عائشة أ تذكرين ليلة أسري بنا رسول اللَّه «ص» من مكان كذا و كذا، و هو بيني و بين علي بن أبي طالب يحدثنا، فأدخلت جملك فحال بينه و بين علي، فرفع مرفقة كانت معه فضرب بها وجه جملك و قال: أما و اللَّه ما يومك منه بواحد، و لا بليته منك بواحدة، أما انه لا يبغضه الا منافق أو كذاب.

ص: 68

و أنشدك اللَّه يا عائشة أ تذكرين مرض رسول اللَّه «ص» الذي قبض فيه، فأتاك أبوك يعوده و معه عمر، و قد كان علي بن أبي طالب يتعاهد ثوب رسول اللَّه «ص» و نعله و خفه، و يصلح ما و هي منها. فدخل قبل ذلك، فأخذ نعل رسول اللَّه «ص» و هي حضرمية و هو يخصفها خلف البيت، فاستأذنا عليه فأذن لهما، فقالا: يا رسول اللَّه كيف أصبحت؟ قال: أصبحت أحمد اللَّه تعالى. قالا: ما بد من الموت؟

قال «ص»: لا بد منه. قالا: يا رسول اللَّه فهل استخلفت أحدا؟ فقال: ما خليفتي فيكم الا خاصف النعل، فخرجا فمرا على علي «ع» و هو يخصف النعل.

كل ذلك تعرفينه يا عائشة و تشهدين عليه لأنك سمعته من رسول اللَّه «ص».

ثم قالت أم سلمة: يا عائشة أنا أخرج على علي بعد هذا الذي سمعته عن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه و آله، فرجعت عائشة إلى منزلها فقالت: يا بن الزبير أبلغهما أني لست بخارجة بعد الذي سمعته من أم سلمة، فرجع فبلغهما. قال: فما انتصف الليل حتى سمعنا رغاء ابلها ترتحل، فارتحلت معهما.

و من العجائب أن يكون مثل هذا الخبر الذي يتضمن النص بالخلافة، و كل فضيلة غريبة موجودة في الكتب للمخالفين و فيما يصححونه من روايتهم و يصنفونه من سيرتهم و لا يتبعونه، لكن القوم رووا ما سمعوا، و أودعوا كتبهم ما حفظوا و نقلوا و لم يتخيروا و يتبينوا ما وافق مذهبهم دون ما خالفهم، و هكذا يفعل المسترسل المستسلم للحق.

و روى نصر بن مزاحم المنقري: ان القوم لما خرجوا من مكة يريدون البصرة فبلغوا «ذات عرق» قام سعيد بن العاص فحمد اللَّه و أثنى عليه ثم ذكر عثمان فترحم عليه و دعا له، لم قال: و قد زعمتم أيها الناس أنكم تخرجون لتطالبوا بدم عثمان، فان كنتم ذلك تريدون فان قتلة عثمان على صدور هذه المطي و أعجازها، فميلوا عليهم بأسيافكم، و الا فانصرفوا الى منازلكم و لا تقتلوا في طاعة المخلوقين أنفسكم،

ص: 69

و لا يغني من اللَّه الناس عنكم يوم القيامة. فقال مروان: يضرب بعضهم ببعض فمن قتل كان الظفر فيه و يبقى الباقي و هو واهن ضعيف.

(20)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| ذئبان قادهما الشقاء و قادها |  | للحين فاقتحما بها في منشب‏ |
|  |  |  |

الحين: الهلاك.

و اقتحما: أي دخلا، يقال اقتحمت على الأمر و هجمت عليه، و افتحمته عيني إذا ازدرته.

المنشب: يقال «نشب في الأمر بنشب» إذا دخل فيه و علق به، و مثله نشق الصيد في الحبالة ينشق إذا دخل فيها ما نشب.

(21)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| في ورطة لحجا بها فتحملت‏ |  | منها على قتب بإثم محقب‏ |
|  |  |  |

الورطة: الهلكة، و كذلك الوردة. و الورطة و الوراط: الخديعة.

و معنى لحجا: نشبا، يقال لحج لحجا و لخص يلخص لخصا إذا نشب.

و القتب: قتب الرحل، و القتب أيضا واحد الأمعاء و يقال لواحدتها قتبة.

فأما «محقب» فمن قولهم احتقب الذنب، مأخوذ من الحقيبة و الحقاب.

ص: 70

(22- 23)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| أم تدب الى ابنها و وليها |  | بالمؤذيات له دبيب العقرب‏ |
| [لو شد والدها بقوة قلبها |  | لاقى اليهود بخيبر لم يهرب‏][[79]](#footnote-79) |
|  |  |  |

لم يرد بقوله «ابنها و وليها» الإشارة إلى واحد، و انما أراد جنس الأبناء و الأولياء. و قد يعبر عن الجنس بلفظ الواحد، يقولون «أهلك الناس الدينار و الدرهم» و انما يراد الجنس لا الواحد. و قال اللَّه تعالى‏ «وَ حَمَلَهَا الْإِنْسانُ»[[80]](#footnote-80) و المراد الجنس لا تعيين واحد بعينه.

و لما كانت مضرة خروج الامرأة في يوم الجمل، و حربها للإمام العادل، لاحقة بالدين، عادت تلك المضرة على جميع المسلمين، فلهذا جعل ذلك الدبيب مشبها بدبيب العقرب من حيث اشتركا في المضرة و الأذية.

(24)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| اما الزبير فحاص حين بدت له‏ |  | جأواء تبرق في الحديد الأشهب‏ |
|  |  |  |

و يروى «حاض» أيضا، و معنى حاص و حاض واحد، لأنه مأخوذ من العدول عن الشي‏ء و الانحياز عنه، و يقولون في القلب «ضاح» مكان حاض.

و الجأواء: الكتيبة التي يضرب لونها الى السواد من صدأ الحديد، يقولون‏

ص: 71

في لون البعير جؤوة إذا خالطه مثل لون الحديد، و انما أراد بهذا القول انصراف الزبير عن الوقعة قبل إنجاز الأمر بالحرب و انفصاله.

أما انصراف الزبير فقد اختلف الناس فيه و في أسبابه و الداعي إليه: ادعى قومه أنه انصرف للندم على الحرب و التوبة منها، فإنه لما ذكره أمير المؤمنين علي بما ذكره به عاد إلى الحق و انصرف عن الحرب.

و قد تكلمنا على ذلك في كتابنا المعروف «بالشافي في الإمامة» و حررناه و فرعناه الى غايته، و أبطلنا أن يكون الرجوع للتوبة و الندم لوجوه كثيرة، من أوضحها: أنه لو كان للتوبة لوجب أن ينحاز إلى جهة أمير المؤمنين علي معتذرا اليه و متنصلا من بغيه عليه و نكثه لبيعته بعد أن كان قد عقدها و أكدها و تولى أيضا نصرته مع العود إلى الإقرار بإمامته، و قتال من أقام الحرب من البغاة، فلا حال هو فيها أحوج إلى النصرة و المعونة من حاله هذه.

و من جملتها أن قلنا: ان الانحياز عن الحرب و الرجوع عن مباشرتها، يحتمل وجوها كثيرة، فليس لنا أن نحمله على أحد محتملاتها بغير دليل قاطع. هذا إذا سلمنا أن الرجوع على ذلك الوجه محتملا للتوبة كاحتماله لغيرها، و قد بينا أنه لا يحتملها، لأنه لم يصر إلى جهة الإمام المفترض الطاعة متنصلا غاسلا لدرن ما أقدم عليه.

و بينا أيضا في ذلك الكتاب أن الرجل عصى بأفعال كثيرة: منها الحرب، و منها نكث البيعة، و الخروج عن الطاعة، و المطالبة بدم عثمان لمن لا يستحق أن يطالب به. فهب عوده عن الحرب توبة منها- و قد بينا أنه ليس كذلك- أ ليس باقي الذنوب قتلا، و هو عليها مصر غير نادم و لا مقلع. و في ما لم يثبت منه كفاية في الغرض المقصود.

و قد روى نصر بن مزاحم في كتابه الذي أشرنا إليه أن أمير المؤمنين عليا حين‏

ص: 72

وقع القتال تقدم على بغلة رسول اللَّه «ص» الشهباء بين الصفين، فدعا الزبير، فدنا منه حتى اختلفت أعناق دابتيهما، فقال: يا زبير أنشدك اللَّه أسمعت رسول اللَّه صلى اللَّه عليه و آله يقول: انك ستقاتله و أنت ظالم له؟ قال: اللهم نعم. قال:

فلم جئت؟ قال: جئت لأصلح بين الناس. فأدبر الزبير و هو يقول:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| أتى علي بأمر كنت أعرفه‏ |  | قد كان عمر أبيك الخير مذ حين‏ |
| فقلت حسبك من عذل أبا حسن‏ |  | بعض الذي قلت منه اليوم يكفيني‏ |
| فاخترت عارا على نار مؤججة |  | أنى يقوم لها خلق من الطين‏ |
| نبئت طلحة وسط القوم منجدلا |  | ركن الضعيف و مأوى كل مسكين‏ |
| قد كنت انصره حينا و ينصرني‏ |  | في النائبات و يرمي من يراميني‏ |
| حتى ابتلينا بأمر ضاق مصدره‏ |  | فأصبح اليوم ما يعنيه يعنيني‏ |
|  |  |  |

قال: أقبل الزبير إلى عائشة فقال: يا أمة اللَّه، ما لي في هذا الأمر بصيرة و أنا منصرف. فقالت عائشة: أبا عبد اللَّه أ فررت من سيوف ابن أبي طالب؟ فقال: انها و اللَّه طوال جدا و تحملها فئة أجلاء.

ثم أتى عبد اللَّه ابنه فقال: يا بني إني منصرف. فقال: ا تفضحنا في قريش؟

أ تتركنا حتى إذا التقت حلقتا البطان، فضحتنا في العرب؟ لا و اللَّه لا تغسل رءوسنا منها أبدا، أجبنا كل ما أرى يا أبتاه؟

فقال: يا ميسرة أسرج لي الفرس، ثم هيأ فرسه فرمى بها الى القوم ثلاث مرات فحطمهم ثم انصرف الى ابنه فقال: يا بني أ يفعل هذا الجبان؟ قال: لا فما ردك يا أبتاه؟ قال: ان علمته كسرك، قم بأمر الناس.

فخرج الزبير راجعا فمر بوادي السباع و فيه الأحنف بن قيس قد اعتزل في بني تميم فأخبر الأحنف بانصرافه فقال: ما أصنع به ان كان الزبير لف بين الغازيين‏

ص: 73

من المسلمين، و قتل أحدهما الأخر، ثم هو يريد اللحاق بأهله (كذا)، فسمعه ابن جرموز، فخرج هو و رجلان معه، و قد كان لحق بالزبير رجل من كلب و معه غلامه فلما أشرف ابن جرموز و صاحباه على الزبير حرك الرجلان رواحلهما فخلفا الزبير وحده، فقال لهما الزبير: ما لكما؟ هم ثلاثة و نحن ثلاثة. فلما أقبل ابن جرموز قال له الزبير: إليك عني. فقال ابن جرموز: يا أبا عبد اللَّه، انني جئت أسألك عن أمور الناس. فقال: تركت الناس على الركب يضرب بعضهم وجوه بعض بالسيف. فقال ابن جرموز: أخبرني عن أشياء أسألك عنها. قال: أخبرني عن خذلك لعثمان و عن بيعتك عليا و عن نقضك بيعته و اخراجك أم المؤمنين، و عن صلاتك خلف ابنك، و عن هذه الحرب التي جنيتها، و عن لحوقك بأهلك؟

فقال: أما خذلي لعثمان فأمر قدم فيه الذنب و أخر فيه التوبة. و أما بيعتي عليا فلم أجد منها بدا، إذ بايعه المهاجرون و الأنصار. و أما نقضي بيعته فإنما بايعته بيدي دون قلبي و أما اخراجي أم المؤمنين فأردنا أمرا و أراد اللَّه غيره، و اما صلاتي خلف ابني فإن خالته قدمته. فتنحى ابن جرموز و قال: قتلني اللَّه ان لم أقتلك [ثم جرى في قتله ما قد سطر].

و ذكر في هذا الحديث مواضع تدل على أن انصرافه لم يكن للتوبة، منها قوله «ما لي في هذا الأمر بصيرة»، و هذا قول شاك غير مستبصر، و التوبة لا تكون مع عدم الاستبصار و اليقين بالمعصية. و منها أنه قال لابنه «قم بأمر الناس»، فكيف يتوب من المعصية من يستخلف عليها؟ و منها تصريحه بأنه بائع أمير المؤمنين بلسانه و أنه كان مبطئا للبغي عليه و الغدر به، و انه أراد أمرا و أراد اللَّه غيره. فأي توبة تكون بالانصراف؟ و هذا كلام كله دال على خلاف التوبة، و انما كان بعد الانصراف و قد كان ينبغي لما اعترف في محاورة ابن جرموز .. التوبة أن يعترف‏

ص: 74

أمير المؤمنين (أيضا) خطيئة موبقة و انه قد تاب منها و أقلع عنها بعوده عن الحرب و لحوقه بأهله. و استقصاء هذا الكلام تجده في الكتاب الشافي متى طلبته.

(25)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| حتى إذا أمن الحتوف و تحته‏ |  | عاري النواهق ذو نجاء ملهب‏ |
|  |  |  |

الناهقان من الفرس: العظمان الشاخصان في وجهه، أسفل من عينيه، و الجمع النواهق. و يقال: الناهقان من الفرس و الحمار حيث يخرج النهاق من حلقه.

و النجاء: الإسراع، فسمي ما يكون النجاء به نجاء، و النجاء: السحاب الذي قد أهرق ماؤه، و يقولون: ناقة ناجية و نجاة تقطع الأرض بسيرها.

و الملهب: الفرس المسرع المضطرم، و يقولون: ألهب الفرس إلهابا فهو ملهب.

(26)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| اثوى ابن جرموز عمير شلوه‏ |  | بالقاع منعفرا كشلو التولب‏ |
|  |  |  |

معنى أثواه: تركه بالقاع، من الثواء الذي هو المقام. و ابن جرموز هو عمرو فصغره فقال: عمير، و يحتمل أن يكون تكبيرا، فان كان صغره للتكبير فلأنه جرى على يده أمر عظيم، و قتل رجل شجاع كبير. و وجه التحقير أنه كان خاملا غير نبيه النسب و لا معروف بفضيلته.

و الشلو: كعضو من أعضاء اللحم، و جمعه أشلاء.

و منعفر: من العفر و هو التراب، و منه قولهم «ظبي أعفر» إذا كان على لون‏

ص: 75

التراب. و العفر: يقال أيضا لمخاط الشيطان.

و التولب: ولد الحمار الحولي، و جمعه توالب.

(27)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و اغتر طلحة عند مختلف القنا |  | عبل الذراع شديد أصل المنكب‏ |
|  |  |  |

العبل: الضخم من كل شي‏ء، يقال: قد عبل يعبل عبالا، و يقال: عبل يعبل عبلا إذا أبيض و غلظ، فهو عبل. و جبل اعبل و صخرة عبلاء: أي بيضاء.

(28)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| فاختل حبة قلبه بمذلق‏ |  | ريان من دم جوفه المتصبب‏ |
|  |  |  |

معنى اختل: دخل في خلل قلبه.

و المذلق: المتحدد من كل شي‏ء.

و قد روي أن مروان بن الحكم هو الذي قتل طلحة بسهم رماه به.

و روي أنه تعمده، لأنه كان أشد الناس على عثمان، و هو ممن باشر الأمر و حضر يوم الدار.

و روي أن مروان في يوم الجمل، كان يرمي بسهامه في العسكرين معا و يقول:

من أصبت منهما فهو فتح، لقلة دينه و تهمته للجميع.

ص: 76

(29)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| في مارقين من الجماعة فارقوا |  | باب الهدى و حيا الربيع المخصب‏ |
|  |  |  |

المارقون: هم الذين خرجوا عن الجماعة، و العادلون من عدل الى جور، و من قصد الى خبط. و أصله من قولهم: مرق السهم من الرمية يمرق مروقا: إذا نفذ من الشق الأخر.

و الحيا المقصور: هو الغيث، و الحياء أيضا هو الاستحياء.

و المخصب: مأخوذ من الخصب، و هو سعة العيش.

(30)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| خير البرية بعد احمد من له‏ |  | مني الهوى و الى بنيه تطربى‏ |
|  |  |  |

انما عنى أمير المؤمنين عليه السلام و ان لم يسمه، لكنه وصفه بصفة ليست الا له بقوله «انه خير البرية بعد احمد».

و قد دلت الأدلة الواضحة على أن أمير المؤمنين عليه السلام خير البشر بعد النبي صلّى اللَّه عليه و آله و سلم و أفضلهم و أكملهم‏[[81]](#footnote-81)، و لو لم يدل على ذلك الا أنه استخلفه و نص عليه بالإمامة فقد دلت العقول على أن امامة المفضول للفاضل لا تحسن. و يدل أيضا على ما ذكرناه قوله صلّى اللَّه عليه و آله «أنت مني بمنزلة هارون من موسى الا أنه لا نبي بعدي»[[82]](#footnote-82)، و لا شبهة و لا خلاف في أن من جملة منازل‏

ص: 77

هارون من موسى أنه كان أفضل قومه عنده و أعلاهم منزلة لديه، وجب أن يكون أمير المؤمنين عليه السلام بهذه الصفة لأنها من جملة المنازل، و لم يخرجها الاستثناء.

و قد استقصينا الكلام في التفضيل و ما يتصل به في مواضع من كتبنا، و خاصة في الكتاب المعروف «بالشافي»، و ليس هذا موضوع تقصيه.

و معنى «و الى بنيه تطربي» أي إلى ولائهم و محبتهم خفوفي و اسراعي، لأنا قد بينا فيما تقدم معنى الطرب.

(31)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| أمسى و أصبح معصما منى له‏ |  | بهوى و حبل ولاية لم يقضب‏ |
|  |  |  |

معنى أمسى و أصبح معصما: أي متمسكا لازما، لأنهم يقولون: أعصم الرجل بصاحبه اعصاما إذا لزمه و تمسك به، و أعصمت القربة بالعصام: إذا شددتها به و معنى لم يقضب: لم يقطع، يقولون قضبت الشي‏ء قضبا أي قطعته، و منه قولهم: سيف قضاب. و القضب: الرطبة، و هي علف أهل العراق، و يقال لموضعها:

المقضبة، و لعلهم انما سموها بذلك لأجل القطع.

(32)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و نصيحة خلص الصفاء له بها |  | منى و شاهد نصرة لم يعزب‏ |
|  |  |  |

النصيحة معروفة، و هي المشورة بما فيه الحظ و الصلاح و نصح الشي‏ء مثل نصع: إذا خلص، و منه سميت النصيحة. و يقولون أيضا نصحت الثوب انصحه نصحا إذا خطته. و الناصح: الخياط. و النصاح: الخيط. و يقال نصحت الإبل‏

ص: 78

نصوحا: إذا رويت، و أنصحتها أنا انصاحا. و النصاحات: الجلود، واحدها نصاح.

و معنى «لم يعزب» لم يفارقني. يقال: عزب عنه حلمه إذا فارقه، فهو عازب.

و عزب عنى الشي‏ء عزوبا: إذا ذهب.

(33)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| ردت عليه الشمس لما فاته‏ |  | وقت الصلاة و قد دنت للمغرب‏ |
|  |  |  |

هذا خبر عن رد الشمس له عليه السلام في حياة النبي صلّى اللَّه عليه و آله، لأنه روى أن النبي «ص» كان نائما و رأسه في حجر أمير المؤمنين، فلما حان وقت صلاة العصر كره أن ينهض لأدائها فيزعج النبي «ص» من نومه، فلما مضى وقتها و انتبه النبي دعا اللَّه بردها عليه، فردها و صلى الصلاة في وقتها[[83]](#footnote-83).

فان قيل: هذا يقتضي أن يكون عليه السلام عاصيا بترك الصلاة.

قلنا: عن هذا جوابان:

(أحدهما): أنه انما يكون عاصيا إذا ترك الصلاة بغير عذر، و إزعاج النبي لا ينكر أن يكون عذرا في ترك الصلاة.

فإن قيل: الأعذار في ترك جميع أفعال الصلاة لا تكون الا بفقد العقل و التميز كالنوم و الإغماء و ما شاكلهما، و لم يكن في تلك الحال بهذه الصفة، و أما الأعذار التي يكون معها العقل و التميز ثابتين كالزمانة و الرباط و القيد و المرض الشديد و اشتباك القتال، فإنما يكون عذرا في استيفاء أفعال الصلاة و ليس بعذر في تركها أصلا، فإن كل معذور ممن ذكرنا يصليها على حسب طاقته و لو بالإيماء.

ص: 79

قلنا: غير منكر أن يكون صلى موميا و هو جالس لما تعذر عليه القيام إشفاقا من انزعاج النبي «ص». و على هذا تكون فائدة رد الشمس ليصلي مستوفيا لأفعال الصلاة، و ليكون أيضا فضيلة له و دلالة على عظم شأنه.

(و الجواب الأخر): ان الصلاة لم تنته بمعنى جميع وقتها، و انما فاته ما فيها من الفضيلة و المزية من أول وقتها و يقوي هذا شيئان:

أحدهما: الرواية الأخرى في الشعر «حين تفوته»، لأن قوله «حين تفوت» صريح في أن الفوت لم يقع و انما قارب و كاد.

و الشي‏ء الأخر قوله «و قد دنت للمغرب»، و هذا أيضا يقتضي أنها لم تغرب و انما دنت و قاربت الغروب.

فان قيل: إذا كانت لم تنته فأي معنى للدعاء بردها حتى يصلي في الوقت و هو قد صلى فيه؟

قلنا: الفائدة في ردها ليدرك فضيلة الصلاة في أول وقتها، ثم ليكون ذلك دلالة على سمو محله و جلالة قدره في خرق العادة من أجله.

فإن قيل: إذا كان النبي صلّى اللَّه عليه و آله هو الداعي بردها له، فالعادة انما خرقت للنبي «ص» لا لغيره.

قلنا: إذا كان النبي إنما دعا بردها لأجل أمير المؤمنين عليه السلام ليدرك ما فاته من فضل الصلاة، فشرف انخراق العادة و الفضيلة به منقسم بينهما.

فان قيل: كيف يصح رد الشمس و أصحاب الهيئة و الفلك يقولون ان ذلك محال لا تناله قدرة؟ و هبة كان جائزا في مذهب أهل الإسلام، أ ليس لو ردت الشمس من وقت الغروب الى وقت الزوال، لكان يجب أن يعلم أهل المشرق و المغرب بذلك؟ لأنها تبطئ بالطلوع على أهل البلاد، فيطول ليلهم على وجه‏

ص: 80

خارق للعادة، و يمتد من نهار قوم آخرين ما لم يكن ممتدا. و لا يجوز أن يخفى على أهل البلاد غروبها ثم عودها طالعة بعد الغروب، و كانت الأخبار تنتشر بذلك، و يؤرخ هذا الحادث العظيم في التواريخ، و يكون أهم و أعظم من الطوفان.

قلنا: قد دلت الأدلة الصحيحة الواضحة على أن الفلك و ما فيه من شمس و قمر و نجوم غير متحرك بنفسه، و لا بطبيعته على ما يهذي به القوم، و ان اللَّه تعالى هو المحرك له و المصرف باختياره. و لقد استقصينا الحجج على ذلك في كثير من كتبنا، و ليس هذا موضع ذكره.

و أما علم المشرق و المغرب و السهل و الجبل بذلك- على ما مضى في السؤال- فغير واجب، لأنا لا نحتاج الى القول بأنها ردت من وقت الغروب الى وقت الزوال، أو ما يقاربه على ما مضى في السؤال، بل نقول: ان وقت الفضل في صلاة العصر هو ما يلي بلا فصل، زمان أداء المصلى لفرض الظهر أربع ركعات عقيب الزوال، و كل زمان- و ان قصر و قل- يجاوز هذا الوقت، فذلك الوقت فائت.

و إذا ردت الشمس هذا القدر اليسير، الذي يفرض أنه مقدار ما يؤدى فيه ركعة واحدة، خفي على أهل الشرق و الغرب و لم يشعر به، بل هو مما يجوز أن يخفى على من حضر الحال، و شاهدها ان لم يمعن النظر فيها و التنقير عنها، فبطل السؤال على جواب الثاني المبني على فوت الفضيلة.

و أما الجواب الأخر المبني على أنها فاتت بغروبها للعذر الذي ذكرناه، فالسؤال أيضا باطل عنه، لأنه ليس بين مغيب قرص الشمس في الزمان و بين مغيب بعضها و ظهور بعض، الا زمان يسير قليل يخفى فيه رجوع الشمس، بعد مغيب جميع قرصها، الى ظهور بعضه على كل قريب و بعيد. و لا يفطن إذا لم يعرف سبب ذلك بأنه على وجه خارق للعادة. و من فطن بأن ضوء الشمس غاب‏

ص: 81

ثم غاب بعضه يجوز أن يكون ذلك لغيم أو حائل.

(34)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| حتى تبلج نورها في وقتها |  | للعصر ثم هوت هوى الكوكب‏ |
|  |  |  |

التبليج: مأخوذ من قولهم: بلج الصبح يبلج بلوجا إذا أضاء. و البلجة: آخر الليل، و جمعها بلج. و البلجة بالفتح: الحاجبان غير مقرونين، يقال منه: رجل أبلج و امرأة بلجاء.

و أما «هوي الكوكب» فأراد به سقوط الكوكب و غيبوبته، يقولون أهويت أهوى هويا إذا سقطت إلى أسفل، و كذلك الهوي في السير و هو المضي فيه. و يقال:

هوى من السقوط فهو هاو، و هوى من العشق فهو هو، و هوت الظبية تهوي: إذا فتحت فاها. و يقال: مضى هوي من الليل: أي ساعة.

(35)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و عليه قد حبست ببابل مرة |  | أخرى و ما حبست لخلق معرب‏ |
|  |  |  |

هذا البيت يتضمن الاخبار عن رد الشمس ببابل على أمير المؤمنين عليه السلام، و الرواية بذلك مشهورة، و أنه «ع» لما فاته وقت صلاة العصر ردت الشمس له حتى صلاها في وقتها.

و خرق العادة هاهنا لا يمكن أن يقال ان نسبته الى غيره، كما أمكن في أيام النبي صلّى اللَّه عليه و آله. و الصحيح في فوت الصلاة هاهنا أحد الوجهين اللذين‏

ص: 82

تقدم ذكرهما في رد الشمس على عهد النبي «ص»، و هو أن فضيلة أول الوقت فاتته بضرب من الشغل، فردت الشمس ليدرك الفضيلة بالصلاة في أول الوقت، و قد بينا هذا الوجه في البيت الذي أوله «ردت عليه الشمس»، و أبطلنا قول من يدعي أن ذلك يجب أن يقيم الخلق في الافاق معرفته حتى يدونوه و يؤرخوه.

و أما من ادعى ان الصلاة فاتته- بأن انقضى جميع وقتها، اما لتشاغله بتعبيته عسكره، أو لأن بابل أرض خسف لا تجوز الصلاة عليها- فقد أبطل، لأن الشغل بتعبية العسكر لا يكون عذرا في فوت صلاة فريضة. و أما أرض الخسف فإنها تكره الصلاة فيها مع الاختيار. فأما إذا لم يتمكن المصلي من الصلاة في غيرها و خاف فوت الوقت وجب أن يصلي فيها و تزول الكراهة.

و أما قوله «و عليه قد حبست ببابل» فالمراد بحبست: ردت، و انما كره أن يعيد لفظة الرد لأنها قد تقدمت.

فان قيل: حبست بمعنى وقفت، و معناه يخالف معنى ردت.

قلنا: المعنيان هاهنا واحد، لأن الشمس إذا ردت الى الموضع الذي تجاوزته فقد حبست عن المسير المعهود و قطع الأماكن المألوفة.

و أما المعرب: فهو الناطق المفصح بحجته، يقال: أعرب فلان عن كذا: إذا أبان عنه.

(36)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| الا لأحمد أو له و لردها |  | و لحبسها تأويل أمر معجب‏ |
|  |  |  |

الذي أعرفه و هو المشهور في رواية «الا ليوشع أو له»، فقد روي أن يوشع‏

ص: 83

عليه السلام ردت عليه الشمس.

و على الروايتين معا سؤال، و هو أن يقال: سواء قال «لأحمد» أم قال «ليوشع أوله» فإن الرد عليهما جميعا، و إذا ردت الشمس لكل واحد منهما لم يجز إدخال لفظة «أو»، و الواو أحق بالدخول هاهنا، لأنه يوجب الاشتراك و الاجتماع أ لا ترى أنه لا يجوز أن يقول قائل «جاءني زيد أو عمرو» و قد جاءا جميعا، فإنما يقال ذلك إذا جاء أحدهما.

و الجواب عن السؤال: ان الرواية إذا كانت «إلا لأحمد أوله» فإن دخول لفظة «أو» هاهنا صحيح، لأن رد الشمس في أيام النبي صلّى اللَّه عليه و آله يضيفه قوم اليه دون أمير المؤمنين عليه السلام، و قد رأينا قوما من المعتزلة الذين يذهبون الى أن العادات لا تنخرق الا للأنبياء «ع» دون غيرهم، ينصرون و يصححون رد الشمس في أيام النبي «ص» و يضيفونه الى النبوة، فكأنه قال: ان الشمس قد حبست عليه ببابل، و ما حبست إلا لأحمد «ص»، على ما قاله قوم، أو له على ما قاله آخرون، لان رد الشمس في أيام النبي «ص» مختلف في جهة إضافته، فأدخل لفظة «أو» للشك لهذا السبب.

و أما الرواية إذا كانت بذكر يوشع فمعنى «أو» هاهنا معنى الواو، فكأنه قال:

ليوشع و له، كما قال اللَّه تعالى‏ «فَهِيَ كَالْحِجارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً»[[84]](#footnote-84) على أحد التأويلات في الآية، و كما قال الشاعر:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و قد زعمت ليلي بأني فاجر |  | لنفسي تقاها أو علي فجورها |
|  |  |  |

ص: 84

(37)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و لقد سرى في ما يسير بليلة |  | بعد العشاء بكربلا في موكب‏ |
|  |  |  |

أما السري: فهو سير الليل كله، و هي مؤنثة، لأنها جمع سرية و سروة، يقولون: سريت الثوب عن الرجل و سروته: إذا كشفته، أسريه سريا، و أسرو سروا. و السرو: ما ارتفع من عن موضع السيل و انحدر عن غلظ الجبل، و منه قيل سرو حمير.

و يقال: سرأت المرأة: كثر ولدها، و سرأت الجرادة و الضبة تسرأ سرءا:

إذا باضت، و أسرأت: إذا حان ذلك منها. و أول ما تكون الجرادة فهي سروة، و إذا تحرك فهو دبى قبل أن تنبت أجنحته، ثم يكون غوغاء، و به سمي غوغاء الناس.

و كربلاء: الموضع المعروف بنواحي الطفوف، و هو الذي قتل فيه سيدنا أبو عبد اللَّه الحسين بن علي عليه السلام.

و يشبه أن يكون اشتقاق هذا الاسم من الكراب الذي هو الحرث، و الكراب الحراث. و من أمثال العرب «الكراب على البقر»، و يقولون ما بها كراب:

أي أحد.

(38)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| حتى اتى متبتلا في قائم‏ |  | القى قواعده بقاع مجدب‏ |
|  |  |  |

أراد بالمتبتل الراهب، من البتل و هو القطع، و مثله البت و البلت. و انما

ص: 85

سمي الراهب متبتلا لقطعه نفسه عن الناس و عن اللذات، و منه امرأة متبتلة: كل جزء منها يقوم بنفسه في الحسن، و العذراء البتول: التي انقطعت عن الأزواج، و صدقة بتلة على هذا المعنى. و إذا انفردت الفيلة و استغنت عن أمهاتها فهي البتول و أمها مبتل. و تبرت الشي‏ء مثل بتلته و بتكته أيضا: قطعته.

و أما «القائم» فهو صومعة الراهب.

و القاع: الأرض الحرة الطين التي لا حزونة فيها و لا انهباط، و الجمع:

القيعان، و قاعة الدار: ساحتها.

و القواعد: جمع قاعدة، و هي أساس الجدار و كل ما يبنى.

و يجدب: مأخوذ من الجدب الذي هو ضد الخصب. و الجدب: العيب، يقال جدبه يجدبه فهو جادب إذا عابه، قال ذو الرمة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| فيا لك من خد أسيل و منطق‏ |  | رخيم و من خلق تعلل جادبه‏ |
|  |  |  |

و هذه قصة مشهورة قد جاءت الرواية بها، فإن أبا عبد اللَّه البرقي روى عن شيوخه عمن خبرهم قال: خرجنا مع أمير المؤمنين نريد صفين، فمررنا بكربلاء فقال عليه السلام: أ تدرون أين نحن؟ هاهنا مصرع الحسين و أصحابه. ثم سرنا يسيرا فانتهينا الى راهب في صومعة، و قد انقطع الناس من العطش، فشكوا ذلك الى أمير المؤمنين عليه السلام، و ذلك لأنه أخذ بنا على طريق البر و ترك الفرات عيانا. فدنا من الراهب فهتف به فأشرف من صومعته، فقال: يا راهب هل قرب صومعتك من ماء؟ قال: لا فسار قليلا حتى نزل بموضع فيه رمل، فأمر الناس فنزلوا، فأمرهم أن يبحثوا عن ذلك الرمل، فأصابوا تحت ذلك الرمل صخرة بيضاء، فاقتلعها أمير المؤمنين عليه السلام بيده و نحاها فإذا تحتها ماء أرق من الزلال و أعذب من كل ماء، فشرب الناس و ارتووا و حملوا منه، و رد الصخرة و الرمل كما كان.

ص: 86

قال: فسرنا قليلا و قد علم كل واحد من الناس مكان العين، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: بحقي عليكم الا رجعتم الى موضع العين فنظرتم هل تقفون عليها؟

فرجع الناس يقفون الأثر إلى موضع الرمل، فبحثوا ذلك الرمل فلم يصيبوا العين فقالوا: يا أمير المؤمنين لا و اللَّه ما أصبناها، و لا ندري أين هي.

قال: فأقبل الراهب فقال: أشهد يا أمير المؤمنين ان أبي أخبرني عن جدي- و كان من حواريي عيسى عليه السلام- أنه قال: ان تحت هذا الرمل عينا من ماء أبرد من الثلج و أعذب من كل ماء عذب، و أنه لا يقع عليها إلا نبي أو وصي نبي، و أنا أشهد أن لا إله إلا اللَّه و أن محمدا عبده و رسوله و انك وصي رسول اللَّه و خليفته و المؤدي عنه، و قد رأيت أن أصحبك في سفرك فيصيبني ما أصابك من خير و شر فقال له خيرا و دعا له بالخير، و قال عليه السلام: يا راهب الزمني و كن قريبا مني ففعل.

فلما كانت ليلة الهرير و التقى الجمعان و اضطرب الناس فيما بينهم قتل الراهب فلما أصبح أمير المؤمنين عليه السلام قال لأصحابه: انهضوا بنا فادفنوا قتلاكم.

و أقبل أمير المؤمنين يطلب الراهب حتى وجده فصلى عليه و دفنه بيده في لحده، ثم قال أمير المؤمنين عليه السلام: و اللَّه لكأني أنظر اليه و الى زوجته و الى منزلته و درجته التي أكرمه اللَّه بها[[85]](#footnote-85).

و ليس لأحد أن ينكر هذا الخبر من حيث كان خارقا للعادة و لاحقا بالمعجزات و لأنا قد بينا في مواضع من كتبنا و في كتاب «الشافي في الإمامة» خاصة، ان المعجزات يجب ظهورها على أيدي الأئمة عليهم السلام، و تكلمنا على شبه من امتنع من ذلك، و ليس هذا موضع الكلام فيه.

ص: 87

(39)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| يأتيه ليس بحيث يلقى عامرا |  | غير الوحوش و غير أصلع أشيب‏ |
|  |  |  |

معنى يأتيه‏[[86]](#footnote-86): أي يأتي إلى الراهب، و هو في الكلام الذي ذكر صفته.

و معنى عامر: انه لا يقيم فيه سوى الوحوش، فان من أقام بمكان فكأنه قد عمره. و يمكن أن يكون أيضا مأخوذا من العمرة التي هي الزيارة.

و الأصلع الأشيب: هو الراهب.

(40)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| في مدمج زلق أشم كأنه‏ |  | حلقوم أبيض ضيق مستصعب‏ |
|  |  |  |

المدمج: هو الشي‏ء المستور، يقال أدمج الرجل و دمج بتشديد الميم: إذا دخل في الشي‏ء فاستتر، و مثله أدمقت الباب ادماقا: إذا دخلته، و اندمق هو:

إذا دخل.

و صومعة الراهب تستر من دخل فيها لا محالة.

و الزلق: معروف، و هو الذي لا يثبت على قدم.

و الأشم: الطويل المشرف .. الأبيض هاهنا هو الطائر الكبير من طيور الماء، و العرب تسمي الكبير من طيور الماء أبيض. و تشبيه الصومعة الطويلة بحلقوم طائر الماء من واقع التشبيه، و انما جر لفظتي «ضيق» و «مستصعب» لأنه جعلها من وصف المدمج الزلق و الأشم.

ص: 88

(41)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| فدنا فصاح به فأشرف ماثلا |  | كالنسر فوق شظية من مرقب‏ |
|  |  |  |

الماثل: المنتصب و مثل أيضا: لطأ بالأرض، و هو من الأضداد. و مثل: غاب عنك، و مثل الرجل من مرضه مثالة: إذا حسنت حاله، و مثل به يمثل مثولا من المثلة. و المثال: الفراش، و جمعه مثل.

و النسر: الجارح المشهور و انما شبه الراهب بالنسر لعلو سنه و طول عمره و مما يدل على أنه أراد به ما ذكرناه قول الشاعر:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| يا نسر لقمان كم تعيش و كم‏ |  | تسحب ذيل الحياة يا لبد |
|  |  |  |

و الشظية: قطعة من الجبل منفردة.

و المرقب و المرقبة: المكان العالي.

(42)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| هل قرب قائمك الذي بوأته‏ |  | ماء يصاب فقال ما من مشرب‏ |
|  |  |  |

معنى «بوأته» أسكنته، يقال بوأته المنزل تبويئا و اباءة و إباوه: اجتمعت و إياه، و المباءة: المنزل. و باء الرجل بصاحبه بواء: إذا قتل به، و باء بذنبه يبوء بواء: إذا اعترف به.

و نفيه أن يكون هنا ماء يشرب نفي للماء، لأنه إذا لم يكن مشرب فلا ماء يشرب.

ص: 89

(43)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| إلا بغاية فرسخين و من لنا |  | بالماء بين نقا و قي سبسب‏ |
|  |  |  |

و قوله «الا بغاية فرسخين» من فصيح الكلام و وجيزه.

و قد مضى تفسير النقا.

و القى: الصحراء الواسعة.

و السبسب: الأرض القفر، و البسبس و الجمع سباسب و بسابس، و السباسب:

كل عيد للعرب سمي بهذا الاسم، و منه قول النابغة الذبياني:

|  |
| --- |
| يحيون بالريحان يوم السباسب‏ |

(44)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| فثنى الاعنة نحو وعث فاجتلى‏ |  | ملساء تبرق كاللجين المذهب‏ |
|  |  |  |

الوعث: المكان اللين الذي لا يسلك، لأن الأخفاف تغيب فيه. الوعث من الرمل: كل لين سهل. و امرأة وعثة الأرداف: لينتها. و يقولون: نعوذ باللّه من وعثاء السفر، يعنون ألمه و تعبه.

و معنى «اجتلى ملساء» أي نظر الى صخرة ملساء و انجلت لعينه.

و معنى تبرق: تلمع، و لم يرض بأن جعل لمعانها مثل لمعان اللجين، الذي هو الفضة حتى جعله لجينا مذهبا، فهو أقوى لبريقه و لمعانه.

ص: 90

(45)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| قال اقلبوها انكم ان تقلبوا |  | ترووا و لا تروون ان لم تقلب‏ |
|  |  |  |

(ش 1) يقال: انه عليه السلام أمرهم بقلبها و أخبرهم أن الماء تحتها، فاجتمعوا و حاولوا قلبها فلم يقدروا عليه، فدنا منها فاقتلعها وحده، فلما ارتووا أعادها.

(ش 2) الهاء في «اقلبوها» راجعة إلى الصخرة الملساء التي تقدم ذكرها.

و معنى «ان تقلبوا ترووا» انكم تجدون من الماء ما يرويكم إذا شربتم منه، فحذف هذا كله و اختصره بلاغة و فصاحة.

(46)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| فاعصوصبوا في قلبها فتمنعت‏ |  | منهم تمنع صعبة لم تركب‏ |
|  |  |  |

معنى «اعصوصبوا» اجتمعوا على قلعها و صاروا عصبة واحدة، و يقولون:

اعصوصبت الإبل و عصبت: إذا اجتمعت.

و الصعبة: أراد بها ما لم يذلله الركوب و الرياضة من فرس أو بكر، فأقام الصفة مقام الموصوف.

و أحسن كل الإحسان في تشبيه تمنع الصخرة على تحركها و قلبها بتمنع الصعبة على راكبها.

ص: 91

(47)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| حتى إذا أعيتهم اهدى لها |  | كفا متى ترم المغالب تغلب‏ |
|  |  |  |

معنى أعيتهم: أي عجزوا عن قلعها، و هو الكلال. و يجوز أن يكون من قولهم «عي بالأمر» إذا ضاق به و لم يجد عنه مخرجا.

و معنى «أهوى لها كفا» مد لها كفا، من قولهم: أهويت اليه بالسيف و غيره أهواء، و أهويت بالشي‏ء إذا أوميت به، و أهويت به: إذا ألقيته في أهوية، و أهويته:

ألقيته من الهواء.

و أراد بالمغالب: الرجل الغالب.

(48)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| فكأنها كرة بكف حزور |  | عبل الذراع دحا بها في ملعب‏ |
|  |  |  |

الهاء في قوله «كأنها» ترجع إلى الصخرة.

و الكرة معروفة.

و الحزور: الغلام المترعرع، و جمعه حزاور و حزاورة.

و العبل: الغليظ الممتلئ.

«و دحا» هاهنا بمعنى رمى، يقولون: دحا الفرس يدحو دحوا: إذا رمى بيده رميا، لا يرفع سنبكه عن الأرض. و دحا أيضا: بسط، و منه قوله تعالى‏ «وَ الْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها»[[87]](#footnote-87) أي بسطها.

ص: 92

و لقد أحسن في هذه المبالغة و الارتقاء منها إلى غاية بعد أخرى، لأنه انما أراد خفة حمل الصخرة عليه، و تسهيل تصريفها، و تيسير تقليبها، قال: فكأنها كرة و هذا كاف في سرعة تحريكها و تصريفها، و لم يرض بذلك حتى قال: بكف حزور، و لم يقنع حتى قال أيضا: عبل الذراع، و لم يرضه كل ذلك حتى قال: دحا بها في ملعب.

(49)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| فسقاهم من تحتها متسلسلا |  | عذبا يزيد على الزلال الأعذب‏ |
|  |  |  |

انما أراد ماء متسلسلا، فأقام الصفة مقام الماء. و يقال: ماء سلسل و سلاسل أي سلس في الحلق، و هو البارد. و كذلك السلسل و السلسبيل.

و الزلال: الصافي، و يقال هو البارد.

(50)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| حتى إذا شربوا جميعا ردها |  | و مضى فخلت مكانها لم يقرب‏ |
|  |  |  |

و معنى قوله «فخلت مكانها لم يقرب» أنه أعادها على حالها الأولى و مكانها بعينه، من غير تأثير يدل على أنها قلعت ثم أعيدت.

(51)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| أعني ابن فاطمة الوصي و من يقل‏ |  | في فضله و فعاله لم يكذب‏ |
|  |  |  |

انما عنى ابن فاطمة أمير المؤمنين عليه السلام، لأن أمه فاطمة بنت أسد بن‏

ص: 93

هاشم بن عبد مناف، و هي أول هاشمية ولدت لهاشمي، و روي أنها ولدته عليه السلام في الكعبة، و لا نظير له في هذه الفضيلة[[88]](#footnote-88).

و لفاطمة بنت أسد فضائل و خصائص معروفة يطول ذكرها و شرحها.

و أمير المؤمنين «ع» وصي رسول اللَّه، و قد أجمع الناس على إطلاق هذا الاسم له، و وصفه بهذا الوصف حتى صار علما مشهورا و وصفا مميزا، و ان اختلف في معناه: فذهب قوم إلى أنه وصيه في أهله خاصة و هم مخالفو الشيعة. و ذهبت الشيعة إلى أنه وصيه بالإطلاق في أهله و أمته. و الأمر في تسميته بالوصي أشهر من أن يحتج فيه بخبر منقول، و ان كانت الأخبار في ذلك متظافرة متواترة[[89]](#footnote-89) و روى الثقفي، عن مخول بن إبراهيم، عن عبد الرحمن الأسود اليشكري، عن محمد ابن أبي بكر، عن عبادة بن عبد اللَّه، عن سلمان الفارسي قال: سألت رسول اللَّه صلى اللَّه عليه و آله: من وصيك من أمتك؟ فإنه لم يبعث نبي الا و كان له وصي من أمته؟ فقال رسول اللَّه «ص»: لم يتبين لي بعد. فمكثت ما شاء اللَّه لي أن امكث و دخلت المسجد، فناداني رسول اللَّه «ص»، فقال: يا سلمان سألتني عن وصيي من أمتي؟ فهل تدري من كان وصي موسى من أمته؟ فقلت: كان وصيه يوشع بن نون فتاة. فقال «ص»: فهل تدري لم كان أوصى اليه؟ قلت: اللَّه و رسوله أعلم. قال: أوصى اليه لأنه كان أعلم أمته بعده، و وصيي هو أعلم أمتي بعدي علي بن أبي طالب.

و خبر يوم الدار مشهور، فإن النبي جمع بنى عبد المطلب فخطبهم و قال:

أيكم يؤازرني على هذا الأمر يكن أخي و وصيي و خليفتي في أهلي و منجز وعدي و قاضي ديني؟ فأحجم القوم جميعا الا عليا عليه السلام، فقال له النبي «ص»: أنت‏

ص: 94

أخي و وزيري و خليفتي في أهلي؟ تنجز عدتي و تقضي ديني. و ما روي في هذا المعنى أكثر من أن يحصى‏[[90]](#footnote-90).

و أما قوله «في فضله و فعاله لم يكذب»، فإنما أراد المبالغة في وصف فضله بالكثرة و الوفور، فالقائل فيه و المعدد له صادق على كل حال، لأنه بين تقصير و اطالة هو في كليهما صادق من زيادة الفضل على كل حد ينتهي اليه.

(52)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| ليست ببالغة عشير عشير ما |  | قد كان أعطيه مقالة مطنب‏ |
|  |  |  |

روى الثقفي، عن مخول بن إبراهيم، عن عبد الرحمن بن الأسود اليشكري عن محمد بن أبي بكر، عن عبادة بن عبد اللَّه، عن سلمان الفارسي رضي اللَّه عنه قال: سألت رسول اللَّه صلى اللَّه عليه و آله و سلم: من وصيك من أمتك، فإنه لم يبعث نبي الا و كان له وصي من أمته؟ فقال: لم يتبين لي بعد. فمكثت ما شاء اللَّه ان أمكث و دخلت المسجد، فناداني رسول اللَّه صلّى اللَّه عليه و آله و سلم فقال:

يا سلمان، سألتني عن وصيي من أمتي، فهل تدري لما [ذا] أوصي اليه؟ فقلت:

اللَّه و رسوله أعلم. فقال: أوصي اليه لأنه كان أعلم أمته، و أعلم أمتي من بعدي علي و هو وصيي. فأي فضلة أعظم من هذه؟

و خبر يوم الدار مشهور: أن النبي صلّى اللَّه عليه و آله و سلم جمع بني عبد المطلب ثم خطبهم و قال: أيكم يؤازرني على هذا الأمر، و يكون أخي و وصيي و خليفتي في أهلي، ينجز وعدي، و يقضي ديني، فأحجم القوم الا عليا عليه السلام‏

ص: 95

فقال له النبي صلّى اللَّه عليه و آله و سلم: أنت أخي و وزيري و وصيي و وارثي و خليفتي تنجز وعدي و تقضي ديني.

و قد روي في هذا المعنى من هذه الروايات ما هو أكثر من أن يحصى، و ذلك معنى قوله «و من يقل في فضله و فعاله لم يكذب». أي فضله كثير يستغني به من يريد الإطالة في عد مناقبه و فضائله عن كذب فيها، و استعارة لما ليس بصحيح ليكثر به القول، فإنه- و ان أطال- عاجز أن يأتي على جميع فضائله و مناقبه عليه السلام.

فأما «المطنب» فهو المكثر من القول، و الاطناب: الإكثار من القول.

و الاطنابة: السير الذي على رأس الوتر. و الاطنابة: أيضا المظلة.

(53- 54)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| صهر الرسول و جاره في مسجد |  | طهر يطهره الرسول مطيب‏ |
| سيان فيه عليه غير مذمم‏ |  | ممشاه ان جنبا و ان لم يجنب‏ |
|  |  |  |

أما مصاهرة أمير المؤمنين عليه السلام للنبي صلّى اللَّه عليه و آله و سلم فإنها من المناقب العظام و الفضائل الجسام، لأن الروايات وردت متظاهرة أن أبا بكر خطب فاطمة عليها السلام الى أبيها فرده عنها و قال له: لم أؤمر بذلك، ثم خطبها عمر فكان له من الجواب مثل ذلك، فلما خطبها أمير المؤمنين قال «ص»: هي لك.

و روي في أخبار كثيرة مختلفة الألفاظ و الطرق أن النبي «ص» قال لأمير المؤمنين: ما زوجتكها، انما زوجكها اللَّه من السماء.

و في خبر آخر: ان فاطمة قالت: يا رسول اللَّه زوجتني خفيف الشي‏ء لا مال له. فقال «ص»: أما ترضين يا بنيتي أن يكون زوجك أول المسلمين سلما، و أفضلهم‏

ص: 96

حلما، و أكثرهم علما؟ فقالت عليها السلام: بلى رضيت بما رضي اللَّه لي و رسوله.

و في هذه المصاهرة أكبر دليل على طهارة باطن أمير المؤمنين عليه السلام، و ان ظاهره في الخير و الفضل كباطنه، فان من اختاره اللَّه صهرا لنبيه «ص» و تخطى اليه الخلق أجمعين، لا يجوز أن يكون الا على الصفة التي ذكرناها، لأن من يعلم الغيوب لا يختار الا على الباطن دون الظاهر لعلمه بالباطن. و انما كان اختيارنا مقصورا على الظاهر لأنا لا نعلم الباطن و لا طريق لنا الى علمه، و لو علمنا البواطن ما اخترنا الا عليها. و في هذا الذي ذكرنا دليل واضح على عصمة أمير المؤمنين عليه السلام و طهارة باطنه، و موافقة باطنه لظاهرة.

و أما ذكر المسجد فإنما عنى به مسجد النبي صلّى اللَّه عليه و آله و سلم، فان اللَّه أحل لأمير المؤمنين عليه السلام ما خصه به و صرفه عمن سواه، فروت أم سلمة قالت: خرج النبي الى المسجد فنادى بأعلى صوته ثلاثا: ألا ان هذا المسجد لا يحل لجنب و لا لحائض إلا لرسول اللَّه «ص» و أزواجه و علي و فاطمة بنت محمد.

و برواية أخرى عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول اللَّه صلّى اللَّه عليه و آله و سلم بأعلى صوته: انه لا يحل لأحد من هذه الأمة أن يجنب في هذا المسجد غيري و غيرك.

و هذا معنى الاختصاص، فإن النبي «ص» أمر بسد جميع أبواب أهله، و مجانبة النافذة الى المسجد سوى باب أمير المؤمنين عليه السلام، فشق هذا التمييز و التخصيص على من كان بابه مفتوحا الى المسجد. الأخبار بذلك متظاهرة[[91]](#footnote-91).

و قد روي عن علي بن الحسين عن أبيه عليه السلام قال: سألت عليا عليه السلام فقلت: كيف يا أبتاه كان أمرك حيث سد رسول اللَّه «ص» أبواب المسلمين و ترك بابك‏

ص: 97

مفتوحا تمر في المسجد و أنت جنب؟ قال: قال رسول اللَّه «ص»: ان موسى سأل ربه أن يطهر مسجده لهارون و ذريته من بعده ففعل، و اني سألت ربي ذلك ففعل.

أما الطيبة فقد تقدم أنها أحد أسماء المدينة، و ذكرنا ما روي من أسمائها.

فأما قوله «مطيب» فيحتمل أن يريد به الطهارة دون الذي يتطيب به، و لهذا يقولون تراب طيب، إذا كان طاهرا يصلح للوضوء. و يحتمل أيضا أنه يريد بمطيب أي مضمخ بالطيب عبق بأرجه، فأما الكعبة و موضع الصلاة من المسجد فيختص بالتطيب.

و أراد بالبيت الذي أوله «و سيان فيه» انه أباح له أن يمشي في هذا المسجد مع الجنابة و فقدها. و معنى سيان: أي مثلان.

و الجنب: من الجنابة، يقال: أجنب فلان: أي أصابته جنابة. و جنب فلان في بني فلان: أي نزل فيهم غريبا. و جمع جنب إجناب. و الجنيبة: هي الناقة يعطيها الرجل لقوم يمتارون عليها له، و الجمع جنائب. و الجناب: هو الرحل أو الفناء، و الجمع أجنبة. و جنب بنو فلان فهم مجنبون: إذا لم يكن في إبلهم لبن.

و جنبت الإبل بالتخفيف: إذا عطشت.

(55- 58)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و سرى بمكة حين بات مبيته‏ |  | و مضى بروعة خائف مترقب‏ |
| خير البرية هاربا من شرها |  | بالليل مكتتما و لم يستصحب‏ |
| [الا سوى رجلا مخافة أنه‏ |  | خشي الإذاعة منه عند المهرب‏] |
|  |  |  |

ص: 98

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| باتوا و بات على الفراش ملفعا |  | فيرون ان محمدا لم يذهب‏ |
|  |  |  |

انما أراد بما أشار إليه مبيت أمير المؤمنين عليه السلام على فراش النبي صلّى اللَّه عليه و آله و سلم، حين أراد الهجرة إلى المدينة، و ان المشركين هموا به و تواعدوا على قصد مبيته و الإيقاع به، فكره صلّى اللَّه عليه و آله أن يخلي فراشه على مراعاة القوم له، فيعلمون بخروجه فيتبعون أثره. فثبت علي عليه السلام في فراشه، فلما راعاه المشركون رأوا فيه شخصا ثانيا، فلم يفطنوا بمسيرة عليه السلام.

و صفته ليست بأقل من استسلام إسماعيل عليه السلام لأبيه حين رأى ان يذبحه. و هو أعظم، لأن إسماعيل استسلم إلى أب حدب مشفق مأمون، و ما جرت العادة بإتلاف الإباء للأبناء. و أمير المؤمنين استسلم بمبيته على فراش النبي إلى أعداء حنقين مبغضين غير مأمونين، لا سيما و قد فوتهم بمبيته في الفراش غرضهم و حرمهم مقصودهم، و هم على من فعل ذلك أحنق، كل ذلك في طاعة اللَّه و رسوله.

و الروعة: الخوف.

و الترقب: الانتظار. و يقول: و مضى خير البرية هاربا من شرها بروعة خائف مترقب.

و التلفع: التلفف. و اللفاع: ما تغطيت به من ثوب و استترت به.

(59)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| حتى إذا طلع الشميط كأنه‏ |  | في الليل صفحة خد أدهم مغرب‏ |
|  |  |  |

الشميط: الصبح. و سمي بذلك لاختلاط الضوء بالظلمة، و كذلك الذئب‏

ص: 99

الشميط الذي فيه سواد و بياض. و رجل أشمط: بين الشمط، و امرأة شمطاء.

و شماطيط الخيل: جماعات في تفرقة.

و صفحة الخد: جانبه. و انما أراد صفحة من خد فرس أدهم، فاقتصر على ذكر الصفة عن الموصوف.

و الفرس المغرب: و هو الذي ابيضت أشفار عينيه.

(60)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| ثاروا لأخذ أخي الفراش فصادفت‏ |  | غير الذي طلبت أكف الخيب‏ |
|  |  |  |

قوله «ثاروا لأخذ أخي الفراش» لأنهم أرادوا أخذ محمد صلى اللَّه عليه و آله و سلم، و هم يظنونه نائما في الفراش، فصادفوا عليا عليه السلام، فهموا بقتله، فثار إليهم فضاربهم بالسيف و نجا منهم و لم يقدروا عليه.

و قوله «أخو الفراش» كناية عن صاحب الفراش. و هذه قصة مشهورة و قد ذكرتها الرواة.

(61- 62)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| [و تراجعوا لما رأوه و عاينوا |  | أسد الإله مجالدا في منهب‏] |
| فوقاه بادرة الحتوف بنفسه‏ |  | حذرا عليه من العدو المجلب‏ |
|  |  |  |

البادرة: ما بدر من الشي‏ء و برز و جاء في أوله و ظهر. و البادرة: اللحمة

ص: 100

التي تكون بين الكتف و العنق، و جمعها بوادر[[92]](#footnote-92)، و يقال لها: البأدلة، و جمعها بآدل و يقال بأدل بغير هاء. قال الشاعر:

|  |
| --- |
| و لا رهل لباته و بآدله‏ |

و المجلب، من قولهم أجلب الرجل: إذا سمعت له صياحا و جلبة و استعانة، يستصرخ بقوم و يستعين بهم على حرب. قال اللَّه تعالى‏ «وَ أَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَ رَجِلِكَ»[[93]](#footnote-93).

(63)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| حتى تغيب عنهم في مدخل‏ |  | صلى الإله عليه من متغيب‏ |
|  |  |  |

قوله «حتى تغيب» يعني النبي صلى اللَّه عليه و آله و سلم.

و قوله في مدخل: حين دخل الغار و استتر به.

و القصة مشهورة.

ص: 101

(64)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و جزاه خير جزاء مرسل امة |  | ادى رسالته و لم يتهيب‏ |
|  |  |  |

جزاه: دعا له، لما كان منه عليه السلام من الصبر على تجرع الغصص، و الصبر على مدافعة الأعداء، و الذب عن نبيه عليه السلام.

و يقال: ان المشركين لما فاتهم الظفر بالنبي صلى اللَّه عليه و آله على الفراش، و عرفوا أنه قد فارق مكة، طلبوه على سائر الطرق و قفوا أثره.

(65)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| قالوا اطلبوه فوجهوا من راكب‏ |  | في مبتغاه و طالب لم يركب‏ |
|  |  |  |

معنى قوله «قالوا اطلبوه» أن المشركين لما فاتهم الظفر به على الفراش، و اخفق قصدهم، و اكدى سعيهم، و علموا أنه قد فارقهم و فاتهم، أمروا بطلبه.

و ضاق الشعر عن أن يقول: فوجهوا من طالب راكب و طالب لم يركب، فاقتصد على نفي الركوب عن الطالب الثاني، اشعارا بأنه أراد بالطالب الأول الراكب.

(66)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| حتى إذا قصدوا لباب مغارة |  | ألفوا عليه نسيج غزل العنكب‏ |
|  |  |  |

يقال: انهم لما قفوا أثر النبي صلى اللَّه عليه و آله و سلم، دلهم الأثر إلى الغار،

ص: 102

و هي المغارة التي ذكرها في الشعر، فأرسل اللَّه العناكب فنسجت على باب الغار.

فلما هموا أن يلجوا الغار، قال بعضهم لبعض: لو كان دخل هاهنا أحد لأفسد نسج العنكبوت. فذلك قوله في البيت الذي يأتي «ما في المغار لطالب من مطلب»، فرجعوا و كان ذلك من معجزاته صلى اللَّه عليه و آله و سلم.

يقال للذكر من العناكب: العنكبوت. و ذلك في لغة أهل اليمن.

(67- 68)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| صنع الإله له فقال فريقهم‏ |  | ما في المغار لطالب من مطلب‏ |
| ميلوا فصدهم المليك و من يرد |  | عنه الدفاع مليكة لم يعطب‏ |
|  |  |  |

انما أراد أن القوم لما رأوا نسيج العنكبوت على باب الغار أشعرهم ذلك بأنه لم يلجه والج، و لا دخل اليه داخل، فيئسوا من تفتيشه و الدخول اليه.

و هذه احدى معجزاته صلى اللَّه عليه و آله و سلم التي تفوق الإحصاء.

(69)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| حتى إذا أمن العيون رمت به‏ |  | خوص الركاب إلى مدينة يثرب‏ |
|  |  |  |

معنى «أمن العيون» انقطع عنه التتبع و الطلب.

و خوص الركاب: من الخوص في العين، و العين الخوصاء عندهم: التي ضاق مشقها. و يقال بل هي الغائرة. و يقال: قد خوصت تخوص خوصا. و بئر خوصاء: إذا غار ماؤها و نعجة خوصاء: و هي التي اسودت احدى عينيها و ابيضت‏

ص: 103

الأخرى. و يقال: خوص رأسه أي وقع فيه الشيب، و قيل إذا استوى بياض الشعر و سواده.

الركاب: الإبل.

يثرب: من أسماء المدينة على ساكنها السلام، و قد تقدم ذلك.

(70)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| فاحتل دار كرامة في معشر |  | آووه في سعة المحل الارحب‏ |
|  |  |  |

آووه: أنزلوه و أحلوه. يقولون أويت إلى الموضع آوى أويا. و أويت في الرحمة تأوية و أواية، فانا آوي له.

المحل الأرحب: هو الواسع.

(71- 73)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و له بخيبر إذ دعاه لراية |  | ردت عليه هناك أكرم منقب‏ |
| إذ جاء حاملها فأقبل متعبا |  | يهوى بها العدوي أو كالمتعب‏ |
| يهوى بها و فتى اليهود يشله‏ |  | كالثور ولى من لواحق اكلب‏ |
|  |  |  |

(ش 1) هذه قصة يوم خيبر، مشهورة. و روى أبو سعيد الخدري رحمه اللَّه تعالى أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه و آله و سلم أرسل عمر الى خيبر فانهزم هو و من معه، حتى جاء الى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه و آله و سلم يجبن أصحابه و يجبنونه، فبلغ‏

ص: 104

[[94]](#footnote-94)

ذلك من رسول اللَّه صلى اللَّه عليه و آله و سلم كل مبلغ، فبات ليلته مهموما، فلما أصبح خرج الى الناس و معه الراية، فقال: لأعطين الراية اليوم رجلا يحب اللَّه و رسوله و يحبه اللَّه و رسوله كرار غير فرار، فتعرض لها المهاجرون و الأنصار، ثم قال: اين علي؟ فقالوا: يا رسول اللَّه هو أرمد، فبعث اليه سلمان و أبا ذر، فجاءا به و هو يقاد لا يقدر على فتح عينيه، و قال: اللهم أذهب عنه الرمد و الحر و البرد و انصره على عدوه فإنه عبدك يحبك و يحب رسولك، ثم دفع إليه الراية، فقال حسان بن ثابت: يا رسول اللَّه أ تأذن لي أن أقول فيه شعرا؟ فأذن له، فقال:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و كان علي أرمد العين يبتغي‏ |  | دواء فلما لم يحس مداويا |
| شفاه رسول اللَّه منه بتفلة |  | فبورك مرقيا و بورك راقيا |
| و قال سأعطي الراية اليوم ماضيا |  | كميا محبا للرسول مواليا |
| يحب الهى و الرسول يحبه‏ |  | به يفتح اللَّه الحصون الأوابيا |
| فأصفى بها دون البرية كلها |  | عليا و سماه الوزير المؤاخيا |
|  |  |  |

فقال: ان عليا عليه السلام لم يجد بعد ذلك أذى في عينيه، و لا أذى حر و لا برد.

و في رواية أخرى: ان الراية أعطاها رسول اللَّه صلى اللَّه عليه و آله و سلم أبا بكر فعاد منهزما يجبن أصحابه و يجبونه في ذلك اليوم، ثم أعطاها في اليوم الثاني عمر فرجع بها منهزما يجبن أصحابه و يجبنونه و قد جرح في رجله، فلما كان في اليوم الثالث دفعها الى علي عليه السلام و قال ما حكيناه في الرواية الاولى.

و الذي قاله النبي صلى اللَّه عليه و آله و سلم في علي عليه السلام حين سلم الراية إليه يقتضي ظاهره التقديم و التعظيم في الصفات التي وصفه بها على من تقدمه ممن سلمت الراية إليهم أولا.

ص: 105

و المنقب: جمع منقبة و مناقب أيضا. و المنقبة: طريق الخير و الفضل. و المنقب و النقب أيضا: الطريق الضيق.

و العدوي: عمر بن الخطاب، لأنه من ولد عدي بن كعب بن لؤي بن غالب.

و الهوي في السير: المضي بسرعة.

و أخو اليهود: مرحب لعنه اللَّه.

و الشل: الطرد، و رجل شلول و مشل: سواق و سريع.

و اللواحق: التوابع المدركات، و يقال للفرس: لاحق الاقراب إذا لحق بطنه بظهره فهو من الضمر. و الاقراب: الخواصر.

(ش 2) أما قصة غزو خيبر فمشهورة مذكورة، و كان فيها لأمير المؤمنين عليه السلام البلاء العظيم، و العناء الجسيم.

و روى أبو سعيد الخدري ان رسول اللَّه صلى اللَّه عليه و آله و سلم أرسل عمر الى خيبر فانهزم و من معه، و قدم على رسول اللَّه «ص» يجبن أصحابه، فبلغ ذلك من رسول اللَّه كل مبلغ، فبات ليلته مهموما، فلما أصبح خرج الى الناس و معه الراية، فقال «ص»: لأعطين الراية اليوم رجلا يحب اللَّه و رسوله و يحبه اللَّه و رسوله، كرار غير فرار. فتعرض لها جميع المهاجرين و الأنصار، فقال: أين علي؟ فقالوا: هو يا رسول اللَّه أرمد، فبعث إليه أبا ذر و سلمان، فجاءا به يقاد و لا يقدر على فتح عينيه من الرمد، فلما دنا من رسول اللَّه صلى اللَّه عليه و آله و سلم تفل في عينيه و قال اللهم أذهب عنه الحر و البرد و انصره على عدوه، فإنه عبدك يحبك و يحب رسولك غير مراء. ثم دفع إليه الراية، فاستأذنه حسان بن ثابت أن يقول فيه شعرا فأذن له، فقال:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و كان علي أرمد العين يبتغي‏ |  | دواء فلم يحسن هناك مداويا |
|  |  |  |

ص: 106

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| شفاه رسول اللَّه منه بتفلة |  | فبورك مرقيا و بورك راقيا |
| و قال سأعطي الراية اليوم صارما |  | كميا محبا للرسول مواليا |
| يحب النبي و الرسول يحبه‏ |  | به يفتح اللَّه الحصون الأوابيا |
| فأصفى بها دون البرية كلها |  | عليا و سماه الوزير المؤاخيا |
|  |  |  |

فيقال: ان أمير المؤمنين عليه السلام لم يجد بعد ذلك أذى حر و لا برد.

و في رواية أخرى غير هذه: ان رسول اللَّه صلى اللَّه عليه و آله و سلم أعطى الراية أولا أبا بكر، فانهزم و انهزم الناس معه. ثم بعث من غد عمر، فرجع منهزما و قد جرح في رجليه، فحينئذ دفعها الى أمير المؤمنين عليه السلام و قال ما كتبناه في الرواية الاولى.

و هذه حالة تقتضي غاية التعظيم و نهاية التقديم. و في الشيعة من جعل مخرج هذا الكلام دالا بظاهره على نفي الصفات المذكورة في أمير المؤمنين عليه السلام عمن تقدمه، و يقولون: ان بعض الملوك لو أرسل الى غيره رسولا ففرط الرسول في رسالته و حرفها، فغضب المرسل و أنكر فعله، ثم قال: لأرسلن رسولا حقيقا بحسن القيام بأداء رسالتي غير محرف لها و لا مفرط فيها، لكان ظاهر كلامه يقتضي انتفاء هذه الصفات عن الرسول الأول.

أما المنقب: فجمع منقبة، و هي الفضيلة، و الطريقة الجميلة. و يقولون: فيه مناقب حسان، الواحدة منقبة، أي طريق من طرق الخير. و المنقبة أيضا: الطريق الضيق يكون بين الدارين لا يمكن أن يسلك. و يقال: منقب و منقبة للطريق: إذا كان في موضع غليظ.

و منقبة الفرس: حيث ينقب البيطار.

و قوله «يهوي بها العدوي» أراد عمر بن الخطاب، لأن عمر من ولد عدي‏

ص: 107

ابن كعب بن لؤي بن غالب.

و الهوي في السير: المضي فيه.

و فتى اليهود: يعني مرحبا.

الشل: الطرد هاهنا، و رجل شلول: مثل سواق سريع.

اللواحق من الكلاب‏[[95]](#footnote-95): يحتمل هاهنا الضوامر، لأن الفرس يوصف بأنه لاحق إذا لحق بطنه بظهره من شدة الضمر. و الوجه الأخر: أن يريد باللواحق:

البوالغ المدركات لأوطارها.

(74)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| غضب النبي لها فأنبه بها |  | و دعا أخا ثقة لكهل منجب‏ |
|  |  |  |

معنى أنبه: وبخه و بكته. و الهاء في «أنبه» راجعة إلى عمر.

و عنى بقوله «أخا ثقة» أمير المؤمنين عليه السلام.

و الكهل المنجب: هو أبوه، تقول العرب: أنجب الرجل انجابا فهو منجب:

إذا ولد ولدا نجيبا فاضلا.

(75)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| رجل كلا طرفيه من سام و ما |  | حام له باب و لا بأبي أب‏ |
|  |  |  |

و يروى أجلي، و الأجلى الذي انحسر الشعر عن رأسه. يقولون: أجلح لمن‏

ص: 108

انحسر الشعر عن مقدم رأسه، فإذا زاد على ثلث الرأس فهو أجله، فإذا بلغ النصف فهو أجلى. و منه قيل: أجلى عن المكان، إذا انكشف عنه فهو مجل. فان عم الرأس فهو أصلع‏[[96]](#footnote-96).

فأما قوله «كلا طرفيه من سام» الى آخره: فإنما يريد أن أمير المؤمنين عليه السلام ما ولده من كلا طرفيه حام، لأن حاما والد السودان و ساما والد البيضان.

و أم أمير المؤمنين عليه السلام فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف، و هو أول هاشمي ولد في الإسلام بين هاشميين، و ليس في أمهاته و ان بعدن و علون من هو من ولد حام.

و عرض السيد في قوله هذا بعمر بن الخطاب، لأن صهاك أمه حبشية، وطئها عبد العزى بن رباح بن عبد اللَّه بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي بن غالب، فجاءت بنفيل ابن عبد العزى. هذا في رواية الهيثم بن عدي الطائي و أبي عبيدة معمر بن المثنى و غيره.

و قال قوم آخرون: ان صهاك أم الخطاب بن نفيل، و خالف آخرون في أم الخطاب و ذكروا أنها من فهم بن عيلان.

و أراد السيد فضل [نسب‏] أمير المؤمنين عليه السلام على نسب من ذكره.

فان قيل: في ولادة حام معرة و منقصة، فكيف تطرق هذا على كثير من أئمتكم عليهم السلام فقد ولدتهم الإماء، من أبي الحسن موسى الى صاحب الزمان «ع»؟

قلنا: ما عير السيد بولادة الإماء، و انما عير بولادة حام، و ليس كل أمة من ولد حام. و أمهات من ذكر من أئمتنا عليهم السلام و ان كن إماء، فلسن من أولاد

ص: 109

حام. فأم أبي الحسن موسى «ع» بربرية، و قيل انها أندلسية اسمها حميدة. و أم علي بن موسى «ع» مرسية تسمى الخيزران. و أم أبي جعفر عليه السلام قيل انها مرسية تسمى سكينة، و قيل بربرية. و أمهات العسكريين «ع» و القائم عجل اللَّه فرجه، مولدات لسن من ولد حام.

على أنه لو كان على أصعب الوجوه في أمهات بعض أئمتنا من ولد حام لما كان في ذلك نقص و لا عيب، لأن السيد فضل أمير المؤمنين عليه السلام على من لم يلده حام، و ما ألحق نقصا في الذين من ولد حام، و ليس كل فضيلة تتعلق بالدين يكون فقدها نقصانا فيه. و نحن نعلم أن للحسن و الحسين عليهما السلام الفضيلة العظمى، لأن أمهما فاطمة «ع» بنت رسول اللَّه «ص»، و ليس هذا لغيرهما من الأئمة. فإن كان لا نقص يلحق بفقد هذه الفضيلة [..][[97]](#footnote-97).

(76)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| من لا يقر و لا يرى في نجدة |  | الا و صارمه خضيب المضرب‏ |
|  |  |  |

النجدة: هي شدة البأس، يقال: رجل نجد و نجد، و رجال إنجاد. و قد نجد الرجل من هذا المعنى. و استنجد بي فلان و أنجدته: استغاثني فأغثته. و قد نجد الرجل ينجد: إذا عرق من عمل أو كرب. و نجدت الرجل: إذا غلبته. و النجدة:

القتال.

و قول السيد «و لا يرى في نجدة» يليق بالوجوه الثلاثة المذكورة في النجدة، و أليقها بكلامه النجدة التي هي القتال.

ص: 110

و الصارم: السيف القاطع. و انما يكون صارمه خضيب المضرب لكثرة الضرب و اسالة النجيع عليه.

(77)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| فمشى بها قبل اليهود مصمما |  | يرجو الشهادة لا كمشى الأنكب‏ |
|  |  |  |

الشهادة: خروج النفس في طاعة اللَّه تعالى أو قربته إليه، لأنه لا يسمى من في معصيته و لا في طاعة معصيته شهيدا.

و وجدت بعض ثقات أهل اللغة يحكي في كتابه أن الشهيد هو الحي، و أظنه ذهب الى قوله تعالى‏ «وَ لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتاً بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ»[[98]](#footnote-98).

و معنى يرجو الشهادة: أي الفوز برضوانها و ثوابها، و الجزاء على تصبره و حسن احتسابه.

الأنكب: هو المائل المنحرف، و النكب: هو أن يصيب البعير خلع فيمشي منحرفا. و قد نكب نكبا فهو أنكب.

و يقولون نكب الرجل: إذا تحرك. و نكب عن الطريق تنكيبا: عدل عنه.

و نكب نكوبا: مثله. و رجل ناكب و رجال ناكبون. و نكب الرجل: أصابته نكبة، أي نازلة. نكب: إذا أصيب منكبه. و النكب و النقب: واحد.

و ريح نكباء: تقع بين ريحين، و قد نكبت تنكب نكوبا، و هي التي بين الصبا و الدبور.

ص: 111

(78)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| تهتز في يمنى يدي متعرض‏ |  | للموت أروع في الكريهة محرب‏ |
|  |  |  |

يريد: يمشي بها و هي تهتز، يعني الراية.

الأروع: مأخوذ من الروع، و هو الفزع. و يقال: ناقة روعاء: حديدة القلب و رجل أروع: إذا راعك بشجاعته و حسن منظره. و امرأة روعاء: تروع الناس بجمالها.

الكريهة: اسم الحرب.

المحرب: الحسن البلاء في الحرب. المحرب بفتح الميم: المنزل.

المحراب بكسر الميم: الغرفة.

(79)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| في فيلق فيه السوابغ و القنا |  | و البيض تلمع كالحريق الملهب‏ |
|  |  |  |

الفيلق: الداهية، و منه قيل للكتيبة «فيلق».

السوابغ: الدروع، و انما سميت بذلك لتمامها و طولها. و انما أراد بذلك الدروع السوابغ، فحذف الموصوف و أقام الصفة مقامه.

(80)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و المشرفية في الأكف كأنها |  | لمع البروق بعارض متحلب‏ |
|  |  |  |

المشرفية: السيوف. و يقال انها نسبت الى مشرف اسم رجل، و يقال انها

ص: 112

منسوبة إلى قرى من أرض العرب تدنو الى الريف، و انما أراد: كأن لمعانها لمعان البروق.

العارض: السحاب، و كل شي‏ء بدا لك فهو عارض.

المتحلب: صفة السحاب الماطر.

(81)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و ذوو البصائر فوق كل مقلص‏ |  | نهد المراكل ذي سبيب سلهب‏ |
|  |  |  |

البصائر: جمع بصيرة، و هي الاستبصار و اليقين. و البصيرة في غير هذا الدفعة من الدم. و يقال هو ما كان منه على الأرض دون الجسد. و البصيرة: الترس، و جمعه بصائر.

و القلص: مأخوذ من التميز في الثياب و غيرها. و وصف الفرس بذلك لتميز لحمه و ارتفاعه عن قوائمه.

و نهد المراكل: غليظها، و يريد بالمراكل القوائم. و يقال: نهد الرجل ينهد نهدا: إذا شخص. و انهدته: انهضته. و يقال للفرس: نهد، لأنه ينهد في العدو و ينهض.

و يقال النهد: الحسن الخلق التام الجسم.

و سمي نهد الجارية نهدا لبروزه و شخوصه عن صدرها.

و يقال: طرح فلان نهده مع القوم إذا أعانهم.

و السبيب و السبيبة: خصل الشعر، و انما أراد هنا شعر الذنب.

و سلهب: أي طويل.

ص: 113

(82)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| حتى إذا دنت الأسنة منهم‏ |  | و رموا قبالتهم سهام المقنب‏ |
|  |  |  |

المقنب: جماعة الخيل ليست بالقليلة و لا الكثيرة.

(83)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| شدوا عليه ليرجلوه فردهم‏ |  | عنه بأسمر مستقيم الثعلب‏ |
|  |  |  |

و يروى: شدوا عليه ليزحلوه.

الشد: هو القصد و الاعتماد، و يقولون شددت عليه لأضربه أي قصدته و اعتمدته.

و معنى يرجلوه: يحطونه عن فرسه، و يجعلونه راجلا.

و معنى ليزحلوه: أي ينحونه، من قولهم زحل إذا تنحى، و رجل زحل و امرأة زحلة: من التنحي عن الأمر قبيحا كان أو حسنا.

و معنى هوى: سقط.

و الأسمر هاهنا: الرمح.

و ثعلب الريح: ما دخل منه في السنان. و الثعلب أيضا: مخرج الماء من الدار و الحوض.

و الثعلب و الثعلبان: الذكر من الثعالب. و الثعلبية: من عدو الخيل أشد من الخبب. و الثعلبية: موضع معروف.

ص: 114

(84- 86)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و مضى فأقبل مرحب متذمرا |  | بالسيف يخطر كالهزبر المغضب‏ |
| فتخالسا مهج النفوس فاقلعا |  | عن جرى أحمر سائل من مرحب‏ |
| فهوى بمختلف القنا متجدلا |  | و دم الجبين بخده المتترب‏ |
|  |  |  |

قوله «متذمرا» يحتمل أمرين:

أحدهما: من معنى الشجاعة، و يقولون رجل ذمر و قوم أذمار، و ذمر و ذمير و هو الشجاع المفكر، كأنه أقبل متشجعا مقدما متهجما.

و الأمر الأخر: مأخوذ من الحث، يقولون: ذمرته ذمرا إذا حثثته. فكأنه قال:

أقبل حاثا لنفسه.

و قوله «يخطر» مأخوذ من قولهم خطر البعير يخطر: إذا مشى فضرب بذنبه يمينا و شمالا. و الخطر: السبق. و رجل له خطر: أي قدر، و الجمع إخطار.

الهزبر: الأسد.

المهجة: النفس.

و في استدراك قوله «عن جري أحمر سائل من مرحب» بلاغة، لأنه لو أطلق لاحتمل أن يكون الدم السائل من كل واحد منهما.

و معنى هوى: سقط.

و مختلف القنا: المواضع التي تختلف فيها جهات الطعن.

و المتجدل: الواقع على الأرض، مأخوذ من الجدالة، و هي الأرض السهلة.

و انما وصف الخد بأنه متترب بما علاه و لصق به من تراب.

ص: 115

(87)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| اجلى فوارسه و اجلى رجله‏ |  | عن مقعص بدمائه متخضب‏ |
|  |  |  |

معنى أجلى فوارسه و أجلى رجله: أي انكشف الفرسان و الرجالة عن مقعص.

و المقعص: المقتول. و القعص: القتل. يقال ضربه فأقعصه، و مات قعصا:

إذا أصابته ضربة أو رمية فمات مكانه.

(88- 89)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| فكأن زوره العواكف حوله‏ |  | من بين خامعة و نسر أهدب‏ |
| شعث لغامظة دعوا لوليمة |  | أو ياسرون تخالسوا في منهب‏ |
|  |  |  |

(ش 1) زوره: الذين يزورونه، يريد النسور و ما يجري مجراها من الجوارح التي تقع على القتلى.

الخوامع: الضباع لأنها تخمع أي تعرج، الواحدة خامعة.

وصفهم بأنهم عواكف لطول مقامهم عليه يأكلون لحمه.

و وصف النسر بأنه أهدب لتكاثف ريشه و شيوعه.

و الأصل في الشعث: النقصان، و يقال رجل أشعث الرأس إذا كان بعيد [العهد] بالدهن.

اللغامظة: جمع لغموظ، و هو الشره الحريص على الأكل، و يقال للطفيلي لغموظ.

ص: 116

و الياسرون: المقامرون، مأخوذ من الميسر. و الميسر: المقامرة، و الجمع إيسار.

و المنهب: موضع [النهب‏].

(ش 2) أراد بزوره النسور و ما سواها من الجوارح التي تقع على القتلى و تتبع مطارحهم و تأكل لحومهم، و وصفها بأنها عواكف لطول مقامها على اعتراق عظامهم و انتهاك جلودهم، لأن العكوف هو طول المقام.

و الخامعة: الضبع لأنها تخمع، و الخمع و الخماع: العرج. و الخمع:

الذئب و جمعه أخماع. و انما سمي اللص خمعا تشبيها بالذئب في مكره و دهائه.

و النسر: جارح معروف، و انما وصفه بأنه أهدب لسبوغ ريشه و لحوقه بالأرض.

و الأصل في الشعث: النقصان، و رجل أشعث الرأس: إذا كان بعيد العهد بالدهن.

اللغامصة: جمع لغموص، و هو الشهوان الحريص على الأكل، و يقال فيه لغموط و لغموظ. و هو أيضا الطفيلي. و امرأة لغموظة كذلك.

و العلوس بالعين و الغين: الأكول الحريص، و رجل معلس: شديد الأكل.

و الياسرون: مأخوذ من «الميسر» و هو القمار، و جمعه: إيسار. و كانوا ييسرون في الجاهلية على الجزور. و الياسر: الجزار الذي يلي قمة الجزور. و الياسر أيضا:

الذي يرمي القداح.

المنهب: موضع النهب.

ص: 117

(90- 91)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| فاسأل فإنك سوف تخبر عنهم‏ |  | و عن ابن فاطمة الأغر الأغلب‏ |
| و عن ابن عبد اللَّه عمرو قبله‏ |  | و عن الوليد و عن أبيه الصقعب‏ |
|  |  |  |

(ش 1): يعني فاطمة بنت أسد.

الأغر: الأبيض الوجه، و الغرة: الوجه، معروفة يوصف بذلك الكريم النجيب.

الأغلب: الغليظ العنق، يوصف به الأسد. و وصف الرجل استعارة، فإن الأغلب:

الغليظ العنق مع قصر فيها.

و أراد بابن عبد اللَّه: عمرو بن عبد ود بن مضر بن مالك بن حنبل بن عامر ابن لؤي بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن الياس بن مضر، و يقال له «فارس يليل»، لأنه أقبل في ركب حتى إذا كانوا في يليل، و هو واد قريب من بدر يدفع إليهم، خرجت عليهم بنو بكر بن عبد مناف، فعرضت لهم تريد أخذهم، فقال لأصحابه: النجاة فاني سوف أشغلهم عن لحاقكم، فمضوا و وقف في وجوه بني بكر يحاربهم حتى فات أصحابه، و دفع القوم عنهم، فعرف بذلك و سمي «فارس يليل» باسم ذلك المكان‏[[99]](#footnote-99).

فلما حضر الأحزاب المدينة أمر النبي صلى اللَّه عليه و آله و سلم بحفر الخندق و كان قد أشار بحفره سلمان الفارسي رضي اللَّه عنه، فلما رأته العرب قالوا: هذه مكيدة فارسية. و اسم الموضع الذي حفر فيه الخندق «المذاد»، فامتنعت العرب أن تعبره، فلم يجزعه أحد منهم غير عمرو بن عبد ود، و ضرار بن الخطاب الفهري‏

ص: 118

و عكرمة بن أبي جهل، و نوفل بن عبد اللَّه بن المغيرة، و في ذلك يقول الشاعر:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| عمرو بن ود كان أول فارس‏ |  | جزع المذاد و كان فارس يليل‏ |
|  |  |  |

و لما جزع عمرو الخندق‏[[100]](#footnote-100) دعا الى البراز و قال:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و لقد بححت من النداء |  | بجمعهم هل من مبارز؟ |
| و وقفت إذ جبن الشجا |  | ع بموقف البطل المناجز |
| اني كذلك لم أزل‏ |  | متسرعا نحو الهزاهز |
| ان الشجاعة و السماحة |  | في الفتى خير الغرائز |
|  |  |  |

فأحجم المسلمون عنه و لم يخرج إليه أحد، فدعا النبي صلى اللَّه عليه و آله و سلم عليا عليه السلام و أمره بالخروج اليه و دفع اليه ذا الفقار. و يقال: ان جبرائيل عليه السلام هبط به، و يقال: بل هبط بجريدة من الجنة فهزها النبي صلى اللَّه عليه و آله و سلم فتحولت في يده سيفا، فناوله عليا عليه السلام و أمر بالمبارزة، فلما توجه اليه قال النبي صلى اللَّه عليه و آله و سلم: خرج الإيمان سائره الى الكفر سائره.

فدعاه علي عليه السلام الى المنازلة و قال: يا عمرو انك كنت عاهدت اللَّه لقريش ألا يدعوك رجل منهم الى خلتين الا أجبت إلى إحداهما. قال عمرو: أجل. قال:

فإني أدعوك الى اللَّه تعالى و رسوله صلى اللَّه عليه و آله و سلم و الى الإسلام. فقال:

لا حاجة لي فيما دعوت اليه. قال: فإني أدعوك إلى المبارزة و النزال، و كان عمرو نديما لأبي طالب، فقال عمرو: يا ابن أخي ما أحب أن أقتلك. فقال علي عليه السلام: فأنا أحب أن أقتلك.

فجاء عمرو و نزل عن فرسه و عرقبه، ثم أقبل الى علي عليه السلام فتجاولا، ثم ثارت بينهما غبرة سترتهما عن أعين الناس، فجزع النبي صلى اللَّه عليه و آله‏

ص: 119

و المسلمون لذلك جزعا شديدا، فلم يشعروا الا بالتكبير، فعرفوا أن عليا عليه السلام قتله. ثم انجلت الغبرة، فإذا علي على صدره يجتز رأسه، فكبر المسلمون و هزم الأحزاب بذلك فعرج جبريل و هو يقول: لا سيف الا ذو الفقار و لا فتى الا علي.

و روي عمرو بن عبيد عن الحسن بن أبي الحسين: ان عليا عليه السلام أقبل و في يده رأس عمرو حتى وضعه بين يدي رسول اللَّه صلى اللَّه عليه و آله و سلم، فدعا له المسلمون، و قام إليه أبو بكر و عمر فقبلا رأسه.

و روي عن أبي بكر بن عياش أنه قال: ضرب علي ضربة ما كان في الإسلام أعز منها. يعني ضربته لعمرو بن عبد ود، و ضربة عبد الرحمن بن ملجم لعنه اللَّه.

قال الشاعر:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| جبريل نادى في الوغى‏ |  | و النقع ليس بمنجلي‏ |
| و المسلمون بأسرهم‏ |  | حول النبي المرسل‏ |
| و الخيل تعثر بالجماجم‏ |  | و الوشيج الذبل‏ |
| لا سيف الا ذو الفقار |  | و لا فتى الا علي‏ |
|  |  |  |

و قالت أم كلثوم بنت عمرو بن عبد ود ترثي أباها:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| لو كان قاتل عمرو غير قاتله‏ |  | لكنت أبكي عليه آخر الأبد |
| لكن قاتله من لا يعاب به‏ |  | و كان يدعى قديما بيضة البلد |
|  |  |  |

و أما الوليد- الذي ذكره في البيت- فهو الوليد بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس. و كان من قصته أنه خرج يوم بدر عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، و شيبة بن ربيعة أخوه، و الوليد بن عتبة بن ربيعة يطلبون البراز، فخرج إليهم عدتهم من الأنصار، فناسبوهم فلما عرفوهم قالوا: لا حاجة لنا فيكم، انما نريد أكفاءنا من قريش.

ص: 120

فأمر النبي صلى اللَّه عليه و آله و سلم حمزة بن عبد المطلب رضي اللَّه عنه أن يخرج إلى عتبة، و عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب أن يخرج إلى شيبة بن ربيعة و علي بن أبي طالب الى الوليد بن عتبة، فناسبوهم لما خرجوا إليهم فعرفوهم و قالوا:

أكفاء كرام.

و كان الثلاثة من رؤساء قريش و سادات المشركين: فأما حمزة و علي فقتلا مبارزيهما، و أما عبيدة و شيبة فاختلفا ضربتين، ضرب كل منهما صاحبه، و أدرك علي شيبة فقتله، و احتمل عبيدة و قد انقطعت رجله، فجاؤا به الى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه و آله، فمات بعد انصرافهم من بدر بالصفراء، و دفن بها رضي اللَّه عنه.

و قال أسيد بن أبي إياس بن زنيم بن صحبة بن عبيد بن عدي من الدئل يحرض المشركين من قريش على قتل علي عليه السلام و يغريهم به شعرا:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| في كل مجمع غاية أخزاكم‏ |  | جذع أبر على المذاكي القرح‏ |
| للَّه دركم و لما تنكروا |  | قد ينكر الحر الكريم و يستحي‏ |
| هذا ابن فاطمة الذي أفناكم‏ |  | ذبحا و قتلة قعصة لم يذبح‏ |
| أعطوه خرجا و اتقوا بضريبة |  | فعل الذيل و بيعة لم تريح‏ |
| اين الكهول و اين كل دعامة |  | في المعضلات و اين زين الأبطح‏ |
| أفناكم ضربا و طعنا يفتري‏ |  | بالسيف يعمل حده لم يصفح‏ |
|  |  |  |

و كان لواء قريش في أحد مع طلحة بن أبي طلحة فقتله علي عليه السلام، فقال الحجاج بن علاط السلمي في ذلك:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| للَّه أي مذبب عن حرمة |  | أعني ابن فاطمة المعم المخولا |
| جادت يداك له بعاجل طعنة |  | تركت طليحة للجبين مجدلا |
| و شددت شدة باسل فكشفتهم‏ |  | بالحرب إذ يهوون اخول أخولا |
|  |  |  |

ص: 121

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و عللت سيفك بالدماء و لم تكن‏ |  | لترده ظمآن حتى ينهلا |
|  |  |  |

و قالت هند بنت عتبة ترثي أباها:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| أيا عين جودي بدمع سرب‏ |  | على خير خندف لم ينقلب‏ |
| تداعى له غدوة رهطه‏ |  | بنو هاشم و بنو المطلب‏ |
| يذيقونه حد أسيافهم‏ |  | و يعلونه بعد ما قد شجب‏ |
|  |  |  |

و كان قتل هؤلاء النفر قبل أن يلتقي الجمعان، و لما برز هؤلاء الثلاثة عليهم السلام الى الثلاثة المذكورين رفع النبي صلى اللَّه عليه و آله يده الى اللَّه تعالى يتضرع اليه و يسأله ما وعده من النصر و يقول: اللهم ان يظهروا على هذه العصابة يظهر الشرك و لا يتم لك دين. فلما قتلوا الثلاثة[[101]](#footnote-101) نذرت هند لتأكل كبد حمزة عليه السلام.

شارك حمزة أيضا في قتل عتبة بن ربيعة، فلذلك ذكره السيد الحميري.

و الصقعب: الطويل، وصفه بذلك و ليس هو هاهنا اسم رجل.

(ش 2) يعني بابن فاطمة أمير المؤمنين عليه السلام، لأن أمه فاطمة بنت أسد «رض»، و قد تقدم ذلك.

و الأغر: ذو الغرة البيضاء، و يوصف بذلك الكريم النجيب.

و الأغلب: الأول من الغلبة، و هو أشبه هاهنا من أن يريد به القصير العنق، لأن الغلباء من الأعناق القصيرة الغليظة.

ص: 122

و أراد بابن عبد اللَّه: عمرو بن عبد ود، و هو عمرو بن عبد أبي قيس بن عبد ود ابن نضر بن مالك بن حنبل بن عامر بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر ابن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر، و يقال له ذو الندى، و هو فارس يليل، و كان فارس قريش، و كان يعد بألف فارس، حتى إذا كانوا بيليل عرضت لهم بنو بكر بن عبد مناة بن كنانة في عدد، فقال لأصحابه: امضوا فمضوا، و قام في وجوه أصحابه حتى منعهم من أن يصلوا إليهم فعرف بذلك.

و يليل واد قريب من بدر، يدفع الى بدر.

فلما حضر الأحزاب الخندق، أمر النبي بحفر الخندق، و كان أشار بذلك سلمان الفارسي. فلما رأته العرب قالت: مكيدة فارسية، و امتنعت العرب من أن تعبره، فكان ممن طفره عمرو بن عبد ود، و ضرار بن الخطاب الفهري، و عكرمة ابن أبي جهل، و نوفل بن عبد اللَّه بن المغيرة. و في ذلك يقول الشعراء:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| عمرو بن ود كان أول فارس‏ |  | جزع المذاد و كان فارس يليل‏ |
|  |  |  |

و لما عبر عمرو الخندق، دعا الى البراز و قال:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و لقد بححت من النداء |  | بجمعهم هل من مبارز؟ |
| و وقفت إذ جبن الشجاع‏ |  | بموقف البطل المناجز |
| اني كذلك لم أزل‏ |  | متسرعا نحو الهزاهز |
| إن السماحة و الشجاعة |  | في الفتى خير الغرائز |
|  |  |  |

فأحجم المسلمون عنه فلم يخرج إليه أحد، فقال النبي «ص»: أين علي؟

فجاء اليه، فأمره بالخروج اليه، و دفع اليه ذا الفقار سيفه، و يقال انه هبط به جبريل عليه السلام، و يقال ان جبريل هبط بجريدة من الجنة فهزها النبي «ص» فتحولت سيفا، فسلمه الى علي عليه السلام و أمره بالبروز الى عمرو بن ود، فلما توجه اليه قال النبي «ص»: خرج الإسلام سائره الى الكفر سائره، فدعاه علي الى‏

ص: 123

أن ينازله و قال: يا عمرو انك كنت عاهدت اللَّه لقريش أن لا يدعوك رجل الى خلتين إلا أخذت بإحداهما. قال عمرو: أجل. قال عليه السلام: اني أدعوك الى اللَّه و رسوله و الإسلام. فقال: لا حاجة لي بذلك. قال: فإني أدعوك إلى المبارزة، و كان عمرو نديما لأبي طالب، فقال: يا بن أخي ما أحب أن أقتلك، فقال له علي عليه السلام: و لكني و اللَّه أحب أن أقتلك.

فحمي عمرو فاقتحم عن فرسه و عرقبه، ثم أقبل الى علي، فتبارزا و تجاولا، و ثارت عليهما غبرة سترتهما عن العيون، فجزع النبي «ص» و المسلمون لذلك، فلم يرع المسلمين إلا تكبيرة علي، فعرف المسلمون أن عليا قتله، و انجلت الغبرة فإذا علي على صدره يذبحه، فكبر المسلمون و هزم اللَّه المشركين، و قال جبرائيل للنبي «ص»: يا محمد هذا المواساة، و عرج الى السماء و هو يقول بصوت يسمع لا سيف الا ذو الفقار و لا فتى الا علي.

و روى عمرو بن عبيد عن الحسن بن أبي الحسن أن أمير المؤمنين عليه السلام لما قتل عمرا و حمل رأسه و ألقاه بين يدي النبي «ص»، قام أبو بكر و عمر فقبلا رأس أمير المؤمنين عليه السلام.

و روى أبو بكر بن عياش أنه قال: لقد ضرب علي عليه السلام ضربة ما كان في الإسلام أعز منها، يعني ضربة عمرو بن عبد ود. و لقد ضرب علي ضربة ما كان في الإسلام ضربة أشد منها على الإسلام، يعني ضربة ابن ملجم لعنه اللَّه.

و قال الشاعر في ذكر هذه القتلة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| جبريل نادى في الوغى‏ |  | و النقع ليس بمنجلي‏ |
| و المسلمون بأسرهم‏ |  | حول النبي المرسل‏ |
| و الخيل تعثر بالجماجم‏ |  | و الوشيج الذبل‏ |
|  |  |  |

ص: 124

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| لا سيف الا ذو الفقار |  | و لا فتى الا علي‏ |
|  |  |  |

و قالت كلثوم بنت عمرو بن عبد ود ترثي أباها:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| لو كان قاتل عمرو غير قاتله‏ |  | لكنت أبكي عليه آخر الأبد |
| لكن قاتله من لا يعاب به‏ |  | و كان يدعى قديما بيضة البلد |
|  |  |  |

و أما الوليد الذي ذكره في البيت، فهو الوليد بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ابن عبد مناف بن قصي بن كلاب، و كان من قصته أنه خرج في يوم بدر عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، و شيبة بن ربيعة أخوه، و الوليد بن عتبة بن ربيعة يطلبون البراز، فخرج إليهم عدتهم من الأنصار فناسبوهم، فلما عرفوهم قالوا: لا حاجة بنا إليكم، انما نريد أكفاءنا من قريش. فأمر النبي «ص» حمزة بن عبد المطلب فخرج الى عتبة بن ربيعة، و عبيدة بن الحارث ابن عبد مناف فخرج الى شيبة، و عليا الى الوليد، فناسبوهم فانتسبوا فقالوا: أكفاء كرام، و كان هؤلاء من سادات قريش و من رؤساء المشركين. فأما حمزة و علي فما لبثا عتبة و الوليد حتى قتلاهما.

و أما عبيدة و شيبة فاختلفا ضربتين، فضرب عبيدة شيبة، و ضرب شيبة عبيدة فقطع رجله، و أدرك علي شيبة فأجهز عليه و حملا عبيدة إلى النبي «ص» فمات بعد انصرافهم من بدر. و توفي عبيدة بن الحارث و دفن بالصفراء.

و قال أسيد بن أبي إياس بن زنيم بن صحبة بن عدي الدئلي يحرض المشركين من قريش على قتل علي عليه السلام و يغريهم به:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| في كل مجمع غاية أخزاكم‏ |  | جذع أبر على المذاكي القرح‏ |
| للَّه دركم و لما تنكروا |  | قد ينكر الحر الكريم فيستحي‏ |
| هذا ابن فاطمة الذي اوداكم‏ |  | قتلا و قتلة قعصة لم يذبح‏ |
| أعطوه خرجا و أذنوا بضريبة |  | فعل الذليل و بيعة لم تربح‏ |
|  |  |  |

ص: 125

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| اين الكهول و اين كل دعامة |  | في المعضلات و اين زين الأبطح‏ |
| أفناكم ضربا و طعنا يفتري‏ |  | بالسيف يعمل حده لم يصفح‏ |
|  |  |  |

و كان لواء المشركين في يوم أحد مع طلحة بن أبي طلحة، فقتله علي بن أبي طالب «ع»، فقال الحجاج بن علاط السلمي في ذلك:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| للَّه أي مذبب عن حرمة |  | أعني ابن فاطمة المعم المخولا |
| جادت يداك له بعاجل طعنة |  | تركت طليحة للجبين مجدلا |
| و شددت شدة باسل فكشفتهم‏ |  | بالحرب إذ يهوون اخول أخولا |
| و عللت سيفك بالدماء و لم يكن‏ |  | لترده ظمآن حتى ينهلا |
|  |  |  |

و قالت هند بنت عتبة ترثي أباها:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| أيا عين جودي بدمع سرب‏ |  | على خير خندف لم ينقلب‏ |
| تداعى له رهطه غدوة |  | بنو هاشم و بنو المطلب‏ |
| يذيقونه حد أسيافهم‏ |  | تعل به بعد ما قد شجب‏ |
|  |  |  |

و كان هؤلاء النفر قبل التقاء الجمعين لما برزوا ثلاثتهم و برز إليهم حمزة و علي و عبيدة، رفع النبي «ص» يده الى اللَّه تعالى يتضرع اليه و يسأله ما وعده من النصر و يقول: اللهم ان تظهر علي هذه العصابة ظهر الشرك و لم يقم لك دين.

و لما قتلوا نذرت هند لتأكل كبد حمزة ان قدرت عليه.

فان قيل: فلم ذكر السيد عتبة بن ربيعة أبا الوليد و انما قتله حمزة؟

قلنا: الفجر لمن قتله حمزة لأمير المؤمنين «ع»، لأن الجر و السنخ واحدة (كذا) و الرافدة و مساعدة كل واحد منهما لصاحبه تسوغ هذه الإضافة.

فأما الصقعب: فهو الطويل من الرجال.

ص: 126

(92- 93)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و بنى قريظة يوم فرق جمعهم‏ |  | من هاربين و ما لهم من مهرب‏ |
| و موائلين الى أزل ممنع‏ |  | رأسي القواعد مشمخر حوشب‏ |
|  |  |  |

الموائلون: اللاحقون، يقال: وألت إليه إذا لجأت اليه، و اسم الموضع:

الموئل، و وأل يئل.

و الأزل: هاهنا الذي تزل عنه الأقدام لطوله و كونه أملس وعرا.

و الممنع: المتصعب.

و الراسي: الثابت القواعد.

و المشمخر: العالي.

و الحوشب: العظيم الجنبين، و هو أيضا العظيم البطن. و الحوشب أيضا:

عظم الرسغ من الفرس، [و] الحوشب: حشو الحافر، و الجمع من الكل:

حواشب.

و انما عنى أن بني قريظة لما حاربهم، هزمهم و هربوا منه و لجئوا الى حصن كان لهم، و صفه هذه الصفات.

(94)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| رد الخيول عليهم فتحصنوا |  | من بعد ارعن جحفل متحزب‏ |
|  |  |  |

يقول: ان اللَّه تعالى لما أخزاهم به و فل حدهم، تحصنوا من بعد أن كانوا

ص: 127

مصحرين في كنيف.

و الأرعن: الجيش الكثيف، شبهه برعن الجبل، و هو أنف يتقدم الجبل، و الجمع رعان و رعون.

و الجحفل: الجيش الكبير العظيم.

و المتحزب: المتجمع، و الحزب: الجماعة، و الجمع أحزاب.

(95)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| ان الضباع متى تحس بنبأة |  | من صوت اشوس تقشعر و تهرب‏ |
|  |  |  |

شبههم بالضباع.

و النبأة: الصوت، و النبإ الخبر.

و الأشوس: الرافع رأسه تكبرا، و الجمع شوش.

و انما أراد به الأسد، و قد استعاره.

(96)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| فدعوا ليمضي حكم احمد فيهم‏ |  | حكم العزيز على الذليل المذنب‏ |
|  |  |  |

لما حضرهم علي عليه السلام، حين تحصنوا منه، قال لهم: لا أمان لكم الا أن تنزلوا على حكم محمد صلى اللَّه عليه و آله و سلم. فقالوا: ما ننزل على حكمه.

ص: 128

(97)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| فرضوا بآخر كان أقرب منهم‏ |  | دارا فمتوا بالجوار الأقرب‏ |
|  |  |  |

(ش 1) قوله «فرضوا بآخر» لأنهم قالوا لما اشتد بهم الأمر و تطاول حصارهم نحن نرضى بحكم سعد بن معاذ، لانه كان جارا لهم، و ظنوا أنه يحكم بما يوافقهم فحكموه، فحكم فيهم أن يقتل مقاتليهم، و أن يسبى ذراريهم، و أن يقسم أموالهم فقال له رسول اللَّه: لقد حكمت بحكم اللَّه و رسوله فيهم. و القصة مشهورة و شرحها يطول.

(ش 2) المت في النسب: أن تصل نفسك بغيرك، تقول: متت اليه أمت متا. و المت و المطل واحد، الا أن المت يختص بالنسب. و المد: في الحبل و شبهه. و المط: في الخط. و المطل: في المواعيد.

(98- 101)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| قالوا الجوار من الكريم بمنزل‏ |  | يجرى لديه كنسبة المتنسب‏ |
| فقضى بما رضي الإله لهم به‏ |  | بالحرب و القتل الملح المخرب‏ |
| قتل الكهول و كل أمرد منهم‏ |  | و سبى عقايل بدنا كالربرب‏ |
| و قضى عقارهم لكل مهاجر |  | دون الاولى نصروا و لم يتهيب‏ |
|  |  |  |

الملح: من الإلحاح، بمعنى المداومة للشي‏ء و الاستمرار عليه. و الإلحاح‏

ص: 129

و الالحاف: واحد. و المعنى أنه لما استمر عليهم القتل و عمهم جميعهم، أخلى ديارهم و أجلاهم منها، فبقيت بعدهم عاطلة دارسة.

و العقائل: جمع عقيلة، و هي الكريمة من النساء. و عقائل المال: كرائمه.

و البدن: جمع بادنة، و هي الوافر لحم الجسم. و يقال أيضا: بدنت المرأة و بدن الرجل تبدينا: أسن و هرم، و رجل بدن: أي كبير السن.

و البدن: العظم، و جمعه أبدان.

و البدن أيضا: الدرع القصيرة، و جمعها أبدان أيضا.

و الربرب: جماعة البقر ما كان دون العشرة. و الصوار ما جاز.

و آخر في قوله «و رضوا بآخر كان أقرب» سعد بن معاذ الأنصاري، لأن بني قريظة لما حاصرهم النبي صلى اللَّه عليه و آله في حصنهم المدة المذكورة في الكتب و ضاق ذرعهم و عرض عليهم رسول اللَّه «ص» أن ينزلوا على حكمه فيهم فأبوا ذلك و رضوا على حكم سعد بن معاذ لأنه كان جارا لهم لأنهم ظنوا أنه يحكم بما يوافقهم فحكموه، فحكم عليهم أن يقتل مقاتلتهم و يسبي ذراريهم و أن يقسم أموالهم. فقال له النبي «ص»: لقد حكمت فيهم بحكم اللَّه من فوق سبعة أرقعة.

و القصة مشهورة يطول ذكرها.

(102- 105)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و بخم إذ قال الإله بعزمة |  | قم يا محمد بالولاية فاخطب‏ |
| و انصب أبا حسن لقومك انه‏ |  | هاد و ما بلغت ان لم تنصب‏ |
|  |  |  |

ص: 130

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| فدعاه ثم دعاهم فأقامه‏ |  | لهم فبين مصدق و مكذب‏ |
| جعل الولاية بعده لمهذب‏ |  | ما كان يجعلها لغير مهذب‏ |
|  |  |  |

أما «خم» فهو الموضع الذي يضاف اليه الغدير في قولهم غدير خم، و هو الذي عناه الكميت مرة بقوله:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و يوم الدوح دوح غدير خم‏ |  | أبان له الولاية لو أطيعا |
|  |  |  |

و يجب أن يكون مشتقا من الخم و هو الكنس، يقولون خممت أخمه خما إذا كنسته. و الخمامة الكناسة، و المخمة: المكنسة، و رجل مخموم النفس و القلب:

نفيه من الدنس. و كان هذا الوضع لا شية فيه و لا أذى و لا قذى.

يروى أن النبي صلى اللَّه عليه و آله لما عاد من حجة الوداع نزل بغدير خم، و أن قوله تعالى‏ «يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ»[[102]](#footnote-102) نزل في هذا الموضع.

و يروى أن في هذا الموضع نزل قوله تعالى‏ «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً»[[103]](#footnote-103). و ان النبي صلى اللَّه عليه و آله نزل، و اليوم شديد متوهج القيظ، فأمر «ص» بما تحت الشجر من الشوك فضم، ثم قام و قال للناس مقبلا عليهم:

«أ لست أولى بكم من أنفسكم»؟

فلما أجابوه بالاعتراف و الإقرار، أخذ بضبعي أمير المؤمنين عليه السلام‏

ص: 131

فرفعهما حتى نظر الناس الى بياض إبط رسول اللَّه «ص»، ثم قال:

«فمن كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللهم وال من والاه، و عاد من عاداه، و انصر من نصره، و اخذل من خذله»[[104]](#footnote-104).

و استأذن حسان رسول اللَّه صلى اللَّه عليه و آله و سلم أن يقول في ذكر الحال شعرا، فأذن له، فقال حسان: يا معشر مشيخة قريش اسمعوا قولي بشهادة من رسول اللَّه «ص»، ثم قال:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| يناديهم يوم الغدير نبيهم‏ |  | بخم و أسمع بالرسول مناديا |
| يقول فمن مولاكم و وليكم‏ |  | فقالوا و لم يبدوا هناك التعاميا |
| إلهك مولانا و أنت ولينا |  | و لا تجدن منا لأمرك عاصيا |
| فقال له قم يا علي فانني‏ |  | رضيتك من بعدي اماما و هاديا |
|  |  |  |

و روي أن عمر بن الخطاب قال لأمير المؤمنين عليه السلام في الحال: بخ بخ لك يا علي، أصبحت مولاي و مولى كل مؤمن و مؤمنة.

و قد بينا في الكتاب «الشافي» خاصة و في غيره من كتبنا عامة أن هذا الكلام نص عليه بالإمامة و إيجاب لفرض طاعته، لأن النبي «ص» قرر أمته بفرض طاعته بما أوجبه له قوله عز و جل‏ «النَّبِيُّ أَوْلى‏ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ»[[105]](#footnote-105)، و لا خلاف بين أهل اللغة بأن الأولى هو الأخص الأحق بالشي‏ء الذي قيل و هو أولى به، فإذا قال صلى اللَّه عليه و آله: (من كنت مولاه فعلي مولاه)، فقد أتى من لفظة مولى بما يحتمل معنى أولى، و ان كان محتملا لغيره من الناصر و الحليف و المعتق‏

ص: 132

[[106]](#footnote-106)

و ابن العم و غير ذلك مما قد سطر و ذكر، فلا بد أن يكون انما أراد من اللفظة المحتملة- و هي لفظة مولى- معنى الأولى الذي تقدم التصريح به، لأن من شأن أهل اللسان إذا عطفوا محتملا على صريح لم يجز أن يريدوا بالمحتمل الا معنى الصريح. ألا ترى أن من له عبيد كثيرون إذا أقبل على جماعة قال: أ لستم عارفين بعبدي زيد؟ ثم قال عاطفا على الكلام: فاشهدوا إن عبدي حر لوجه اللَّه تعالى، لم يجز أن يريد بلفظة عبدي الثانية، و هي مشتركة بين جماعة عبيده الا العبد الأول الذي تقدم التصريح باسمه، من أراد غيره كان سفيها ملغزا معميا.

و بينا بحيث أشرنا إليه ما يرد على هذا الكلام من الأسئلة المختلفة، و استقصينا الجواب عنها و أزلنا كل شبهة معترضة فيها، و ليس هذا موضع استيفاء ذلك، و من أراد تناوله فمن مواضعه.

و أما قول السيد «إذ قال الإله بعزمة» و العزم لا يجوز على اللَّه تعالى، لأنه اسم لإرادة متقدمة على الفعل، فإرادة التقديم لفعله لا تتقدمه، لأن تقدمها عيب، فالوجه فيه أن السيد انما أراد هاهنا القطع بالأمر و الثبات له و الإيجاب، لأنهم يقولون:

عزمت عليك أن تفعل كذا و كذا أي ألزمتك و أوجبت عليك. و الإرادة إذا تناولت فعل الغير لا تسمى عزمة، و تسمى الواجبات عزائم، و لا يسمون المندوبات بذلك و لهذا قالوا: عزائم السجود في القرآن، و هي السور التي فيها سجود واجب، فما أخطأ السيد في ذكر العزمة و لا وضعها في غير موضعها.

فان قيل: فان السيد ذكر في شعره الولاية، و هي الولاء و المحبة و النصرة، و لم يذكر الإمامة، و قد كان قادرا على أن يقول: قم يا محمد بالإمامة و اخطب.

فكيف عدل عن لفظ الإمامة إلى لفظ الولاية؟

قلنا: لا فرق هنا بين اللفظتين، و انما أراد بالولاية الخلافة و تولي الأمر

ص: 133

الموجب لفرض الطاعة. إلا ترون أن الخليفة إذا أمر أميرا و فوض اليه تدبير أمره قيل: انه قد ولاه ولاية، من حيث جعل له طاعة على أهل ولايته، و كل رتبة تقتضي طاعة فهي تسمى ولاية.

و انما اشتق السيد الاسم الذي ذكره من لفظ النبي «ص» و هو «المولى» و لم يعتمد الاشتقاق من المعنى، و المعنى في كلا اللفظتين ثابت. و قد صرح بمعنى الإمامة دون الموالاة التي هي النصرة في قوله: و انصب أبا حسن لقومك الى آخره، و هذا اللفظ لا يليق إلا بالإمامة و الخلافة دون المحبة و النصرة.

و قوله «جعل الولاية لمهذب» صريح في الإمامة، لأن الإمامة هي التي جعلت له بعده، و المحبة و النصرة حاصلتان في الحال و غير مختصتين بعد الوفاة.

فإن قيل: فأي معنى لقوله «فبين مصدق و مكذب»؟

قلنا: انما أراد أن النبي لما تأهب للكلام و دعا أمير المؤمنين و أخذ بيده، تصرفت الظنون و اختلفت الأفكار فيما يريد أن يظهره، فبين تصديق و تكذيب و تصعيد و تصويب. و انما أراد أنهم كانوا كذلك قبل استماع الكلام و وقوع التصريح المزيل لكل شبهة الدافع لكل ريبة، و للَّه درة و إجادته في هذا.

(106- 110)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| [و اللَّه أهبط جبرائيل قائلا (كذا) |  | لرسوله فانظر لذلك و أعجب‏][[107]](#footnote-107) |
| ما أن يبلغها سواك أو امرئ‏ |  | هو منك أصلا و هو غير مجنب‏ |
|  |  |  |

ص: 134

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| هذي مناقب لا ترام متى يرد |  | ساع تناول بعضها يتذبذب‏ |
| انى أدين بحب آل محمد |  | دينا و من يحببهم يستوجب‏ |
| لهم المودة و الولاء و من يرد |  | بدلا بآل محمد لا يحبب‏ |
| فقد مضى تفسير المناقب. |  |  |

فأما التذبذب: فهو الاضطراب و التردد و التحير، و ذبذب الرجل لسانه و ذكره. و انما أراد أن من رام تناول بعض هذه المناقب قصر عنها و لم ينلها.

فأما قوله «انا ندين بحب آل محمد» فمعناه: انا نطيع اللَّه بحبهم، و نتقرب اليه بذلك.

و الدين: العادة، و الديدن: العادة، و الدين: الحساب، و الدين: الذل، و الدين: الطاعة، و الدين: الجزاء، و يقولون: دين الرجل إذا ملك و قلد.

و انما أراد من تولى آل محمد «ص» يستحق منا الولاء و المودة، و من يتدين بغيرهم لا نحبه.

(111- 112)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و متى يمت يرد الجحيم و لا يرد |  | حوض الرسول و ان يرده يضرب‏ |
| ضرب المحاذر ان تعر ركابه‏ |  | بالسوط سالفة البعير الأجرب‏ |
|  |  |  |

الجحيم: اسم من أسماء النار، و جحمت النار: أوقدتها، و جحمت النار عظمت.

ص: 135

الجحام: داء يصيب الكلب يكون منه بين عينيه، و الجحمتان عند أهل اليمن:

العينان.

العر: الجرب، و قد عرت الإبل تعر فهي عارة.

السالفة: صفحة العنق الى الخد، و السالف: الذي يتقدم القوم فيستقي الماء و جمعه سلاف، و السالف: الماضي.

و انما أراد السيد رحمه اللَّه أن عدو آل محمد «ص» و من لم يتولهم و يتحقق بهم يرد الجحيم لأنها منزلة و دار مقامه، و إذا ورد حوض رسول اللَّه «ص» الذي يشرب منه يوم القيامة، امارة السلامة و الكرامة و دخول الجنة، صد عنه و ضرب كما يضرب المشفق، من أن تجرب مطيته و ركابه، سالفة البعير الأجرب، منعا له عن الاختلاط بها و الورود معها فيجربها و يعديها.

(113- 115)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و كان قلبي حين يذكر احمدا |  | و وصى احمد نيط من ذي مخلب‏ |
| بذرى القوادم من جناح مصعد |  | في الجو أو بذرى جناح مصوب‏ |
| حتى يكاد من النزاع إليهما |  | يفري الحجاب عن الضلوع الصلب‏ |
|  |  |  |

(ش 1) قوله نيط أي علق، و نياط القلب: معلقه، و كذلك نياط القوس.

و الذري: جمع ذروة، و ذروة كل شي‏ء: أعلاه، و ذرى الرجل: ناحيته.

و القوادم: جمع قادمة. و قوادم الجناح أربع ريشات مقدمة، و يليهن المناكب و هن أربع ريشات، و يليهن الأباهر و هن أربع ريشات، ثم الخوافي و هن أربع‏

ص: 136

فإذا جمعت كن عشرين ريشة نسقا من أول الجناح الى آخره.

و المصعد: الذي يعلو إلى جهة السماء.

و المصوب: الذي يهوى سفلا إلى جهة الأرض.

و الحجاب: حجاب القلب.

الصلب: الحجارة، و الصلب: الموضع الغليظ، و يقال للظهر صلب و صلب.

(ش 2) و انما أراد بوصي أحمد «ص» أمير المؤمنين «ع»، لأنه وصيه على أمته و على أهله. و قد دللنا على ذلك من قبل.

و معنى نيط: أي علق، و نياط القلب: معلقه، و كذلك نياط القوس، و النياط حبل مستبطن الصلب، و نياط الأرض: اتصال بعضها ببعض.

و أراد بذي مخلب: جارحا ذا مخلب.

و الذري: جمع ذروة، و ذروته: أعلاه. و ذرى الرجل: ناحيته.

و القوادم: جمع قادمة، و قوادم الجناح: أربع ريشات في مقدمته، و تليهن المناكب و هي أربع، و تليهن الأباهر و هي أربع أيضا، ثم الخوافي و هي أربع ثم الكلاء و هي أربع، فإذا جمعن كن عشرين ريشة من أول الجناح الى آخره.

و المصعد: هو الذي يصعد علوا إلى جهة السماء.

و المصوب: هو الذي يهوي إلى جهة الأرض سفلا.

و معنى هذا الكلام أن قلبي عند ذكرهما، مسرة بهما و اشتياقا إليهما، ينزو و يعلم، و يجي‏ء و يذهب، ارتياحا و نزاعا.

و الفري: هو القطع.

و الحجاب: يعني به حجاب القلب.

و الصلب و الصلبة: حجارة المسن، الواحدة صلبة. و الصلب: الظهر.

ص: 137

و الصلب: الحسب، و الصلب: الموضع الغليظ المنقاد، و يقال للظهر: صلب.

و الصلب مثل النحل و النحل و الهدب و الهدب.

(116- 117)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| هبة و ما يهب الإله لعبده‏ |  | يزدد و مهما لا يهب لا يوهب‏ |
| يمحو و يثبت ما يشاء و عنده‏ |  | علم الكتاب و علم ما لم يكتب‏ |
|  |  |  |

الهبة: معروفة، و هي العطية على سبيل التفضل، و القبض شرط في وقوع التمليك فيها. و معنى «ما يهب الإله لعبده يزدد» أنه يتضاعف و ينمو لبركته و طهارته.

فان قيل: فأي معنى لقوله «و مهما لا يهب»، و معلوم أن غيره تعالى قد يهب و يسمى ما يهب موهوبا؟

قلنا: معنى هذا الكلام أن هبة عيره لا تتم و لا يحصل الانتفاع بها الا بعد تقدير هبة اللَّه تعالى، لأن الواهب منا لا يتم كونه واهبا الا بما وهبه اللَّه تعالى له من الاحياء و الأقدار و التمكن، و الموهوب له لا ينتفع بالهبة إلا بما وهبه اللَّه تعالى من الحياة و الشهرة و القدرة، و الموهوب نفسه لا يتم الانتفاع به الا بما خلقه اللَّه فيه من أجناس المدركات كالطعوم و الأراييح و غيرهما، فهبته تعالى أصل لكل هبة كما أن نعمة اللَّه أصل لكل نعمة.

و وجه آخر: ان الهبة انما يقع التملك بها اما عقلا أو شرعا بحسب ما حكم اللَّه تعالى به و دل عليه، و ما خرج عن تلك الشروط و الأحكام لا يكون هبة و لا يوصف بأنه واهب، و ما لم يتفضل علينا باعلامنا انه هبة لا يسمى بذلك، و لا يكون له تأثير و لا حكم.

ص: 138

و معنى «يمحو و يثبت ما يشاء» أنه يغير أحكام الشريعة بحسب ما يعلمه من المصالح لعباده، فيبيحه ما لم يكن مفسدة، و يحظره إذا تغيرت حاله و صار مفسدة و يوجبه إذا كان مصلحة، و يسقط وجوبه إذا خرج عن كونه مصلحة. و سمي بذلك محوا و إثباتا من حيث التبديل و التغيير و التطبيب و التشبيه بمن كتب شيئا ثم محاه و أزال رسمه.

و يجوز أيضا أن يراد بالمحو و الإثبات الحقيقة لا التسمية، لما وردت به الرواية من إثبات ما يكون في اللوح المحفوظ، فإذا تعبد تعالى بشرع كتبه و إذا نسخه محاه.

و أما قوله «و عنده علم الكتاب و علم ما لم يكتب»، فيحتمل أمرين: أحدهما أن يريد بالكتاب ما كتبه في اللوح المحفوظ، و الوجه الأخر أن يريد بالكتاب القرآن. و لا شبهة في أنه تعالى يعلم ما زاد على ذلك كله و ما لا يتناهى من المعلومات.

وجدت في نسخة السيد رضي اللَّه عنه ملحقا ملخصه:

و إذا كنا قد قضينا من تفسير هذه القصيدة الوطر، و بلغنا الغرض، فالواجب القطع هاهنا، و انما لم نفرع التفسير و نتتبعه، و نفصل وجوه الكلام كلها و نقسمها، لأن هذا الخبر غير متناه، و يحوجنا ان قصدناه و استوفيناه الى ذكر جميع أحكام العربية، و جميع اللغة المروية في الكلام و فروعه، و خاصة في الإمامة و ما يرجع إليها و يتعلق بها، و هذا غرض لا تتسع له الطوامير، و لا تنحصر فيه الأساطير.

و في الجمل التي ذكرناها كفاية في معرفة مراد الشاعر، و ما لا بد من معرفته من معاني كلامه، و ما تعدى ذلك فهي اطالة تمل و تضجر. غير أنا آثرنا أن نختم هذه القصيدة بشي‏ء من أخبار السيد رحمه اللَّه تعالى، و محاسنه و فضائله، لتكمل‏

ص: 139

الفائدة و توفر، و نحن لذلك فاعلون:

اسم السيد إسماعيل، و كنيته أبو هاشم بن محمد بن يزيد بن وداع الحميري و أمه من حمير، تزوج بها أبوه لأنه كان نازلا فيهم، و أم هذه المرأة أو جدته بنت يزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميري الشاعر المعروف، و ليس لابن مفرغ هذا عقب من ولد ذكر، و قد غلط الأصمعي في نسبة السيد الى يزيد بن مفرغ من جهة أبيه بنسبه.

قال الصولي: و السيد لقب به لذكاء كان فيه، فقيل سيكون سيدا، فعلق هذا اللقب به. بذلك أخبرنا على سبيل الإجازة أبو عبيد اللَّه محمد بن عمران بن موسى المرزباني عن أشياخه، و أخبرنا المرزباني قال: أخبرنا محمد بن يزيد النحوي قال: حدثني من سأل العباسة بنت السيد بن محمد عن مولد أبيها، قالت: في سنة خمس و مائة، و مات في سنة ثلاث و سبعين و مائة.

و أخبرنا أبو عبيد اللَّه المرزباني قال: حدثني أبو عبد اللَّه الحكمي قال: حدثني يموت بن المزرع قال: حدثني محمد بن حميد الشكري قال: سئل أبو عمرو:

من أشعر المولدين؟ قال: السيد و بشار.

و أخبرنا المرزباني قال: أخبرني محمد بن يحيى قال: أخبرنا المغيرة بن بحر قال: أخبرنا الحسين بن الضحاك قال: ذاكرني مروان بن أبي حفصة أمر السيد بعد موت السيد و ان أحفظ لشعر بشار و السيد، فأنشدته قصيدته المذهبة التي منها:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| أين التطرب بالولاء و بالهوى‏ |  | أ الى الكواذب من بروق الخلب‏ |
| أ إلى أمية أم الى شيع التي‏ |  | جاءت على الجمل الخدب الشوقب‏ |
|  |  |  |

حتى أتيت على آخرها، فقال مروان:

ما سمعت قط شعرا أفصح و أغزر معاني و أبعد ما يرجع في الظن و في اللفظ (كذا) و لا أحسن من هذا الشعر.

ص: 141

(56) (الشهاب) (في الشيب و الشباب)

ص: 143

بسم اللَّه الرّحمن الرّحيم‏ الحمد للَّه على جزيل عطائه و جميل آلائه، و له الشكر على ما منح من هداية و نفح من كفاية، و صلى اللَّه على سيد البشر محمد و آله الغرر و كرم و سلم.

سألت وفقك اللَّه أن أجمع لك من مختار الشعر في الشيب ما تناله القدرة، و تنتهي إليه الخبرة، إذ كان الناس قد جمعوا في ذلك الكثير من غث و سمين و كريم و هجين، فأنا أجيب مسألتك و أنجح طلبتك.

و اعلم أن الإغراق في وصف الشيب و الإكثار في معانيه و استيفاء القول فيه لا يكاد يوجد في الشعر القديم، و ربما ورد لهم فيه الفقرة فكانت مما لا نظير له، و انما أطنب في أوصافه و استخراج دفائنه و الولوج الى شعابه الشعراء المحدثون، و ان كان الإحسان المطبق للمفصل قليلا و الجيد من كل شي‏ء قدرا معدودا، و للفحلين المبرزين الطائيين أبي تمام و أبى عبادة البحتري في هذا المعنى ما يغبر في الوجوه سبقا، لا سيما البحتري فإنه مولع بالقول في الشيب لهج به معيد مبدئ لأوصافه، و لا تكاد أكثر قصائده تخلو من إلمام به و تعرض له، فقد زاد فيه على كل متقدم لزمانه اكثارا و تجويدا و تحقيقا و تدقيقا، فأنى أخرجت له في الشيب مائة و أربعين‏

ص: 144

بيتا لكنها مملوءة إحسانا و تجويدا.

و وجدت في شعر أخي رضي اللَّه عنه و أرضاه و كرم مثواه في الشيب شيئا كثيرا في غاية الجودة و البراعة، و رأيت أيضا بعد ذكر ما للطائيين ما ذكره كله لكثرة الإحسان فيه و الغوص الى لطيف المعاني، و قد أخرجت من ديوانه مائتين و نيفا و سبعين بيتا، من تأملها وجد الحسن فيه غزيرا و التجويد كثيرا.

و أنا أضم الى ذلك و أختمه به ما أخرجه من ديوان شعري في هذا المعنى، فإنه ينيف على الثلاثمائة بيت الى وقتنا هذا، و هو ذو الحجة من سنة تسع عشرة و أربعمائة، و ربما امتد العمر و وقع نشاط مستقبل لنظم الشعر، فأنفق فيه من ذكر الشيب ما يزيد في عدد هذا المذكور المسطور.

فأما الإحسان و التجويد مع هذا الإكثار الذي قد زاد على المكثرين في أوصاف الشيب فمما يخرجه الاختبار و يبرزه الاعتبار، و يشهد بتقدم فيه أو تأخر ضم قول الى نظيره و معنى الى عديله، و اطراح التقليد و العصبية و تفضيل ما فضله السبك و النقد من غير احتشام لحق يصدع به و باطل يكشف عنه، و لا محاباة لمتقدم بالزمان على متأخر، فما المتقدم الا من قدمه إحسانه لا زمانه و فضله لا أصله، و قد قلت في بعض ما نظمته:

|  |
| --- |
| و السبق للإحسان لا الأزمان‏ |

و بانضمام ما أخرجته من هذه الدواوين الأربعة يجتمع لك محاسن القول في الشيب و التصرف في فنون أوصافه و ضروب معانيه، حتى لا يشذ عنها في هذا الباب شي‏ء يعبأ به.

هذا حكم المعاني، فأما بلاغة العبارة عنها و جلاؤها في المعاريض الواصلة إلى القلوب بلا حجاب و الانتقال في المعنى الواحد من عبارة إلى غيرها مما يزيد عليها براعة و بلاغة أو يساويها أو يقاربها حتى يصير المعنى باختلاف العبارة عنه و تغير

ص: 145

الهيئات عليه و ان كان واحدا كأنه مختلف في نفسه، فهو وقف على هذه الدواوين مسلم لها مفوض إليها مع الانصاف الذي هو العمدة و العقدة في كل دين و دنيا و أخرى و أولى.

و ان شئت أن تختصر لنفسك و تقتصر على أحد هذه الدواوين استغناء به في هذا المعنى عما سواه و لاحوائه على ما في غيره، فأنت عند سبرك لها و أنسك بكل واحد منها و عملك بالاشتراك بينها و الانفراد و الاجتماع و الافتراق تعرف على أيها تقتصر و بائها تستغني عما سواه.

و اعلم أن الشيب قد يمدح و يذم على الجملة، ثم يتنوع مدحه الى فنون، فيمدح بأن فيه الجلالة و الوقار و التجارب و الحنكة، و انه يصرف عن الفواحش و يصد عن القبائح و يعظ من نزل به فيقلل إلى الهوي طماحه و في الغي جماحه، و ان العمر فيه أطول و المهل معه أفسح، و ان لونه أنصع الألوان و أشرقها، و ما جرى مجرى ما ذكرناه، فالتركب منه كثير.

و من يذمه بأنه رائد الموت و نذيره، و أنه يوهن القوة و يضعف المنة و يطمع في صاحبه، و أن النساء يصددن عنه و يعبن به و ينفرن عن جهته.

و ربما شكي منه لنزوله في غير زمانه و وفوده قبل ابانه، و انه بذلك ظالم جائر. و ما أشبه ذلك.

و مما يدخل في هذا الشباب و إطراء السواد و ذكر منافعهما و فوائدهما و مرافقهما و يتعلق بأوصاف الشيب ذكر الخضاب اما بمدح أو بذم، و فنون مدحه أو ذمة كثيرة، و ذكر ما يقوم مقام الخضاب في إزالة شخص الشيب عن المنظرة من مقراض أو غيره.

و سيجي‏ء من هذه المعاني في ما نورده من الدواوين الأربعة ما ستقف عليه في مواضعه و تعلم حسن مواقعه.

ص: 146

و ما توفيقي إلا باللّه عليه توكلت و اليه أنيب.

قال أبو تمام حبيب بن أوس الطائي و هو ابتداء قصيدة

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| نسج المشيب له لفاعا مغدفا |  | يققا فقنع مذرويه و نصفا |
| نظر الزمان اليه قطع دونه‏ |  | نظر الشفيق تحسرا و تلهفا |
| ما اسود حتى أبيض كالكرم الذي‏ |  | لم يأن حتى جي‏ء كيما يقطفا |
| لما تفوقت الخطوب سوادها |  | ببياضها عبثت به فتفوقا |
| ما كاد يخطر قبل ذا في فكره‏ |  | في البدر قبل تمامه أن يكسفا |
|  |  |  |

و وجدت أبا القاسم الامدي يذكر في كتابه المعروف «بالموازنة بين الطائيين» في البيت الأول من هذه الأبيات شيئا أنا أذكره و أبين ما فيه، قال: معنى قوله «نصفا» أي قنع جانبي رأسه حتى يبلغ النصف منه. قال: و قد قيل: انما أراد بقوله «نصف النصيف» و هو قناع لطيف يكون مثل نصف القناع الكبير، و قد ذكره النابغة، فقال:

|  |
| --- |
| سقط النصيف و لم ترد إسقاطه‏ |

ثم قال: و ذلك لا وجه له بعد ذكر القناع، و انما أراد أبو تمام ما أراده الأخر بقوله:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| أصبح الشيب في المفارق شاعا |  | و اكتسى الرأس من مشيب قناعا |
|  |  |  |

قال: فالمعنى مكتف بقوله «قنع مذرويه» و قوله «نصفا» أي بلغ نصف رأسه.

و هذا الذي ذكره الامدي غير صحيح، لأنه لا يجوز أن يريد بقوله «نصفا» أي بلغ نصف رأسه، لأنه قد سماه لفاعا، و اللفاع ما اشتمل به المتلفع فغطى جميعه‏

ص: 147

لأنه جعله أيضا مغدفا، و المغدف المسبل السابغ التام، فهو يصفه بالسبوغ على ما ترى، فكيف يصفه مع ذلك بأنه بلغ نصف رأسه. و الكلام بغير ما ذكره الامدي أشبه.

و يحتمل وجهين:

أحدهما- أن يريد بقوله «نصفا» النصف الذي هو الخمار، و الخمار ما ستر الوجه، فكأنه لما ذكر أنه قنع مذرويه- و هما جانبا رأسه- أراد أن يصفه بالتعدي إلى شعر وجهه فقال «نصفا» من النصيف الذي هو الخمار المختص بهذا الموضع، و ليس النصيف على ما ظنه الامدي القناع اللطيف، بل هو الخمار و قد نص أهل اللغة على ذلك في كتبهم. و بيت النابغة الذي أنشد بعضه شاهد عليه، لأنه قال:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| سقط النصيف و لم ترد إسقاطه‏ |  | فتناولته و اتقتنا باليد |
|  |  |  |

و انما اتقت بيدها بأن سترت وجهها عن النظر إليه، فأقامت الخمار بهذا الموضع.

و الوجه الأخر- أن يكون معنى نصفا أنه بلغ الخمسين و ما قاربها، فقد يقال في من أسن و لم يبلغ الهرم أنه نصف.

فان قيل: النصف انما يستعمل في النساء دون الرجال.

قلنا: لا مانع يمنع من استعماله فيهما و لو على سبيل الاستعارة في الرجال، فقد يستعير الشعراء ما هو أبعد من ذلك. و على هذا الوجه يكون قوله «نصفا» راجعا إلى ذي الشيب و الى من كنى عنه بالهاء في قوله «له»، و لا يكون راجعا الى الشيب نفسه.

ص: 148

و رأيت الامدي يسرف في استرذال قوله:

|  |
| --- |
| لم يأن حتى جي‏ء كيما يقطفا |

و لعمري انه لفظ غير مطبوع و فيه أدنى ثقل، و مثل ذلك يغفر لما لا يزال يتوالى من إحسانه و يترادف من تجويده.

و وجدته أيضا يذمه غاية الذم على البيت الأخير الذي أوله:

|  |
| --- |
| ما كان يخطر قبل ذا في فكره‏ |

و يصفه بغاية الاضطراب و الاختلال. و ليس الأمر على ما ظنه، إذ البيت جيد، و انما ليس رونق الطبع فيه ظاهرا، و ليس ذلك بعيب.

و له و هو ابتداء قصيدة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| يضحكن من أسف الشباب المدبر |  | يبكين من ضحكات شيب مقمر |
|  |  |  |

و وجدت أبا القاسم الامدي يغلو في ذم هذا البيت، و قال: هذا بيت ردي‏ء ما سمعت يضحك من الأسف إلا في هذا البيت. قال: و كأنه أراد قول الأخر:

|  |
| --- |
| و شر الشدائد ما يضحك‏ |

فلم يهتد لمثل هذا الصواب. قال: و قوله:

|  |
| --- |
| من ضحكات شيب مقمر |

ليس بالجيد أيضا، و لو كان ذكر الليل على الاستعارة لحسن أن يقول «مقمر» لأنه كان يجعل سواد الشعر ليلا و بياضه بالمشيب أقماره، لأن قائلا لو قال «قد أقمر ليل رأسي» كان من أصح الكلام و أحسنه و ان لم يذكر الليل أيضا حتى يقول‏

ص: 149

«قد اقمر عارضاك» أو «فوداك» لكان حسنا مستقيما، و هو دون الأول في الحسن و ذاك أنه قد علم أنهما كانا مظلمين فاستنارا.

و الذي نقوله: ان قول أبي تمام:

|  |
| --- |
| يضحكن من أسف الشباب المدبر |

يحتمل أن يكون المراد به النساء اللواتي يرين بكاء عشاقهن و أسفهن على الشباب المدبر يهزأن بهم و يضحكن منهم، و مثل ذلك يرد في الشعر كثيرا.

فأما قوله:

|  |
| --- |
| يبكين من ضحكات شيب مقمر |

فالأولى أن يحمل على أن المراد به أنهن يبكين من طلوع الشيب في مفارقهن و ضحكه في رءوسهن، لأنا لو حملناه على شيب عشاقهن لكان الذي يبكين منه هو الذي يهزأن به، و هذا يتنافى. فكأنه وصفهن بأنهن يضحكن و يهزأن من شي‏ء في غيرهن و يبكين منه بعينه إذا خصهن.

فأما حمل الضحك هاهنا على معنى البكاء و غاية الحزن، فهو مستبعد و ان كان جائزا. و يكون على هذا التأويل يضحكن و يبكين بمعنى واحد.

فأما عيبه لقوله «شيب مقمر» ففي غير موضعه، و ليس يحتاج الى أن يذكر الليل على ما ظنه. و كما يقال «أقمر ليل رأسك و أقمر عارضاك» على ما استشهد به كذلك يقال «أقمر شيبك» و لا يحتاج الى ذكر الليل، و انما المعنى أنه أضاء بعد الظلام و انتشر فيه البياض بعد السواد.

و ليس هذا تتبع من يعرف الشعر حق معرفته، و لعمري ان هذا البيت خال من طبع و حلاوة، لكن ليس الى الحد الذي ذكره الامدي.

ص: 150

و له من جملة قصيدة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| غدا الهم مختطا بفودي خطة |  | طريق الردى منها الى الموت مهيع‏ |
| هو الزور سجفا و المعاشر يجتوى‏ |  | و ذو الالف يقلى و الجديد يرقع‏ |
| له منظر في العين أبيض ناصع‏ |  | و لكنه في القلب اسود اسفع‏ |
| و كنا نرجيه على الكره و الرضا |  | و أنف الفتى من وجهه و هو أجدع‏ |
|  |  |  |

و الإحسان في هذه الأبيات غير مجحود و لا مدفوع.

و معنى أن الشيب في القلب أسود و ان كان في العين ناصعا ما يورثه من الهم و الحزن الذي تظلم به القلوب و تكسف أنوارها.

و له من جملة قصيدة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| شعلة في المفارق استودعتني‏ |  | في صميم الفؤاد ثكلا حميما |
| تستثير الهموم ما اكتن منها |  | صعدا و هي تستثير الهموما |
| عرة مرة إلا إنما كنت‏ |  | أعزي أيام كنت بهيما |
| دقة في الحياة تدعى جلالا |  | مثل ما سمي اللديغ سليما |
| حلمتني زعمتم و أراني‏ |  | قبل هذا التحليم كنت حليما |
|  |  |  |

قال الامدي: و أخذ البحتري قوله‏

|  |
| --- |
| ألا إنما كنت أعزي أيام كنت بهيما |

فقال:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| عجبت لتفويف القذال و انما |  | تفوفه لو كان غير مفوف‏ |
|  |  |  |

و قد كنا قلنا في مواضع تكلمنا فيها على معاني الشعر و التشبيه بين نظائره أنه ليس ينبغي لأحد أن يقدم على أن يقول: أخذ فلان الشاعر هذا المعنى من فلان‏

ص: 151

و ان كان أحدهما متقدما و الأخر متأخرا، لأنهما ربما تواردا من غير قصد و لا وقوف من أحدهما على ما تقدمه الأخر اليه، و انما الإنصاف أن يقال: هذا المعنى نظير هذا المعنى و يشبهه و يوافقه، فأما أخذه و سرقه فمما لا سبيل الى العلم به، لأنهما قد يتواردان على ما ذكرناه و لم يسمع أحدهما بكلام الأخر، و ربما سمعه فنسيه و ذهب عنه ثم اتفق له مثله من غير قصد، و لا يقال أيضا: أخذه و سرقه إذا لم يقصد الى ذلك.

و كم بين بيت أبي تمام و بيت البحتري مأخوذا منه أو غير مأخوذ في الطبع و صحة النسج و طلاوة اللفظ، فلبيت أبي تمام الفضل الظاهر الباهر، و يشبه قوله‏

|  |
| --- |
| و أراني قبل هذا التحليم كنت حليما |

من شعري في الشيب قولي:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و قالوا أتاه الشيب بالحلم و الحجى‏ |  | فقلت بما يبرى و يعرق من لحمي‏ |
| و ما سرني حلم يفي‏ء إلى الردى‏ |  | كفاني ما قبل المشيب من الحلم‏ |
|  |  |  |

و ستجي‏ء هذه الأبيات في موضعها بمشيئة اللَّه.

و له من جملة قصيدة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| أ لم تر أرآم الظباء كأنما |  | رأت بي سيد الرمل و الصبح ادرع‏ |
| لئن جزع الوحشي منها لرؤيتي‏ |  | لانسيها من شيب رأسي أجزع‏ |
|  |  |  |

و وجدت أبا القاسم الامدي يفسر ذلك و يقول: أراد بسيد الرمل الذئب، و قوله «و الصبح أدرع» أي أوله مختلط بسواد الليل، يريد وقت طلوع الفجر، و كل ما اسود أوله و أبيض آخره فهو أدرع، و شاة درعاء للتي أسود رأسها و عنقها و سائرها أبيض، و انما قال ذلك لأن الظباء تخاف الذئب في ذلك الوقت، لأن لونه يخفى فيه لغبشته فلا تكاد تراه حتى يخالطها، و هو الوقت الذي تنتشر فيه الظباء و تخرج‏

ص: 152

من كنسها لطلب المرعى.

و نقول: ان الذي ذكره الامدي مما يحتمله البيت، و أجود منه أن يكون قوله «و الصبح أدرع» عبارة عن شيبه و خبرا عن بياض بعض شعره و سواد بعض، و أراد أن النساء اللواتي يشبهن الظباء ينفرن منى إذا رأين شيب رأسي كما ينفرن من ذئب الرمل. ثم قال: و لئن كان الوحشي يجزع من رؤيتي فلأنسيها من شيب رأسي أجزع.

و ان لم يكن المعنى على ما ذكرناه فلا معنى لقوله: ان الظباء التي هي البهائم تنفر منه كما تنفر من الذئب، لأنه لا وجه لذلك و لا فائدة فيه و لا سبب، فالكلام بالمعنى الذي ذكرناه أليق.

فإن قال من ينصر تأويل الامدي: أي معنى لقوله‏

|  |
| --- |
| كأنما رأت بي سيد الرمل‏ |

لو لا انه أراد بالظباء البهائم دون النساء المشبهات بهن، و كيف تنفر النساء من الذئب و انما تنفر منه الظباء على الحقيقة.

قلنا: النساء تنفر من الذئب لا محالة كما تنفر منه الظباء اللواتي هن الغزلان، و ما يهابه الرجال و ينفرون منه أجدر أن ينفر منه النساء الغرائر.

فان قيل: كيف قال في البيت الثاني:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| لئن جزع الوحشي منها لرؤيتي‏ |  | لانسيها من شيب رأسي أجزع‏ |
|  |  |  |

لو لا أن الوحشية قد نفرت منه و وقع ذلك و خبر عنه في البيت الأول؟

قلنا: ليس يقتضي هذا الكلام الثاني أن يكون المراد بذكر الظباء في البيت الأول و الظباء على الحقيقة، لأن من المعلوم أن الظباء الوحشية و كل وحش ينفر من الانس، و هذا أمر ممهد معلوم لا يحتاج الى وقوعه حتى يعلم، فلما قال: ان النساء اللواتي يشبهن الظباء ينفرن من شيبى جاز أن يقول بعد ذلك و لئن كانت الظباء

ص: 153

الوحشية تنفر مني فالظباء الإنسية لأجل انكارهن شيبي منهن أنفر.

و بعد، فلم نفسد تأويل الامدي و ننكره، بل أجزناه و قلنا: ان البيت يحتمل سواه.

و له من جملة قصيدة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| لعب الشيب بالمفارق بل‏ |  | جد فأبكى تماضرا و لغوبا |
| خضبت خدها الى لؤلؤ العقد |  | دما إذ رأت شواتى خضيبا |
| كل داء يرجى الدواء له‏ |  | الا القطيعين ميتة و مشيبا |
| يا نسيب الثغام ذنبك أبقى‏ |  | حسناتي عند الحسان ذنوبا |
| و لئن عبن ما رأين لقد |  | انكرن مستنكرا و عبن معيبا |
| أو تصدعن عن قلى لكفى‏ |  | بالشيب بيني و بينهن حسيبا |
| لو رأى اللَّه ان في الشيب فضلا |  | جاورته الأبرار في الخلد شيبا |
|  |  |  |

قال الامدي: و من يتعصب على أبى تمام يقول: انه ناقض في هذه الأبيات لقوله‏

|  |
| --- |
| فأبكى تماضرا و لغوبا |

و قوله‏

|  |
| --- |
| خضبت خدها الى لؤلؤ العقد دما |

ثم قوله:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| يا نسيب الثغام ذنبك أبقى‏ |  | حسناتي عند الحسان ذنوبا |
|  |  |  |

و قوله‏

|  |
| --- |
| و لئن عبن ما رأين‏ |

، و قالوا: كيف يبكين دما على مشيبة ثم يعيبه.

قال الامدي: و ليس هاهنا تناقض، لأن الشيب إنما أبكي أسفا على شبابه غير الحسان اللواتي عبنه، و إذا تميز من أشفق عليه ممن عابه فلا تناقض.

و أقول: لا حاجة بنا الى تمحله، و المناقضة زائلة عن أبي تمام على كل حال،

ص: 154

لأنه لا تناقض بين البكي على شبابه ممن بكاه من النساء و تلهف عليه و بين العيب منهن للشيب و الإنكار له، بل هذه مطابقة و موافقة، و لا يبكي على شبابه من النساء الا من رأين الشيب عيبا و ذنبا. و قد ذكرنا هذا في كتاب الغرر.

و هذا الذي ذكره- و ان كان لا يحتاج الى ما تكلفه- قد كان ينبغي أن يفطن لمثله و نظيره في التغاير و التميز لما عابه بقوله‏

|  |
| --- |
| يضحكن من أسف الشباب المدبر |

فجعل الضحك من شي‏ء و البكي من غيره على ما بيناه، و لا يحمله بعد الفطنة على أن يجعل الضحك بكاء و في معناه.

و له من جملة قصيدة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| راحت غواني الحي عنك غوانيا |  | يلبسن نأيا تارة و صدودا |
| من كل سابغة الشباب إذا بدت‏ |  | تركت عميد القربتين عميدا |
| أربين بالبرد المطارف بدنا |  | غيدا ألفتهم لدانا غيدا |
| احلى الرجال من النساء مواقعا |  | من كان أشبههم بهن خدودا |
|  |  |  |

و وجدت أبا القاسم الامدي يختار في قوله «أربين» الباء دون الياء، من أرب المكان إذا لزمه و أقام فيه. و أربين بالياء معناه الزيادة، فكأنه يقول على الرواية بالياء انهن ازددن علينا بالمرد و اخترنهم علينا كما يقبل الرجل الزيادة في الشي‏ء الذي يعطاه فاضلا عن حقه.

و لعمري ان الرواية بالباء أقرب منها بالياء إلى الحق، و ان كان فيها بعض الهجنة على ما أشار إليه الامدي.

و قال الامدي: انه أخذ قوله‏

|  |
| --- |
| أحلى الرجال من النساء مواقعا |

من قول الأعشى‏

ص: 155

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و أرى الغواني لا يواصلن امرءا |  | فقد الشباب و قد يصلن الأمردا |
|  |  |  |

و لعمري ان بين البيتين تشابها، الا أن أبا تمام زاد على الأعشى بقوله‏

|  |
| --- |
| من كان أشبههم بهن خدودا |

، فعلل ميل النساء الى المرد و الأعشى أطلق من غير تعليل.

و له و هو ابتداء قصيدة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| أبدت اسى إذ رأتني مخلس القصب‏ |  | و آل ما كان من عجب الى عجب‏ |
| ست و عشرون تدعوني فاتبعها |  | الى المشيب و لم تظلم و لم تحب‏ |
| فلا يروقك إيماض القتير به‏ |  | فان ذاك ابتسام الرأي و الأدب‏ |
|  |  |  |

أما قوله‏

|  |
| --- |
| من عجب الى عجب‏ |

فمن البلاغة الحسنة و الاختصار السديد البارع، و قوله‏

|  |
| --- |
| فان ذاك ابتسام الرأي و الأدب‏ |

يريد به أن الرأي و الأدب و الحلم انما يجتمع و يتكامل في أوان الكبر و الشيب دون زمان الشباب. و قد تصف الشعراء أبدا الشيب بأنه تبسم في الشعر لبياضه و ضيائه، الا أن هذه من أبي تمام تسلية عن الشيب و تنبيه على منفعته.

و له من جملة قصيدة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| شاب رأسي و ما رأيت مشيب‏ |  | الرأس الا من فضل شيب الفؤاد |
| و كذاك القلوب في كل بؤس‏ |  | و نعيم طلائع الأجساد |
| طال انكاري البياض فان عمرت‏ |  | شيئا أنكرت لون السواد |
| زارني شخصه بطلعة ضيم‏ |  | عمرت مجلسي من العواد |
| نال رأسي من ثغرة الهم لما |  | لم ينله من ثغرة الميلاد |
|  |  |  |

ص: 156

و رأيت الامدي يقول: ان قوما عابوا أبا تمام بقوله «شيب الفؤاد»، قال:

و ليس عندي بمعيب، لأنه لما كان الجالب للشيب القلب المهموم نسب الشيب اليه على الاستعارة.

قال الامدي: و قد أحسن عندي و لم يسئ.

فيقال له: قد أحسن الرجل بلا شك و لم يسئ و ما المعيب الا من عابه، و أما أنت أيها الامدي فقد نفيت عنه الخطأ و اعتذرت له باعتذار غير صحيح، لأن القلب إذا كان جالبا للشيب كيف يصح أن يقال: قد شاب هو نفسه؟ و انما يقال: انه أشاب و لا يقال شاب.

و العذر الصحيح لأبي تمام: أن الفؤاد لما كان عليه مدار الجسد في قوة و ضعف و زيادة و نقص ثم شاب رأسه، لم يخل ذلك الشيب من أن يكون من أجل تقادم السن و طول العمر أو من زيادة الهموم و الشدائد، و في كلا الحالين لا بد من تغير حال الفؤاد و تبدد صفاته، فسمى تغير أحواله شيبا استعارة و مجازا كما كان تغير لون الشعر شيبا.

و البيت الثاني يشهد بما قلناه، لأنه جعل القلوب طلائع الأجساد في كل بؤس و نعيم.

و قال الامدي: قوله «عمرت مجلسي من العواد» لا حقيقة له، لأنا ما رأينا و لا سمعنا أحدا جاءه عواد يعودونه من الشيب، و لا أن أحدا أمرضه الشيب و لا عزاه المعزون عن الشباب، و قد قال ابن حازم الباهلي أو غيره:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| أ ليس عجيبا بأن الفتى‏ |  | يصاب ببعض الذي في يديه‏ |
| فمن بين باك له موجع‏ |  | و بين معز مغذ اليه‏ |
| و يسلبه الشيب شرخ الشباب‏ |  | فليس يعزيه خلق عليه‏ |
|  |  |  |

ص: 157

قال: فأحب أبو تمام ان يخرج عن عادات بني آدم و يكون أمة وحده.

فيقال له: لم لم تفطن لمعنى أبي تمام فذممته، و قد تكلمنا على هذه الوهلة منك في كتابنا المعروف بغرر الفرائد و قلنا: انه لم يرد العيادة الحقيقية التي يغشى فيها العواد مجالس المرضى، و انما تلطف في الاستعارة و التشبيه و أشار الى الغرض اشارة مليحة. و المعنى: ان الشيب لما طرقني كثر عندي المتوجعون لي منه و المتأسفون على شبابي، اما بقول يظهر منهم أو بما هو معلوم من قصدهم و اعتقادهم، فسماهم عوادا تشبيها بعائد المريض الذي من شأنه أن يتوجع له من مرضه. و لما كثر المتفجعون له من الشيب حسن أن يقول «عمرت مجلسي من العواد»، لأن هذه العبارة تدل على الكثرة و الزيادة.

و هذا الذي ذكرناه في كتاب الغرر و هو كاف شاف، و يمكن فيه وجه آخر، و هو: أن يريد بقوله «عمرت مجلسي من العواد» الاخبار عن وجوب عيادته و استحقاقه لذلك بما نزل به، فجعل ما يجب أن يكون كائنا واقعا.

و هذا له نظائر كثيرة في القرآن و في كلام العرب و أشعارهم، قال اللَّه عز و جل‏ «وَ مَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً»[[108]](#footnote-108)) و انما المعنى أنه يجب أن يأمن، فجعل قوة الوجوب و اللزوم كأنه حصول و وقوع.

و ما يروى عن النبي صلى اللَّه عليه و آله من قوله «العارية مردودة و الأمانة مؤداة و الزعيم غارم» من هذا الباب أيضا، لأنه جعل الوجوب في هذه المواضع كأنه وقوع و وجوب.

و قد يقول القائل: فعل فلان كذا من الجميل فكثر مادحوه، و ان لم يمدحه أحد، و فعل كذا من القبيح فكثر ذاموه، و ان لم يذمه بشر. و انما المعنى ما أشرنا إليه.

ص: 158

فأما ثغرة الهم فإنما أراد به ناحية الهم، و كذلك ثغرة الميلاد، و الثغرة في كلامهم هي الفرجة و الثلمة، و هي الثغر، و هو البلد المجاور لبلد الأعداء البادئ لهم، فكأن أبا تمام أراد أن الهموم هي الجالبة لشيبه و التي دخل من قبلها على رأسه الشيب دون جهة الميلاد، لأنه لم يبلغ من السن ما يقتضي نزول الشيب.

و قال الامدي: كان وجه الكلام أن يقول: من ثغرة الكبر أو من ثغرة السن لا من ثغرة الميلاد.

و هذا منه ليس بصحيح، لأن العبارات الثلاث بمعنى واحد و يقوم بعضها مقام بعض، لأن الميلاد عبارة عن السن، فمن تقادمت سنه تقادم ميلاده و من قربت سنه و قصرت قصر و قرب زمن ميلاده.

و أنكر أيضا الامدي قوله «نال رأسي»، قال: و كان يجب أن يقول: حل برأسي أو نزل برأسي.

و الأمر بخلاف ما ظنه، لأن الجميع واحد و ما نال رأسه فقد حل به و نزل.

و نظير قوله «نال رأسي من ثغرة الهم» قولي من أبيات في الشيب سيجي‏ء ذكرها بإذن اللَّه تعالى:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و لو أنصفتنى الأربعون لنهنهت‏ |  | من الشيب زورا جاء من جانب الهم‏ |
|  |  |  |

و نظير قوله‏

|  |
| --- |
| طال إنكاري البياض‏ |

قول البحتري:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و كان جديدها فيها غريبا |  | فصار قديمها حق الغريب‏ |
|  |  |  |

و له- و قيل انه منحول- في ذكر الخضاب:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| فان يكن المشيب طرا علينا |  | و أؤدي بالبشاشة و الشباب‏ |
| فاني لست أدفعه بشي‏ء |  | يكون عليه أثقل من خضاب‏ |
|  |  |  |

ص: 159

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| أردت بأن ذاك وفا عذاب‏ |  | فينتقم العذاب من العذاب‏ |
|  |  |  |

(مضى ما لأبي تمام حبيب بن أوس الطائي في الشيب) و قال أبو عبادة الوليد بن عبيد البحتري في الشيب من جملة قصيدة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و كنت أرجى في الشباب شفاعة |  | و كيف لباغي حاجة بشفيعه‏ |
| مشيب كبث السر عي بحمله‏ |  | محدثة أو ضاق صدر مذيعه‏ |
| تلاحق حتى كاد يأتي بطيئه‏ |  | لحث الليالي قبل آتى سريعة |
|  |  |  |

و هذا و اللَّه أبلغ كلام و أحسنه و أحلاه و أسلمه و أجمعه لحسن اللفظ و جودة المعنى، و ما أحسن ما شبه تكاثر الشيب و تلاحقه ببث السر عن ضيق صدر صاحبه و إعيائه بحمله و عجزه عن طيه، و يشبه بعض الشبه قوله «تلاحق حتى كاد يأتي بطيئه» قولي من أبيات يجي‏ء ذكرها بمشيئة اللَّه تعالى:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| سبق احتراسي من أذاه بطيئه‏ |  | حتى تجللني فكيف عجوله‏ |
|  |  |  |

و في البيت لمحة بعيدة من بيت البحتري و ليس بنظير له على التحقيق.

و معنى البيت الذي يخصني أدخل في الصحة و التحقيق، لأنني خبرت بأن بطي‏ء الشيب سبق و غلب احتراسي و حذري منه فكيف عجوله، و من سبقه البطي‏ء كيف لا يسبقه السريع. و البحتري قال: ان البطي‏ء كاد أن يسبق السريع، و هذا على ظاهره لا يصح، لأنه يجعل البطي‏ء هو السريع بل أسرع منه، لكن المعنى أنه متدارك متواتر فيكاد البطي‏ء له يسبق السريع. و هذا في غاية الملاحة.

ص: 160

و له أيضا من جملة قصيدة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| ردى على الصبي ان كنت فاعله‏ |  | ان الصبي ليس من شاني و لا اربى‏ |
| جاوزت حد الشباب النضر ملتفتا |  | الى بنات الصبي يركضن في طلبى‏ |
| و الشيب يهرب من جاري منيته‏ |  | و لا نجاء له في ذلك الهرب‏ |
| و المرء لو كانت الشعرى له وطنا |  | صبت عليه صروف الدهر من صبب‏ |
|  |  |  |

و هذا كلام مصقول مقبول عليه طلاوة غير مدفوعة و لا مجهولة. و الشيب يهرب من جاري منيته له نظائر سيجي‏ء التنبيه عليها بمشيئة اللَّه و عونه.

و له من ابتداء قصيدة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| لابس من شبيبة أم ناض‏ |  | و مليح من شيبة أم راض‏ |
| و إذا ما امتعضت من ولع الشيب‏ |  | برأسي لم يغن ذاك امتعاضى‏ |
| ليس يرضي عن الزمان مرو |  | فيه الا عن غفلة أو تغاضى‏ |
| و التوقي من الليالي و ان‏ |  | حالفن شيئا شبيهات المواضى‏ |
| ناكرت لمتي و ناكرت منها |  | سوء هذي الابدال و الاعواض‏ |
| شعرات اقصهن و يرجعن‏ |  | رجوع السهام في الأغراض‏ |
| و أبت تركي الغديات و الآصال‏ |  | حتى خضبت بالمقراض‏ |
| غير نفع الا التعلل من شخص‏ |  | عدو لم يعده ابغاضى‏ |
| و رواء المشيب كالنحض في عيني‏ |  | فقل فيه في العيون المراض‏ |
| طبت نفسا عن الشباب و ما سود |  | من صبغ برده الفضفاض‏ |
| فهل الحادثات يا ابن عويف‏ |  | تاركاتى و لبس هذا البياض‏ |
|  |  |  |

قوله «خضبت بالمقراض» في غاية الملاحة و الرشاقة.

ص: 161

و معنى قوله‏

|  |
| --- |
| رجوع السهام في الأغراض‏ |

انه لا يملك ردا لطلوع الشيب في شعره و لا تلافيا لحلوله، فيجري في ذلك مجرى رجوع السهام الى الغرض في أنه لا يملك مرسل السهم صده عنه و لا رده عن اصابته.

و يمكن في ذلك وجه آخر و ان كان الأول أشف، و هو أن يريد بالأغراض المقاتل و المواضع الشريفة من الأعضاء، فكأنه يشبه رجوع الشيب بعد قصه له و طلوعه في شدة إيلامه و ايجاعه بإصابة السهام للمقاتل و الفرائص.

و يحتمل وجها آخر، و هو أن السهام تنزع من الأغراض ثم ترجع بالرمي إليها أبدا. فأشبهت في ذلك الشيب في قصة ثم طلوعه و رجوعه الى مواضعه.

و نظير قوله «فهل الحادثات يا ابن عويف» البيت قوله من قصيدة أخرى:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| يعيب الغانيات علي شيبى‏ |  | و من لي ان أمتع بالمعيب‏ |
|  |  |  |

و له من قصيدة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و ما أنس لا أنس عهد الشباب‏ |  | و علوة إذ عيرتني الكبر |
| كواكب شيب علقن الصبي‏ |  | فقللن من حسنه ما كثر |
| و اني وجدت فلا تكذبن‏ |  | سواد الهوى في بياض الشعر |
| و لا بد من ترك احدى اثنتين‏ |  | اما الشباب و اما العمر |
|  |  |  |

و وجدنا لأبي القاسم الآمدي زلة في البيت الأخير من هذه الأبيات قد نبهنا عليها في كتاب الغرر، و نحن نذكرها هاهنا فان الموضع يليق بذكرها، قال الآمدي:

على البحتري في قوله «و لا بد من ترك احدى اثنتين» معارضة، و هو أن يقال:

ان من مات شابا و قد فارق الشباب و قد فاته العمر أيضا فهو تارك لهما، و من شاب‏

ص: 162

فقد فارق الشباب و هو مفارق للعمر لا محالة، فهو أيضا تارك لهما جميعا. و قوله «اما و اما» لا يوجب إلا أحدهما.

ثم قال: و العذر للبحتري أن من مات شابا فقد فارق الشباب وحده لأنه لم يعمر فيكون مفارقا للعمر. أ لا ترى أنهم يقولون «عمر فلان» إذا أسن، و فلان لم يعمر إذا مات شابا، و من شاب و عمر لم يكن مفارقا للشباب في حال موته، لأنه قد قطع أيام الشباب و تقدمت مفارقته له، و انما يكون في حال موته مفارقا للعمر وحده. فإلى هذا ذهب البحتري، و هو صحيح، و لم يرد بالعمر المدة القصيرة التي يعمرها الإنسان، و انما أراد بالعمر هاهنا الكبر كما قال زهير:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| رأيت المنايا خبط عشواء من نصب‏ |  | تمته و من تخطئ يعمر فيهرم‏ |
|  |  |  |

و لم يرد البحتري ما توهمه الامدي، و انما أراد أن الإنسان بين حالين: اما أن يفارق الشباب بالشيب و العمر بالموت، فمن مات شابا فإنما فارق العمر و فارق بفراقه سائر أحوال الحياة من شباب و شيب و غيرهما، فلم يفارق الشباب وحده بلا واسطة، و انما فارق العمر الذي فارق بمفارقته الشباب و غيره. و قسمة البحتري تناولت أحد أمرين: اما مفارقة الشباب وحده بلا واسطة و لن يكون الا بالشيب أو مفارقة العمر بالموت.

و تقدير كلامه: لا بد للحي منا من مشيب أو موت، لأن الشيب و الموت يتعاقبان عليه. و انما أقام البحتري قوله «العمر» مقام قوله «الحياة و البقاء»، و عدل الى لفظة العمر لأجل القافية، و لو قال: لا بد من ترك الشباب أو ترك الحياة لقام مقام قوله العمر.

فأما اعتراضه بمن مات شيخا و انه قد فارق العمر و الشباب جميعا. فليس بشي‏ء، لأن هذا ما فارق الا العمر دون الشباب، لأن الشباب قد تقدمت مفارقته له‏

ص: 163

و قد خرج بالشيب عن حال الشباب فلم يفارق الا العمر وحده. و البحتري انما وجهت قسمته الى من كانت له الحالتان جميعا من شباب و حياة، فقال: لا بد أن يفارق الشباب بالشيب أو العمر بالموت. فأي اعتراض بمن هو على إحدى الحالتين دون الأخرى؟

فأما اعتذار الامدي للبحتري بأن من مات شابا ما فارق العمر و انما فارق الشباب وحده من حيث لم يطل عمره و لم يقل فيه معمر. فغلط فاحش، لأن اسم العمر يتناول أيام الشباب كما يتناول ما زاد عليها، و لهذا يقولون في الشاب و الصبي لم يطل عمرة أو كان عمره قصيرا، فاسم العمر يتناول الطويل و القصير من الزمان حياة أحدنا. و انما لا يقال في من عاش طرفة عين أن له عمرا، لأن المتعارف من استعمال هذه اللفظة فيما تستمر الحياة له ضربا من الاستمرار قصر أو طال.

و ليس يجري قولهم عمر و معمر مجرى قولهم له عمر، لأن لفظة عمر و ما أشبهها تفيد التطاول و لا تكاد تستعمل إلا في السن، لأنها تفيد من حيث التشديد التأكيد و الزيادة في العمر، و لفظة عمر بخلاف ذلك لأنها تستعمل في الطويل و القصير. و نظائر هذا البيت في معناه يجي‏ء ذكرها عند الانتهاء الى ما خرجته من شعري في الشيب.

و له من قصيدة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| يعيب الغانيات علي شيبي‏ |  | و من لي أن أمتع بالمعيب‏ |
| و وجدي بالشباب و ان تقضى‏ |  | حميدا دون وجدي بالمشيب‏ |
|  |  |  |

انما جعل وجده بالشباب أقل من وجده بالمشيب، لأنه يفارق الشباب بالشيب و صاحب الشيب في قيد الحياة على كل و لا يفارق الشيب الا بالموت، فالإيثار لمقامه أقوى.

ص: 164

و له من قصيدة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| أعداؤه كانت و من عجب الهوى‏ |  | ان يصطفي فيه العدو حبيبا |
| أم وصلة صرفت فعادت هجرة |  | ان عاد ريعان الشباب مشيبا |
| أ رأيته من بعد حفل فاحم‏ |  | جون المفارق بالنهار خضيبا |
| فعجبت من حالين خالف منهما |  | ريب الزمان و ما رأيت عجيبا |
| ان الزمان إذا تتابع خطوه‏ |  | سبق الطلوب و أدرك المطلوبا |
|  |  |  |

أراد بقوله «جون المفارق» أي هو أبيض المفارق، و لهذا قال: بالنهار خضيبا.

و له من قصيدة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| رأت فلتات الشيب فابتسمت لها |  | و قالت نجوم لو طلعن بأسعد |
| أ عاتك ما كان الشباب مقربي‏ |  | إليك فالحي الشيب إذ كان مسعدى‏ |
| تزيدين هجرا كلما ازددت لوعة |  | طلابا لان أردى فها انا ذا رد |
| متى أدرك العيش الذي فات آنفا |  | إذا كان يومي فيك أحسن من غدي‏ |
|  |  |  |

و وجدت الامدي يقول هاهنا بعد استحسانه هذه الأبيات: و هي لعمري في غاية الحلاوة و الطلاوة، و ان معنى تبسمت أنها استهزأت. قال: و بهذا جرت عادة النساء أن يضحكن من الشيب و يستهزئن لا أن يبكين كما قال أبو تمام و لم يقنع الا ببكاء الدم.

و هذه عصبية شديدة من الامدي على أبي تمام و غمط لمحاسنه، و النساء قد يستهزئن تارة بالشيب و يبكين أخرى لحلوله على حسب أحوالهن مع ذي الشيب،

ص: 165

فان كن عنه معرضات و له غير محبات استهزأن بشيبه، و ان كن له وامقات و عليه مشفقات يبكين لحلول شيبه، لفوت تمتعهن بشبابه و تلهفا على ما مضى من زمانه.

فأما قوله «لو طلعن بأسعد» فإنما تمنى ذلك و تلهف عليه، كما قال في موضع آخر:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و تعجبت من لوعتي فتبسمت‏ |  | عن واضحات لو لثمن عذاب‏ |
|  |  |  |

و لم يجعل ذلك شرطا في انهن عذاب واضحات كما لم يجعل تشبيه الشيب بالنجوم مشروطا بطلوع السعود، و انما تمنى ذلك و تلهف عليه، أو لأنه حكى عن محبوبته أنها شبهت الشيب بالنجوم على سبيل التهجين له و الإزراء عليه إرادة أن تسلب الشيب فضيلة النجوم و انه أشبهها منظرا فما أشبهها فضلا و منفعة فقالت لو طلعن بأسعد أي طلوع الشيب بضد السعادة، و ان كان طلوع النجوم قد يكون بالسعد و هذا تدقيق مليح و تصرف قوي.

و له من قصيدة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| عنت كبدي قسوة منك ما ان‏ |  | تزال تجدد فيه ندوبا |
| و حملت عندك ذنب المشيب‏ |  | حتى كأني ابتدعت المشيبا |
| و من يطلع شرف الأربعين‏ |  | يلاق من الشيب زورا غريبا |
|  |  |  |

و له من قصيدة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و قد دعا ناهيا فأسمعني‏ |  | و خط على الرأس مخلص شعره‏ |
| شيب أرتني الأسى أوائله‏ |  | فليت شعري ما ذا ترى آخره‏ |
|  |  |  |

ص: 166

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| صغر قدري في الغانيات و ما |  | صغر صبا تصغيره كبره‏ |
|  |  |  |

و له من قصيدة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| أ يثني الشباب اما تولى‏ |  | منه في الدهر دولة ما تعود |
| لا أرى العيش و المفارق بيض‏ |  | أسوة العيش و المفارق سود |
| و أعد الشقي حدا و لو |  | أعطيت غنما حتى يقال سعيد |
| من عدته العيون فانصرفت‏ |  | عنه الفتاتا الى سواه الخدود |
|  |  |  |

و له أيضا:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| راعني ما يروع من وافد |  | الشيب طروقا و رابني ما يريب‏ |
| شعرات سود إذا حلن بيضا |  | حال عن وصله المحب الحبيب‏ |
| مر بعد الشباب ما كان يحلو |  | مجتناه من عيشنا و يطيب‏ |
|  |  |  |

و له أيضا:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| أجدك ما وصل الغواني بمطمع‏ |  | و لا القلب من رق الغواني بمعتق‏ |
| وددت بياض السيف يوم لقيتني‏ |  | مكان بياض الشيب كان بمفرقي‏ |
|  |  |  |

و له أيضا:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| عمر الغواني لقد بين من كثب‏ |  | هضيمة في محب غير محبوب‏ |
|  |  |  |

ص: 167

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| إذا مددن الى إعراضه سببا |  | وقين من كرهه الشبان بالشيب‏ |
|  |  |  |

و له أيضا:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| خلياه وجدة اللهو ما دام‏ |  | رداء الشباب غضا جديدا |
| أن أيامه من البيض بيض‏ |  | ما رأين المفارق السود سودا |
|  |  |  |

و له أيضا:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| فدك منى فما جوى السقم إلا |  | في ضلوع على جوى الحب تحني‏ |
| لو رأت حادث الخضاب لأنت‏ |  | و أرنت من احمرار اليرنا |
| كلف البيض بالمعمر قدرا |  | حين يكلفن و المصغر سنا |
| يتشاغفن بالغرير المسمى‏ |  | عن تصاب دون الخليل المكنى‏ |
|  |  |  |

و له أيضا:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| ترك السواد للابسيه و بيضا |  | و نضا من السنين عنه ما نضا |
| و شآه اغيد في تصرف لحظه‏ |  | مرض اعل به القلوب و امرضا |
| و كأنه وجد الصبي و جديده‏ |  | دينا دنا ميقاته أن يقتضي‏ |
| اسيان أثرى من جوى و صبابة |  | و إساف من وصل الحسان و انقضا |
|  |  |  |

الأسيان و الأسوان الحزين، و معنى إساف ذهب ماله، و كذلك انفض. و جعلهما البحتري هاهنا في من ذهب من يده وصل الحسان و ميلهن اليه.

ص: 168

و له أيضا:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| أخي ان الصبي استمر به‏ |  | سير الليالي فانهجت برده‏ |
| تصد عني الحسان مبعدة |  | إذ انا لا تربه و لا صدده‏ |
| شيب على المفرقين بأرضه‏ |  | يكثرنى ان أبينه عدده‏ |
| تطلب عندي الشباب ظالمة |  | بعيد خمسين حين لا تجده‏ |
| لا عجب ان نقلت خلتنا |  | فافتقد الوصل منك مفتقده‏ |
| من يتطاول على مطاولة |  | العيش تقعقع من ملة عمده‏ |
|  |  |  |

و قد نبهنا في كتاب الغرر على هفوة الامدي في قول البحتري «تقعقع من ملة عمده»، لأنه ظن أن معناه أن عظام الكبير المسن يجي‏ء لها صوت إذا قام و قعد و تسمع لها قعقعة. و ما سمعنا بهذا الذي ظنه في وصف ذوي الأسنان و الكبر.

و المعنى أظهر من أن يخفى على أحد، لأنه أراد من عمر و أسن و طاول العيش تعجل رحيله و انتقاله عن الدنيا. و كنى عن ذلك بتقعقع العمد، لأن ذوي الأطناب و الخيام إذا انتقلوا من محل الى غيره و قوضوا عمد خيامهم و سارت بها الإبل سمعت لها قعقعة.

و من أمثال العرب المعروفة «من يتجمع تتقعقع عمده»، يريدون أن التجمع يعقب التفرق و الرحيل الذي تتقعقع معه العمد.

و معنى قوله «من ملة» يريد من السأم و الملال، دون ما ظنه الامدي من أنه تملي العيش.

و له أيضا

ص: 169

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| أقول للمتى إذ أسرعت بي‏ |  | إلى الشيب اخسرى فيه و خيبي‏ |
| مخالفة بضرب بعد ضرب‏ |  | و ما انا و اختلافات الضروب‏ |
| و كان جديدها فيها غريبا |  | فصار قديمها حق الغريب‏ |
|  |  |  |

و له أيضا:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| هل أنت صارف شبة ان غلست‏ |  | في الوقت أو عجلت عن الميعاد |
| جاءت مقدمة امام طوالع‏ |  | هذي تراوحني و تلك تغادى‏ |
| و أخو الغبينة تاجر في لمة |  | يشري جديد بياضها بسواد |
| لا تكذبن فما الصبي بمخلف‏ |  | لهوا و لا زمن الصبي بمعاد |
| و ارى الشباب على غضارة حسنه‏ |  | و جماله عددا من الاعداد |
|  |  |  |

و وجدت الامدي قد نزل في معنى قوله‏

|  |
| --- |
| يشري جديد بياضها بسواد |

، لأنه قال: معنى يشري يبيع، و أراد أن الغبين من باع جديد بياضه بالسواد، و أراد بالسواد الخضاب، فكأنه ذم الخضاب.

و الأمر بخلاف ما ذكره، و ما جرى للخضاب ذكر و لا هاهنا موضع للكناية عنه. و معنى يشري هاهنا يبتاع، لأن قولهم «شريت» يستعمل في البائع و المبتاع جميعا. و هذا من الأضداد، نص أهل اللغة على هذا في كتبهم. فكأنه شهد بالغين لمن يبتاع الشيب بالشباب و يتعوض عنه به.

و انما ذهب على الامدي أن لفظة «يشري» تقع على الأمرين المضادين، فتمحل ذكر الخضاب الذي لا معنى له هاهنا.

و قال الامدي في قوله «عددا من الأعداد» أنه أراد عددا قليلا. و قد أصاب في ذلك، الا انه ما ذكر شاهده و وجهه، و العرب تقول في الشي‏ء القليل أنه معدود

ص: 170

إذا أرادوا الأخبار عن قلته، قال اللَّه تعالى‏ «وَ شَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَراهِمَ مَعْدُودَةٍ»[[109]](#footnote-109)) و قال جل اسمه في موضع آخر «وَ اذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُوداتٍ»[[110]](#footnote-110)). و أظنهم ذهبوا في وصف القليل بأنه معدود من حيث كان العد و الحصر لا يقع الا على القليل و الكثير لكثرته لا ينضبط و لا ينحصر.

و له أيضا:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| ما كان شوقي ببدع يوم ذاك و لا |  | دمعي بأول دمع في الهوى سفحا |
| و لمة كنت مشغوفا بجدتها |  | فما عفا الشيب لي عنها و لا صفحا |
|  |  |  |

هذا و اللَّه هو الكلام الحلو المذاق السليم من كل كلفة البري‏ء من كل غفلة و خلسة و له أيضا:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| قالت الشيب أتى قلت أجل‏ |  | سبق الوقت ضرارا و عجل‏ |
| و مع الشيب على علاته‏ |  | مهلة للهو حينا و الغزل‏ |
| خيلت أن التصابي خرق‏ |  | بعد خمسين و من يسمع يخل‏ |
|  |  |  |

و له أيضا:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| تزيدني الأيام مغبوط عيشة |  | فينقصني نقص الليالي مرورها |
| و ألحقنى بالشيب في عقر داره‏ |  | مناقل في عرض الشباب أسيرها |
|  |  |  |

ص: 171

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| مضت في سواد الشعر اولى بطالتى‏ |  | فدعني يصاحب و خط شيبى أخيرها |
|  |  |  |

المناقل المراحل، و وجدت الامدي يفسر البيت الأول من هذه القطعة فيقول:

أراد أن الأيام زادتنى شيئا من غبطة العيش اجتمعت مع الليالي على انتقاصه و ارتجاعه.

و غير هذا التأويل الذي ذكره أولى منه، و هو أن يكون المراد أن الأيام إذا زادتنى غبطة في العيش نقصني ذلك مرورها، و يريد بقوله «نقص الليالي» كما تنقص الأيام من الليالي، لأن الأيام تأخذ الليالي و تنقصها. و هذا التأويل أشبه بالصواب من تأويله.

فإن قيل: كما تأخذ الأيام من الليالي كذلك الليالي تأخذ من الأيام و تنقصها.

قلنا: هذا صحيح، و لو قال قائل في غير هذا الموضع في من نقص و ثلم انه منقوص النقص في هذا نقص الليالي من الأيام لجاز، و انما أضاف النقص في هذا الموضع الى مرور الأيام، لأنه أضاف الزيادة إليها و شبه نقصها له بنقصها لليالي.

و له أيضا:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| كلف يكفكف عبرة مهراقة |  | أسفا على عهد الشباب و ما انقضى‏ |
| عدد تكامل للذهاب مجيئه‏ |  | و إذا مجي‏ء الشيب حان فقد مضى‏ |
| خفض عليك من الهموم فإنما |  | يحظى براحة دهره من خفضا |
|  |  |  |

قال الامدي في قوله «و ما انقضى» أنه أراد و انقضائه، لأن ما و الفعل بمنزلة المصدر، مثل قولك «سرني ما عمل زيد» أي سرني عمله.

ثم قال: و يجوز أن يكون أراد بقوله «و ما انقضى» أي لم ينقض بعد.

ص: 172

قال: و هذا أجود، لأنه قال «و إذا مضى الشي‏ء حان فقد مضى»، فدل على أنه في بقية من الشباب.

و الوجه الأول الذي ذكره بعيد من الصواب لا يجوز أن يكون الشاعر عناه و لا اراده، و انما خبر أنه متلهف متأسف على عهد الشباب قبل مفارقته و خوفا من فوته، فالكلام كله دال على ذلك.

و له أيضا:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| خلق العيش في المشيب و ان‏ |  | كان نضيرا في الشباب جديده‏ |
| ليت ان الأيام قام عليها |  | من إذا ما انقضى زمان يعيده‏ |
| و لو أن البقاء يختار فينا |  | كان ما تهدم الليالي تشيده‏ |
| شيبتني الخطوب الا بقايا |  | من شباب لم يبق الا شريده‏ |
| لا تنقب عن الصبي فخليق‏ |  | ان طلبناه أن يعز وجوده‏ |
|  |  |  |

و له أيضا:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| أواخر العيش أخبار مكدرة |  | و أقرب العيش من لهو أوائله‏ |
| يحرى الشباب إذا ما تم تكملة |  | و الشي‏ء ينفده نقصا تكامله‏ |
| و يعقب المرء برءا من صبابته‏ |  | تجرم العام يمضي ثم قابله‏ |
| ان فر من عنت الأيام حازمها |  | فالحزم فرك ممن لا تقاتله‏ |
| و ان اراب صديق في الوداد فلم‏ |  | أمسيت احذر ما أصبحت آمله‏ |
|  |  |  |

و هذه الأبيات تصلح أن تكون لأبي تمام، لقربها من طريقته و ظهور الصنعة

ص: 173

فيها و التكلف، و ان كانت في حيز الجودة و الرصافة و الوثاقة.

و قوله «يحرى الشباب» معناه ينقص، يقال حرى الشي‏ء يحرى حريا إذا نقص و أحراه الزمان، و يقال للأفعى حارية، و هي التي كبرت و نقص جسمها، و ذلك أخبث لها.

و قال أيضا:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| أما الشباب فقد سبقت بقضه‏ |  | و حططت رحلك مسرعا عن نقضه‏ |
| و أفاق مشتاق و اقصر عاذل‏ |  | أرضاه فيك الشيب إذ لم ترضه‏ |
| شعر صحبت الدهر حتى جازني‏ |  | مسودة الأقصى الى مبيضة |
| فعلى الصبي الان السلام و لوعة |  | تثنى عليه الدمع في مرفضه‏ |
| و ليفن تفاح الخدود فلست من‏ |  | تقبيله غزلا و لا من عضه‏ |
|  |  |  |

و له أيضا:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و صال سقاني الخبل صرفا و لم يكن‏ |  | ليبلغ ما أدت عقابيله الهجر |
| و باقي شباب في مشيب مغلب‏ |  | عليه اختناء اليوم يكثره الشهر |
| و ليس طليقا من تروح أو غدا |  | يسوم التصابي و المشيب له أسر |
| تطاوحنى العصران في رجويهما |  | يسيبني عصر و يعلقني عصر |
| متاع من الدنيا استبد بجدتي‏ |  | و أعظم جرم الدهر أن يمنع الدهر |
|  |  |  |

أما قوله «اختناء اليوم» فالاختناء عندهم هو الاستحياء و الانخزال، و اليوم ينخزل من مكاثرة الشهر لقصوره عنه.

ص: 174

و هذه الأبيات أيضا فيها أدنى تكلف، و ان كانت جيدة المعاني وثيقة المباني.

و له أيضا:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| تقضى الصبي ان لا ملام لراحل‏ |  | و اغنى المشيب عن كلام العواذل‏ |
| و تأبى صروف الدهر سودا شخوصها |  | على البيض ان يحظين منه بطائل‏ |
| تحاولن عندي صبوة و اخالنى‏ |  | على شغل مما يحاولن شاغل‏ |
| رمي رزايا صائبات كأننى‏ |  | لما اشتكى منها رمي جنادل‏ |
|  |  |  |

و هذه الأبيات لها ما شاءت من جزالة و فصاحة و ملاحة.

و له أيضا:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| في الشيب زجر له لو كان ينزجر |  | و بالغ منه لو لا أنه حجر |
| أبيض ما اسود من فوديه و ارتجعت‏ |  | جلية الصبح ما قد أغفل السحر |
| و للفتى مهلة في العيش واسعة |  | ما لم يمت في نواحي رأسه الشعر |
|  |  |  |

قال الامدي: قوله‏

|  |
| --- |
| ارتجعت جلية الصبح ما قد أغفل السحر |

قريب من قوله:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| تزيدني الأيام مغبوط عيشة |  | فينقصني نقص الليالي مرورها |
|  |  |  |

و نقول: ان الأمر بخلاف ما ظنه، و لا نسبة بين الموضعين، لأن أحد البيتين تضمن أن الذي يزيده هو الذي ينقصه، و البيت الأخر تضمن أن الصبح ارتجع بوضوحه و جليته ما أغفله السحر و تركه من السواد الرقيق اليسير، فالمرتجع غير المعطى هاهنا.

ص: 175

و له أيضا:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| رب عيش لنا برامة رطب‏ |  | و ليال فيها طوال قصار |
| قبل أن يقبل المشيب و تبدو |  | هفوات الشباب في الإدبار |
| كل عذر من كل ذنب و لكن‏ |  | أعوز العذر من بياض العذار |
| كان حلوا هذا الهوى فأراه‏ |  | صار مرا و السكر قبل الخمار |
|  |  |  |

معنى قوله «طوال قصار» انهن طوال في أنفسهن و ان كن قصارا ببلوغ الأماني فيهن و الظفر بالمحبوبات و نيل المطلوبات.

و قوله‏

|  |
| --- |
| كل عذر من كل ذنب‏ |

يريد به ان العذر معتاد في الذنوب كلها الا من الشيب.

فان قيل: فقد سمى الشيب ذنبا و جعله من جملة الذنوب، و ليس بذنب على التحقيق.

قلنا: انما سماه ذنبا تجوزا و استعارة، لأن النساء يستذنبن به و يؤاخذن بحلوله و نزوله و ان لم يكن على الحقيقة ذنبا، و من حيث لم يك ذنبا لم يكن عنه اعتذار و لا تنصل.

و له أيضا:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| عيرتني المشيب و هي برته‏ |  | في عذاري بالصد و الاجتناب‏ |
| لا تريه عارا فما هو بالشيب‏ |  | و لكنه جلاء الشباب‏ |
| و بياض البازي أصدق حسنا |  | لو تأملت من سواد الغراب‏ |
|  |  |  |

ص: 176

و له أيضا:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| ها هو الشيب لائما فأفيقى‏ |  | و اتركيه ان كان غير مفيق‏ |
| فلقد كف من عناء المعنى‏ |  | و تلافى من اشتياق المشوق‏ |
| عذلتنا في عشقها أم عمرو |  | هل سمعتم بالعاذل المعشوق‏ |
| و رأت لمة ألم بها الشيب‏ |  | فريعت من ظلمة في شروق‏ |
| و لعمري لو لا الاقاحى لأبصرت‏ |  | أنيق الرياض غير أنيق‏ |
| و سواد العيون لو لم يكمل‏ |  | ببياض ما كان بالموموق‏ |
| و مزاج الصهباء بالماء أملا |  | بصبوح مستحسن و غبوق‏ |
| اي ليل يبهى بغير نجوم‏ |  | أو سماء تندى بغير بروق‏ |
|  |  |  |

قال الامدي: أخذ قوله‏

|  |
| --- |
| أي ليل يبهى بغير نجوم‏ |

من قول الشاعر:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| أشيب و لم اقض الشباب حقوقه‏ |  | و لم يمض من عهد الشباب قديم‏ |
| تفاريق شيب في السواد لوامع‏ |  | و ما خير ليل ليس فيه نجوم‏ |
|  |  |  |

و قد قلنا: انه لا ينبغي أن يقال أخذ فلان كذا من فلان، و انما يقال في البيتين انهما يتشابهان و يتشاكلان و ان هذا نظير ذاك و يزاد على ذلك. و يشبه قول البحتري:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و لعمري لو لا الافاحى لأبصرت‏ |  | أنيق الرياض غير أنيق‏ |
|  |  |  |

قول الشاعر:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| لا يرعك المشيب يا ابنة |  | عبد اللَّه فالشيب حلية و وقار |
| انما تحسن الرياض إذا ما |  | ضحكت في خلالها الأنوار |
|  |  |  |

ص: 177

و قد شبهت الشعراء الشيب بالنجوم و بالنور، و هو طريق مسلوك معهود، فمن محسن في العبارة و مسي‏ء و مستوف و مقصر، و سأنبه على ذلك و على ما يحضرني فيه عند الانتهاء الى ما أذكره من شعري بمشيئة اللَّه و عونه.

و له أيضا:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| فإن ست و ستون استقلت‏ |  | فقد كرت بطلعتها الخطوب‏ |
| لقد سر الاعادي في انى‏ |  | برأس العين محزون كئيب‏ |
| و انى اليوم عن وطني شريد |  | بلا جرم و من مالي حريب‏ |
| تعاظمت الحوادث حول حظي‏ |  | و شبت دون بغيتي الحروب‏ |
| على حين استتم الوهن عظمي‏ |  | و اعطى في ما احتكم المشيب‏ |
|  |  |  |

و له أيضا:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| قنعت على كره و طأطأت ناظري‏ |  | الى رنق مطروق من العيش حشرج‏ |
| و جلجلت في قولي و كنت متى أقل‏ |  | بمسمعة في مجمع لا الحلج‏ |
| يظن العدي انى فنيت و انما |  | هي السن في برد من العيش منهج‏ |
| نضوت الصبي نضو الرداء و ساءني‏ |  | مضي أخي أمس متى يمض لا يجئ‏ |
|  |  |  |

و له أيضا:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و معيري بالدهر يعلم في غد |  | ان الحصاد وراء كل نبات‏ |
| ابني اني قد نضوت بطالتى‏ |  | فتحسرت و صحوت من سكراتى‏ |
|  |  |  |

ص: 178

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| نظرت إلى الأربعون فأضرجت‏ |  | شيبى و هزت للحنو قناتي‏ |
| و أرى لدات أبي تتابع كثرهم‏ |  | فمضوا و كر الدهر نحو لداتي‏ |
| و من الأقارب من يسر بميتتي‏ |  | سفها و عز حياتهم بحياتي‏ |
|  |  |  |

و أحسن كل الإحسان في هذا الكلام العذب الرطب مع متانة و جزالة، و لقوله‏

|  |
| --- |
| فأضرجت شيبى و هزت للحنو قناتي‏ |

الحظ الجزيل من فصاحة و ملاحة.

(مضى ما للبحتري) و هذا ما أخرجته لأخي الرضي رضى اللَّه عنه في الشيب قال رضي اللَّه عنه و هو ابتداء قصيدة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| دوام الهوى في ضمان الشباب‏ |  | و ما الحب الا زمان التصابي‏ |
| أ حين فشا الشيب في شعره‏ |  | و كتم أوضاحه بالخضاب‏ |
| تروعين أوقاته بالصدود |  | و ترمين أيامه بالسباب‏ |
| تخطى المشيب الى رأسه‏ |  | و قد كان أعلى قباب الشباب‏ |
| كذاك الرياح إذا استلأمت‏ |  | تقصف أعلى الغصون الرطاب‏ |
| مشيب كما استل صدر الحسام‏ |  | لم يرو من لبثه في القراب‏ |
| نضى فاستباح حمى الملهيات‏ |  | و راع الغواني بظفر و ناب‏ |
| و ألوى بجدة أيامه‏ |  | فأصبح مقذى لعين الكعاب‏ |
| تستر منه مجال السوار إذا |  | ما بدا و مناط النقاب‏ |
|  |  |  |

قوله‏

|  |
| --- |
| لم يرو من لبثه في القراب‏ |

استعارة مليحة، و انما أشار الى أن الشيب عجل على سوادة في غير حينه و أبانه، لأنه لما شبه طلوع الشيب بسله السيف أراد أن يبين مع هذا التشبيه سرعة وفوده في غير وقته، فقال‏

|  |
| --- |
| لم يرو من لبثه في القراب‏ |

ص: 179

تحقيقا للمعنى الذي ذكرناه.

و له هو ابتداء قصيدة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| مسيري في ليل الشباب ضلال‏ |  | و شيبي ضياء في الورى و جمال‏ |
| سواد و لكن البياض سيادة |  | و ليل و لكن النهار جلال‏ |
| و ما المرء قبل الشيب الا مهند |  | صدي و شيب العارضين صقال‏ |
| و ليس خضاب الرأس إلا تعلة |  | لمن شاب منه عارض و قذال‏ |
|  |  |  |

و له من جملة قصيدة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| ضاع الشباب فقل لي أين أطلبه‏ |  | و أزور عن نظري البيض الرعاديد |
| و جرد الشيب في فودي أبيضه‏ |  | يا ليته في سواد الشعر مغمود |
| بيض و سود برأسي لا يسلطها |  | على الذوائب الا البيض و السود |
|  |  |  |

و له و هو ابتداء قصيدة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| لون الشبيبة أنصل الألوان‏ |  | و الشيب جل عمائم الفتيان‏ |
| نبت بأعلى الرأس يرعاه الردى‏ |  | رعى المطي منابت الغيطان‏ |
| الشيب أحسن غير أن غضارة |  | للمرء في ورق الشباب الإني‏ |
| و كذا بياض الناظرين و انما |  | بسوادها تتأمل العينان‏ |
|  |  |  |

ص: 180

و له من قصيدة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| تنفس في رأسي بياض كأنه‏ |  | صقال ترامى في النصول الذوالق‏ |
| و ما جزعي ان حال لون و انما |  | ارى الشيب عضبا قاطعا حبل عاتقي‏ |
| فما لي أذم الغادرين و انما |  | شبابي اوفى غادر بي و ماذق‏ |
| تعيرني شيبي كأني ابتدعته‏ |  | و من لي ان يبقى بياض المفارق‏ |
| و ان وراء الشيب ما لا أجوزه‏ |  | بعائقة تنسى جميع العوائق‏ |
| و ليس نهار الشيب عندي بمزمع‏ |  | رجوعا الى ليل الشباب الغرانق‏ |
|  |  |  |

نظير قوله‏

|  |
| --- |
| و من لي ان يبقى بياض المفارق‏ |

قول البحتري‏

|  |
| --- |
| و من لي ان أمتع بالمعيب‏ |

، و أحسن مسلم بن الوليد في قوله:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| الشيب كره و كره أن يفارقني‏ |  | أعجب بشي‏ء على البغضاء مردود |
| يمضي الشباب و يأتي بعده خلف‏ |  | و الشيب يذهب مفقودا بمفقود |
|  |  |  |

و معنى قوله «مفقودا بمفقود» أي انه يمضى صاحبه معه و يفقد بفقده، و ليس كذلك الشباب. و معنى قوله‏

|  |
| --- |
| و ما جزعي ان حال لون‏ |

أي ليس في التغير ما أجزع له لكنني أرى الشيب كالسيف الذي يقطع حبل عاتقي. و هذا مع انه تشبيه للون الشيب بلون السيف، يفيد أن حلول الشيب به في قطع آماله و حسم لذاته و تغيير أحواله يجري مجرى قطع السيف لحبل عاتقه، و قد أحسن كل الإحسان في هذه الأبيات، فما أجود سبكها و أسلم لفظها و أصح معانيها.

و له من جملة قصيدة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و لي الشباب و هذا الشيب طارده‏ |  | يفدي الطريدة ذاك الطارد العجل‏ |
|  |  |  |

ص: 181

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| ما نازل الشيب في رأسي بمرتحل‏ |  | عني و أعلم انى عنه مرتحل‏ |
| من لم يعظه بياض الشعر أدركه‏ |  | في غرة حتفه المقدور و الأجل‏ |
| من اخطأته سهام الموت قيده‏ |  | طول السنين فلا لهو و لا جذل‏ |
|  |  |  |

و له و هو أول قصيدة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| اراعى بلوغ الشيب و الشيب دائبا |  | و أفنى الليالي و الليالي فنائيا |
| تلون رأسي و الرجاء بحاله‏ |  | و في كل حال لا يغب الأمانيا |
|  |  |  |

و منها:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و عارية الأيام عندي شبيبة |  | أساءت لها قبل الأوان التقاضيا |
| ارى الدهر غصابا لما ليس حقه‏ |  | فلا عجب ان يسترد العواريا |
| و ما شبت من طول السنين و انما |  | غبار حروب الدهر غطى سواديا |
| و ما انحط اولى الشعر حتى نعيته‏ |  | فبيض هم القلب باقي عذاريا |
|  |  |  |

و يشبه تشبيهه الشيب و إضافته ذلك الى حروب الدهر قول ابن المعتز:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| صدت شرير و أزمعت هجري‏ |  | و صغت ضمائرها الى الغدر |
| قالت كبرت و شبت قلت لها |  | هذا غبار وقائع الدهر |
|  |  |  |

و قال ابن الرومي:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| اطار غبار الشيب فوق مفارقي‏ |  | تلوى سني الراكضات إماميا |
|  |  |  |

و لأبي الجنوب:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| قالت أرى شيبا برأسك قلت لا |  | هذا غبار من غبار العسكر |
|  |  |  |

و قصر غاية التقصير عن ابن المعتز و ابن الرومي، لأنهما مع التشبيه للشيب‏

ص: 182

بالغبار في اللون أضافاه من وقائع الدهر و ركض السنين الى سبب لهذا الغبار و موجب، فعماده على كل حال سبب، و أبو الجنوب حصل على تشبيه اللون المحض الصرف، فزيادتهما عليه غير مجهولة.

و لي ما فيه بعض الشبه بما ذكرناه لكنه في وصف الإبل، و هو:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و يهززن عن داعي المراح مفارقا |  | بلا شمط الا بياض غبار |
|  |  |  |

فهذا البيت تضمن تشبيه بياض الغبار بالشمط، و لهذا حسن استثناؤه من الشمط من حيث أشبهه و ان لم يكن من جنسه. و ما تقدم لأخي رضي اللَّه عنه و لابن المعتز فيه تشبيه الشيب و بياضه بالغبار، و المعنى يتقارب، لأن الشي‏ء إذا أشبه غيره فذلك الغير مشبه له.

و أقسم قسما برة اني لما نظمت هذا البيت في وصف الإبل ما كنت سمعت قبله من أحد في نظم و لا نثر تشبيه الشيب بالغبار، و انما اتفق على سبيل التوارد لأن تشبيه هذا بذلك أمر مشاهد يجوز أن يقع لمن فكر من غير اتباع منه لغيره، و لهذا أنكر أبدا على من تقدم من العلماء فيقول أخذ فلان من فلان إذا وقفوا على متشابه بين معانيه.

و له من جملة قصيدة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| عقيب شباب المرء شيب يخصه‏ |  | إذا طال عمرا أو فناء يعمه‏ |
| طليعة شيب خلفها فيلق الردى‏ |  | برأسي له نقع و بالقلب كلمه‏ |
|  |  |  |

قوله «برأسي له نقع» مثل قوله «غبار حروب الدهر»، و ما ذكرناه من نظائره.

ص: 183

و معنى «شيب يخصه» أي يخص الشباب، فالهاء كناية عن الشباب.

و قوله «أو فناء يعمه» يعني يعلم المرء، فالهاء في يعمه كناية عن المرء نفسه.

و له و هو ابتداء قصيدة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| أ شوقا و ما زالت لهن قباب‏ |  | و ذكر تصاب و المشيب نقاب‏ |
| و غير التصابي للكبير تعلة |  | و غير الغواني للبياض صحاب‏ |
| و ما كل أيام المشيب مريرة |  | و لا كل أيام الشباب عذاب‏ |
| أؤمل ما لا يبلغ العمر بعضه‏ |  | كأن الذي بعد المشيب شباب‏ |
| و طعم لبازي الشيب لا شك مهجتي‏ |  | أسف على رأسي و طار غراب‏ |
| لداتك اما شبت و اتبعوا الردى‏ |  | جميعا و اما ان رديت و شابوا |
|  |  |  |

هذه الأبيات قوية مستوية مطبوعة الألفاظ بعيدة من التكلف، و البيت الأخير يتضمن قسمة عليها بعض الطعن، لأنه قد يشيب و لا تموت لداته بأن يشيبوا أيضا معه أو بعضهم، و كذلك قد يموت هو و يموت بعض لداته، فليس الواجب أنه متى شاب مات جميع لداته و لا أنه متى مات شاب جميعهم، و القسمة تقتضي تعاقب كل واحد من الأمرين و وجوب أحدهما، و قد بينا ان الأمر بخلاف ذلك، و القسمة الصحيحة هي قولي:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و الشيب ان فكرت فيه مورد |  | لا بد يورده الفتى ان عمرا |
|  |  |  |

و قولي:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| من عاش لم تجن عليه نوب‏ |  | شابت نواحي رأسه أو هرما |
|  |  |  |

و قولي‏

ص: 184

|  |
| --- |
| و من ضل عن أيدي الردى شاب مفرقا |

و له من أثناء قصيدة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| ألا أين ذاك الشباب الرطيب‏ |  | أم اين لي بيض اياميه‏ |
| مشى الدهر بيني و بين النعيم‏ |  | ظلما و غير من حالية |
| نظرت و ويل أمها نظرة |  | لبيضاء في عارضي بادية |
| يقولون راعية للشباب‏ |  | فقلت و لكنها ناعيه‏ |
|  |  |  |

و له و هو ابتداء قصيدة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| ما أبيض من لون العوارص أفضل‏ |  | و هوى الفتى ذاك البياض الأول‏ |
| مثلان ذا حرب الملام و ذا له‏ |  | سبب يعاون من يلوم و يعذل‏ |
| أرنو الى يقق المشيب فلا أرى‏ |  | الا قواضب للرقاب تسلل‏ |
| و اللمة البيضاء أهون حادث‏ |  | في الدهر لو أن الردى لا يعجل‏ |
| و لقد حملت شبابها و مشيبها |  | فإذا المشيب على الذوائب أثقل‏ |
|  |  |  |

تشبيه بياض الشيب ببياض السيوف يمضى كثيرا في الشعر و يتردد، فأما الاستثقال بحمل الشيب من أحسن ما قيل فيه قول علي بن جبلة و ربما رويت لدعبل بن علي الخزاعي:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| ألقى عصاه و أرخى من عمامته‏ |  | و قال ضيف فقلت الشيب قال أجل‏ |
| فقلت أخطأت دار الحي قال و لم‏ |  | مضت لك الأربعون الوفر ثم نزل‏ |
| فما شجيت بشي‏ء ما شجيت به‏ |  | كأنما اعتم منه مفرقي بحبل‏ |
|  |  |  |

ص: 185

و له من جملة قصيدة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| أرى شيبة في العارضين فيلتوى‏ |  | بقلبي حراها جوى و غليل‏ |
| و من عجب غضى من الشيب جازعا |  | و كرى إذا لف الرعيل رعيل‏ |
|  |  |  |

و له من أثناء قصيدة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| إذا ما الفتى لم يكسه الشيب عفة |  | فما الشيب الا سبة للأشايب‏ |
|  |  |  |

و له و هو ابتداء قصيدة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| ارابك من مشيب ما ارابا |  | و ما هذا البياض علي عابا |
| لئن أبغضت منى شيب رأسي‏ |  | فانى مبغض منك الشبابا |
| يذم البيض من جزع مشيبي‏ |  | و دل البيض أول ما أشابا |
| و كانت سكرة فصحوت عنها |  | و أنجب من ابى ذاك الشرابا |
|  |  |  |

يريد بقوله‏

|  |
| --- |
| فاني مبغض منك الشبابا |

انني قد عرفت و انصرفت عن الشغف بالنساء و هواهن فما أبالي بشبابهن و لا كبرهن و هما عندي سيان في الاعراض عنه، يدلك على ذلك البيت الأخير.

و له من جملة قصيدة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و قالوا الشيب زار فقلت أهلا |  | بنور ذوائب الغصن الرطيب‏ |
|  |  |  |

ص: 186

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و لم أك قبل وسمك لي محبا |  | فيبعدنى بياضك عن حبيبي‏ |
| و لا ستر الشباب علي عيبا |  | فأجزع ان تنم على عيوبي‏ |
| و لم اذمم طلوعك بي لشي‏ء |  | سوى قرب الطلوع الى شعوب‏ |
|  |  |  |

أما تشبيهه الشيب في بياضه بالنور فهو طريق مهيع و يجي‏ء في الشعر كثيرا، و قد نبهنا في ما مضى من شعر البحتري على شي‏ء منه، و ان كان هذا المعنى أكثر من أن يحصى.

فأما البيت الذي أوله.

|  |
| --- |
| و لم أك قبل وسمك لي محبا |

فيشبهه قول البحتري:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| أ عاتك ما كان الشباب مقربي‏ |  | إليك فالحي الشيب إذ كان مسعدي‏ |
|  |  |  |

من وجه و ان خالفه من آخر، و الوجه الذي كأنهما يشتبهان منه أن المشيب لم يزده بعدا من الغواني و انه على ما كان عليه في حال الشباب. و يختلفان من حيث صرح أخي رحمه اللَّه بأنه ما كان محبا تنزها و تصاونا، فاستوت فيه حال الشيب و الشباب، و البحتري ذكر أنه كان مبعدا مقصي في الحالين فلم يزده الشيب شيئا.

و قوله‏

|  |
| --- |
| و لا ستر الشباب علي عيبا |

البيت، في غاية حسن المعنى و اللفظ، و كأنه غريب، لأني لا أعرف إلى الان نظيره.

و له من جملة قصيدة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| فكيف بالعيش الرطيب بعد ما |  | حط المشيب رحله في شعري‏ |
| سواد رأس أم سواد ناظر |  | فإنه مذ زار اقذى بصري‏ |
| ما كان أضوأ ذلك الليل على‏ |  | سواد عطفيه و لما يقمر |
| عمر الفتى شبابه و انما |  | آونة الشيب انقضاء العمر |
|  |  |  |

ص: 187

نظير قوله رحمه اللَّه‏

|  |
| --- |
| ما كان أضوأ ذلك الليل من شعري‏ |

قولي:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| صدت و ما صدها الا على يأس‏ |  | من أن ترى صبغ فوديها على رأسي‏ |
| أحبب إليها بليل لا يضي‏ء لها |  | إلا إذا لم تسر فيه بمقباس‏ |
|  |  |  |

و المعنى في بيتي مشبه للمعنى في بيته رحمه اللَّه، و ان كان بينهما من الفرق ما إذا تؤمل عرف، و لا بد من الإشارة الى بعض ما افترقا فيه:

قوله رحمه اللَّه‏

|  |
| --- |
| ما كان أضوأ ذلك الليل علي‏ |

البيت، انما يفيد الاخبار عن ضوئه و ان لم يكن مقمرا، و لا يفيد أنه إذا كان مقمرا لا يكون مضيئا، لأنه غير ممتنع أن يكون مضيئا على الحالين. و البيت الذي لي يفيد أنه لا يضي‏ء لهذه المرأة إلا إذا لم يكن فيه مقباس، فأفاد نعي اصابته لها الا مع الظلام و فقد الأنوار كلها.

و هذا هو المعنى المقصود الذي يخالف العادة و يقتضي العجب.

و أيضا فإن البيت الذي تضمن أنه لا يضي‏ء لهذه الغانية إلا إذا لم يكن فيه مقباس، قد تضمن تحقيقا شديدا، لأن هذه الحال تختص بالغانيات اللواتي يكرهن الشيب و ينفرن منه. و البيت الأخير يتضمن الإطلاق للخبر عن إضاءة الليل من غير اقمار، و الإطلاق على ظاهره لا يصح، لأن سواد الشعر المشبه بسواد الليل يضي‏ء في أعين كل الناس إذا كان فيه الشيب بلون القمر، و انما لا يضي‏ء في أعين النساء خاصة لنفورهن من الشيب، فلا بد من أن يريد بقوله‏

|  |
| --- |
| ما كان أضوأ ذلك الليل‏ |

عند النساء، و ان حذف لضيق الكلام و ضرورة الشعر، فما لا حذف فيه و لفظه مطابق للمعنى المقصود أولى.

و له من جملة قصيدة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| لا تأخذيني بالمشيب فإنه‏ |  | تفويف ذي الأيام لا تفويفي‏ |
|  |  |  |

ص: 188

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| لو أستطيع نضوت عني برده‏ |  | و رميت شمس نهاره بكسوف‏ |
| كان الشباب دجنة فتمزقت‏ |  | عن ضوء لا حسن و لا مألوف‏ |
| و لئن تعجل بالنصول فخلفه‏ |  | روحات سوق للمنون عفيف‏ |
|  |  |  |

و له و هو ابتداء قصيدة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| أغدرا يا زمان و يا شباب‏ |  | أصاب بذا لقد عظم المصاب‏ |
| و ما جزعي لأن غرب التصابي‏ |  | و حلق عن مفارقي الغراب‏ |
| فقبل الشيب أسلفت الغواني‏ |  | قلى و امالنى عنها اجتناب‏ |
| عففت عن الحسان فلم يرعني‏ |  | المشيب و لم ينزقنى الشباب‏ |
|  |  |  |

معنى هذه الأبيات يوافق معنى البيت الذي ذكرناه له رحمه اللَّه، و هو:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و لم أك قبل وسمك لي محبا |  | فيبعدنى بياضك عن حبيبي‏ |
|  |  |  |

يخالف معنى قول البحتري:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| أ عاتك ما كان الشباب مقربي‏ |  | إليك فالحي الشيب إذ كان مبعدي‏ |
|  |  |  |

لأن بيت البحتري انما تضمن انه كان في أيام الشباب مقصي بين الغواني محروما وصالهن، فلم يزده الشيب شيئا و لا نقصه. و هذه الأبيات تنطق بأنه عف في شبابه و تنزه عن الغواني أنفة و صيانة، فلا ظلامة له في الشيب و هذه عادته و سجيته.

و له من جملة قصيدة

ص: 189

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| فليت عشرين بت احسبها |  | باعدن بين الورود و القرب‏ |
| اني أظمأ الى المشيب و من‏ |  | ينج قليلا من الردى يشب‏ |
| و ان يزر طالع البياض أقل‏ |  | يا ليت ليل الشباب لم يغب‏ |
|  |  |  |

و له و هي قطعة مفردة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| عجلت يا شيب على مفرقي‏ |  | و أي عذر لك ان تعجلا |
| و كيف أقدمت على عارض‏ |  | ما استغرق الشعر و لا استكملا |
| كنت ارى العشرين لي جنة |  | من طارق الشيب إذا أقبلا |
| فالآن سيان ابن أم الصبي‏ |  | و من تسدى العمر الأطولا |
| يا زائرا ما جاء حتى مضى‏ |  | و عارضا ما غام حتى انجلى‏ |
| و ما رأى الراءون من قبلها |  | زرعا ذوي من قبل ان ينقلا |
| ليت بياضا جاءني آخر |  | فدى بياض كان لي أولا |
| و ليت صبحا ساءني ضوؤه‏ |  | زال و أبقى ليله الاليلا |
| يا ذابلا صوح فينانه‏ |  | قد آن للذابل ان يختلى‏ |
| حط برأسي يققا ابيضا |  | كأنما حط به منصلا |
| هذا و لم أعد مجال الصبي‏ |  | فكيف من جاوز أو اوغلا |
| من خوفه كنت إهاب السري‏ |  | شحا على وجهي ان يبذلا |
| فليتني كنت تسربلته‏ |  | في طلب العز و نيل العلى‏ |
| فالوادع القاعد يزري به‏ |  | من قطع الليل و جاب الفلا |
| قد كان شعري ربما يدعي‏ |  | نزوله بي قبل أن ينزلا |
| فالآن يحمينى ببيضائه‏ |  | ان أكذب القول و ان أبطلا |
| قل لعذولي اليوم عد صامتا |  | فقد كفاني الشيب ان اعذلا |
|  |  |  |

ص: 190

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| طبت به نفسا و من لم يجد |  | إلا الردى أذعن و استقتلا |
| لم يلق من دوني لها مصرفا |  | و لم أجد من دونه موئلا |
|  |  |  |

[[111]](#footnote-111)

قوله «يا زائرا» و البيت الذي بعده و البيتان اللذان قبلهما من أحسن ما وصف به عجل الشيب و نزوله قبل أوانه.

و أما قوله‏

|  |
| --- |
| ليت بياضا جاءني آخرا |

البيت، فإنما يريد بالبياض الأخر الشيب و البياض الأول حال المرودة و ابيضاض العارضين بفقد الشعر منهما.

و قوله‏

|  |
| --- |
| و ليت صبحا ساءني ضوؤه‏ |

في غاية الطبع و الحلاوة. و معنى «يختلى» أي يقطع، و أصله قطع الخلاء الذي هو الحشيش.

و قوله‏

|  |
| --- |
| حط برأسي يققا أبيضا |

تشبيه للشيب بالسيف في لونه و قطعه.

و له من جملة قصيدة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| الان لما اعتم بالشيب مفرقي‏ |  | و جلي الدجى عن لمتى لمعانها |
| و نجذنى صرف الزمان و وقرت‏ |  | عن الحلم نفسي و انقضى نزوانها |
| يروم العدي ان تستلان حميتى‏ |  | و قبلهم أعيا علي حرانها |
|  |  |  |

و هذه أبيات لها جزالة و قوة و بلاغة.

و له من أثناء قصيدة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| إلى كم ذا التردد في التصابي‏ |  | و فجر الشيب عندي قد أضاء |
| فيا مبدئ العيوب سقى سواد |  | يكون على مقانحها غطاء |
|  |  |  |

ص: 191

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| شبابي ان تكن أحسنت يوما |  | فقد ظلم البياض و قد أساء |
|  |  |  |

قد ملح بقوله‏

|  |
| --- |
| و فجر الشيب عندي قد أضاء |

، و البيت الثاني جيد المعنى و له من أثناء قصيدة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و هذا و ما أبيض السواد فكيف بي‏ |  | إذا الشيب مشى ليلة من عماثمي‏ |
| و كنت ارى ان الشباب وسيلة |  | لمثلي الى بيض الخدود النواعم‏ |
|  |  |  |

و له من أثناء قصيدة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| فالآن إذ نبذ المشيب شبيبتى‏ |  | نبذ القذى و اقام من تأويدى‏ |
| و فررت عن سن القروح تجاريا |  | وعا على قعس السنين عمودي‏ |
| و لبست في الصغر العلى مستبدلا |  | اطواقها بتمائم المولود |
| و صفقت في أيدي الخلائف راهنا |  | لهم يدي بوثائق و عقود |
| و حللت عندهم محل المحتبي‏ |  | و نزلت منهم منزل المودود |
| فغر العدو يريد ذم فضائلى‏ |  | هيهات ألجم فوك بالجلمود |
|  |  |  |

و لهذه الأبيات من الاطراد و الاتساق و جودة السبك و صحة النسج ما تستغني به عن شهادة لها و تنبيه عليها.

و له من جملة قصيدة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| ان أشك فعلك في فراق أحبتي‏ |  | فلسوء فعلك في عذارى أقبح‏ |
| ضوء تشعشع في سواد ذوائبى‏ |  | لا أستضي‏ء به و لا استصبح‏ |
|  |  |  |

ص: 192

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| بعت الشباب به على مقة له‏ |  | بيع العليم بأنه لا يربح‏ |
|  |  |  |

هذه أبيات محكمة في القلوب تحكيمها في الطبع و سلامة اللفظ و صحة النسج.

و له من أثناء قصيدة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| قل للعواذل مهلا فالمشيب غدا |  | يغدو عقالا لذي القلب الذي طمحا |
| هيهات أحوج مع شيبى الى عذل‏ |  | و الشيب اعذل ممن لا منى و لحي‏ |
|  |  |  |

و له من أثناء قصيدة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| قالوا المشيب فعم صباحا بالنهي‏ |  | و اعقر مراحك للطروق الزائر |
| لو دام لي ود الاوانس لم إبل‏ |  | بطلوع شيب و ابيضاض غدائر |
| لكن شيب الرأس ان يك طالعا |  | عندي فوصل البيض أول غائر |
| واها على عهد الشباب و طيبه‏ |  | و الغض من ورق الشباب الناضر |
| واها له لو كان غير دجنة |  | قلصت صبابتها كظل الطائر |
| خمس و عشرون اهتصرن شبيبتى‏ |  | و ألن عودي للزمان الكاسر |
| كان الشباب وراء ظل قالص‏ |  | لأخي الصبي و امام عمر قاصر |
| و أرى المنايا إن رأت بك شيبة |  | جعلتك مرمى نبلها المتواتر |
| تعشو الى ضوء المشيب و تهتدي‏ |  | و تضل في ليل الشباب الغائر |
| لو يفتدى ذاك السواد فديته‏ |  | بسواد عيني بل سواد ضمائرى‏ |
| أبياض رأس و اسوداد مطالب‏ |  | صبرا على حكم الزمان الجائر |
|  |  |  |

ص: 193

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| ان اصفحت عنه الخدود فطالما |  | عطفت له بلواحظ و نواظر |
| و لقد يكون و ما له من عاذل‏ |  | فاليوم عاد و ما له من عاذر |
| كان السواد سواد عين حبيبه‏ |  | فغدا البياض بياض طرف الناظر |
| لو لم يكن في الشيب الا أنه‏ |  | عذر الملول و حجة للغادر |
|  |  |  |

أما قوله‏

|  |
| --- |
| و اعقر مراحك للطروق الزائر |

فمن مليح اللفظ و رشيقه، لأن الضيف الزائر انما يعقر له الأنعام و الشيب إذا زار فإنما يعقر له الطرب و المراح و الارن و النشاط.

و أما البيت الثالث من هذه الأبيات الذي أوله‏

|  |
| --- |
| لكن شيب الرأس ان يك طالعا |

و الثاني الذي أوله‏

|  |
| --- |
| إن أصفحت عنه الخدود |

فمعناهما يكثر و يتكرر في الشعر، لان الطريق المسلوك في ذم الشيب هو من حيث ينفر النساء منه و يعرضن عنه و يقطعن حبل وصل صاحبه، و في هذا من الشعر ما لا يحصى، و العبارات عنه مختلفة في اختصار و اطالة و ضعف و جزالة و طبع و تكلف، و يمضى فيما أخرجته من شعري هذا المعنى كثيرا بألفاظ مختلفة و مواقع متباينة، و أنت ترى ذلك إذا انتهينا اليه.

و قد أحسن صخر بن حنباء التميمي في قوله:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| فان أك بدلت البياض و أنكرت‏ |  | معالمه منى العيون اللوامح‏ |
| فقد يستجد المرء حالا بحالة |  | و قد يستشن الجفن و النصل جارح‏ |
| و ما شأن عرضي من فراق علمته‏ |  | و لا أثرت في الخطوب الفوادح‏ |
|  |  |  |

و لجرير:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| بان الشباب و قال الغانيات لقد |  | ولى الشباب و أؤدي عصرك الخالي‏ |
| قد كن يفزعن من صرمى و مقليتى‏ |  | فاليوم يهزأن من وصلي و ادلالى‏ |
|  |  |  |

ص: 194

و لبعض العرب:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| يا جمل ان سل سربال الشباب فما |  | يبقى جديد من الدنيا و لا خلق‏ |
| صدت امامة لما جئت زائرها |  | عني بمطروفة إنسانها غرق‏ |
| و راعها الشيب في رأسي فقلت لها |  | كذلك يصفر بعد الخضرة الورق‏ |
|  |  |  |

و قال ابن الرومي و جود:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| كبرت و في خمس و ستين مكبر |  | و شبت فإجمال ألمها منك نفر |
| إذا ما رأتك البيض صدت و ربما |  | غدوت و طرف البيض نحوك أصور |
| و ما ظلمتك الغانيات بصدها |  | و ان كان من أحكامها ما يحور |
| اعر طرفك المرآة و انظر فإن نبا |  | بعينك عنك الشيب فالبيض أعذر |
| إذا شنئت عين الفتى وجه نفسه‏ |  | فعين سواه بالشناءة أجدر |
|  |  |  |

فأما قوله في الأبيات التي نحن في الكلام على معناها

|  |
| --- |
| قلصت صبابتها كظل الطائر |

فإنما يريد به سرعة انتقاله و زواله، لأن ظل الطائر وشيك الزوال متدارك الانتقال.

و أما قوله‏

|  |
| --- |
| و أرى المنايا إن رأت بك شيبة |

و البيت الذي بعده و أوله‏

|  |
| --- |
| تعشو الى ضوء المشيب فتهتدي‏ |

فانني رأيت هذا المعنى لابن الرومي في قطعة له و ما رأيته لأحد قبله و يقوى في الظن أنه سبق اليه، و الأبيات:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| كفى بسراج الشيب في الرأس هاديا |  | الى من أضلته المنايا لياليا |
| أمن بعد إبداء المشيب مقاتلي‏ |  | لرامي المنايا تحسبيني ناجيا |
| غدا الدهر يرميني فتدنو سهامه‏ |  | لشخصي أخلق ان يصبن سواديا |
| و كان كرامي الليل يرمى و لا يرى‏ |  | فلما أضاء الشيب شخصي رمانيا |
|  |  |  |

ص: 195

و لقد أحسن في البيت الأخير كل الإحسان، لأن المعنى الذي قصده تكامل فيه و انتهى الى الغاية عنده و ساعده اللفظ و حسن العبارة، فلم يبق عذر في قبول القلوب له و علوقها به. و من شأن ابن الرومي أن يورد المعنى ثم يأخذ في شرحه في بيت آخر و إيضاحه و تشعيبه و تفريعه، فربما أخفق و أكدى و ربما أصاب فأصمى، لأن الشعر انما تحمد فيه الإشارة و الاختصار و الإيماء إلى الأغراض و حذف فضول القول.

و في هذه الأبيات قد اتفق له لما كرر المعنى و اعاده و أبداه خلص في البيت الأخير وصفا و عذب مذاقة، لأنه في أول البيت قد أشار الى هذا المعنى الموجود في آخرها، و في البيت الثاني أيضا قد أعاد ذلك، و في البيت الثالث قد ألم بالمعنى بعض الإلمام، لأنه ذكر أن سهام الدهر تقرب منه و أخلق أن تصيب سواده يعني شخصه، و لم يذكر العلة في إصابتها له، و هي إضاءة الشيب لمقاتلة و هدايتها الى مراميه كما ذكره في البيتين الأولين، و طبق المفصل في البيت الرابع، لانه جعل الدهر في زمان الشباب يرميه بسهامه و هو لا يراه لأن سواد شبابه ساتر له.

و معنى «كرامي الليل» الرامي في الليل، فالليل ظرف للرامي و ليس بمفعول صحيح. ثم قال‏

|  |
| --- |
| فلما أضاء الشيب شخصي رمانيا |

و معنى رمانيا أصابني، كما قال الشاعر:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و لما رمى شخصي رميت سواده‏ |  | و لا بد أن يرمى سواد الذي يرمى‏ |
|  |  |  |

و في شعري ما يشبه هذا المعنى، و هو:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و لاح بمفرقى قبس منير |  | يدل على مقاتلي المنونا |
|  |  |  |

فأما قوله رحمه اللَّه في الأبيات‏

|  |
| --- |
| و لقد يكون و ما له من عاذل‏ |

فمعناه متكرر في الشعر متردد، و الشباب أبدا يوصف بأن صاحبه معذور مغتفر الجرم و ذو الشيب‏

ص: 196

مؤاخذ بما لم يجنه متجرم عليه.

و قوله في آخر الأبيات‏

|  |
| --- |
| عذر الملول و حجة للغادر |

من لطيف القول و سليم النسج.

و له من أثناء قصيدة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| لهفي لأيام الشباب على ندى‏ |  | أطرافهن و ظلهن الأبرد |
| أيام انفض للمراح ذوائبى‏ |  | و أروح بين معذل و مفند |
|  |  |  |

و منها:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و بياض ما بيني و بين أحبتي‏ |  | يوم اللقاء من العذار الأسود |
|  |  |  |

و له من أثناء قصيدة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و لم يبق لي في الأعين النجل طربة |  | و لا ارب عند الشباب الذي يمضى‏ |
| صحا اليوم في ظل الشبيبة مفرقي‏ |  | و أبدل مسود العذار بمبيض‏ |
|  |  |  |

و له من جملة قصيدة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| ليالي من لي برد الشباب‏ |  | منى غصن رطيب المجاني‏ |
| و قد رحل البيض من لمتى‏ |  | بطفل الأماني بض البنان‏ |
| أ فالآن لما أضاء المشيب‏ |  | و أمسى الصبي ثانيا من عناني‏ |
| و قد صقل السيف بعد الصدا |  | و بان لظى النار بعد الدخان‏ |
|  |  |  |

ص: 197

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| يرد الزمان علي الهوى‏ |  | و يطمع في هفوة من جناني‏ |
|  |  |  |

أما تشبيه السواد في الشعر بالصدإ و بياض الشيب بالصقال و الجلاء فمذهب معروف متداول، لكن الغريب المليح تشبيه سواد الشباب بالدخان و بياض الشيب ببياض النار.

و له في ذم المشيب و هي قطعة مفردة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| خذا اليوم كفى للبياع على النهى‏ |  | فلم يبق للإطراب عين و لا اثر |
| و قد كنت لا اعطى العواذل طاعة |  | و أعذر نفسي في التصابي و لا عذر |
| نقضت لبانات الصبي و تصرمت‏ |  | فلا نهى للاحي علي و لا أمر |
| و لا تحسبا انى نضوت بطالتى‏ |  | نزوعا و لكن صغر اللذة الكبر |
| و لا امترى ان الشباب هو الغنى‏ |  | و ان قل مال و المشيب هو الفقر |
|  |  |  |

و له أيضا في ذم المشيب و هي قطعة مفردة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| يا عذولى قد غضضت جماحى‏ |  | فاذهبا اين شئتما بزمامى‏ |
| بعد لوثى عمامة الشيب‏ |  | اختال ببردي بطالة و عرام‏ |
| خفضت نزوة الشباب و حال‏ |  | الهم بين الحشا و بين الغرام‏ |
| ايها الصبح زل ذميما فما أظلم‏ |  | يومى من بعد ذاك الظلام‏ |
| ارمضت شمسك المنيرة فودي‏ |  | فمن لي بظل ذاك الغمام‏ |
| غالطونى عن المشيب و قالوا |  | لا ترع انه جلاء الحسام‏ |
| قلت ما أمن من على الرأس منه‏ |  | صارم الحد في يد الأيام‏ |
|  |  |  |

ص: 198

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| ان ذنبي الى الغواني بشيبى‏ |  | ذنب ذئب الغضا الى الارام‏ |
| كن يبكين قبله من وداعي‏ |  | فبكاهن بعده من سلامي‏ |
|  |  |  |

ما أحسن هذه الأبيات و أرطب أطرافها و أعذب ائتلافها.

و له و هي قطعة مفردة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| لجام للمشيب ثنى جماحى‏ |  | و ذللني لأيامى و راضا |
| أقر بلبسه و لقد أراني‏ |  | اجاحده إباء و امتعاضا |
| تعوضت الوقار من التصابي‏ |  | أشد على المعوض ما استعاضا |
| لوى عنى الخدود من الغواني‏ |  | و قطع دوني الحدق المراضا |
| فصار بياضه عندي سوادا |  | و كان سواده عندي بياضا |
|  |  |  |

أراد بالبيت الأخير أن بياض الشيب صار سوادا لقلبه أي هما و حزنا، أو أنه سود ما بينه و بين حبائبه و أظلم ما كان مشرقا من ودهن و كان سواده بياضا بمعنى الضد من هذه الأحوال.

و له من قصيدة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| شيب و ما جزت الثلاثين نزل‏ |  | نزول ضيف ببخيل ذي علل‏ |
| يصرف عنه السمع ان ارغى الجمل‏ |  | و لا يقول ان أناخ حي هل‏ |
| كأنه لما طرا على عجل‏ |  | سواد نبت عمه بياض طل‏ |
| يجي‏ء بالهم و يمضى بالأجل‏ |  | فأوه ان حل و واها ان رحل‏ |
| أبدل من الشباب لا بدل‏ |  | سرعان ما رق الأديم و نغل‏ |
|  |  |  |

ص: 199

لهذه الأبيات حظ جزيل من قوة و فصاحة، و قد قالت الشعراء في تعجيل الشيب قبل أوانه فأكثرت و المراعى في المعاني المتداولة المتناولة التجويد، و قد قال ابن الرومي:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| أرى بقر الأنس منى تراع اطيش‏ |  | ما كنت عنها سهاما |
| و أنى تفرع رأسي المشيب‏ |  | و لم اتفرع ثلاثين عاما |
|  |  |  |

قوله‏

|  |
| --- |
| أطيش ما كنت عنها سهاما |

قد كرره شغفا به في قوله أيضا:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| أقول و مرت ظبيتان فصدتا |  | و راعتهما منى مفارق شيب‏ |
| أطيش ما كانت سهامي عنكما |  | تصدان عنى ان ذا لعجيب‏ |
|  |  |  |

و من جيد القول في التلهف على الشباب و التأسف على فراقه قول ابن الرومي:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| لا تلح من يبكي شبيبته‏ |  | إلا إذا لم يبكها بدم‏ |
| عيب الشبيبة غول سكرتها |  | مقدار ما فيها من النعم‏ |
| لسنا نراها حق رؤيتها |  | إلا زمان الشيب و الهرم‏ |
| كالشمس لا تبدو فضيلتها |  | حتى تغشى الأرض بالظلم‏ |
| و لرب شي‏ء لا يبينه‏ |  | وجدانه الا مع العدم‏ |
|  |  |  |

و له من قصيدة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| دع للمشيب ذمه‏ |  | ان له عندي بدا |
| أعتق من رق الهوى‏ |  | مذللا معبدا |
| لكن هوى لي ان أرى‏ |  | لون عذارى أسودا |
| مر البياضان عليه‏ |  | شائبا و أمردا |
|  |  |  |

ص: 200

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| ما أخلق البرد فلم‏ |  | بدل لي و جددا |
|  |  |  |

معنى البيت الأخير مليح جدا، لأن الاستبدال على العادة انما يكون مع الأخلاق و الرثاثة، و لا معنى لإبدال ما لم يخلق و تجديده.

و له و هو ابتداء قصيدة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| ترى نوب الأيام يرجى صعابها |  | و يسأل عن ذي لمة ما أشابها |
| و هل سبب للمرء من بعد هذه‏ |  | فدأبك يا لون الشباب و دأبها |
| شربنا من الأيام كأسا مريرة |  | تدار بأيد لا يرد شرابها |
|  |  |  |

و منها:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| خطوب يعن الشيب في كل لمة |  | و ينسين أيام الصبي و لعابها |
|  |  |  |

و له و هي قطعة مفردة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| صدت و ما كان لها الصدود |  | و ازور عنى طرفها و الجيد |
| تقول لما أخلق الجديد |  | إذا البجال ذلل الوليد |
|  |  |  |

البجال: الشيخ الكبير.

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| فأين ذاك الخضل الأملود |  | ريان من ماء الصبي يميد |
| تصحبه اللحظ العذارى الغيد |  | غدا الغزال اليوم و هو سيد |
| قلت نعم ذاك الذي أريد |  | مضى حبيب قلما يعود |
| أشد ما أوجعني الفقيد |  | أيامنا بعد البياض سود |
|  |  |  |

ص: 201

و له و هي قطعة مفردة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| قال لي عند ملتقى الركب عمرو |  | قوم العود بعدنا فانصاتا |
| اين ذاك الصبي و ذاك التصابي‏ |  | سبقا الطالب المجد و فاتا |
| من قضى عقبة الثلاثين يغدو |  | راجعا يطلب الصبي هيهاتا |
| لم تزل و المشيب غير قريب‏ |  | ناعيا للشباب حتى ماتا |
| كنت تبكي الأحياء فاستكثر |  | اليوم من الدمع و اندب الأمواتا |
|  |  |  |

و له و هي قطعة مفردة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| تشاهقن لما ان رأين بمفرقي‏ |  | بياضا كأن الشيب عندي من البدع‏ |
| و قلن عهدنا فوق عاتق ذا الفتى‏ |  | رداء من الحوك الرقيق فما صنع‏ |
| و لم أر عضبا عيب منه صقاله‏ |  | و كان حبيبا للقلوب على الطبع‏ |
| و قالوا غلام زين الشيب رأسه‏ |  | فبعدا لرأس زانه الشيب و الترع‏ |
| تسلى الغواني عنه من بعد صبوة |  | و ما أبعد النبت الهشيم من النجع‏ |
| و كن يخرقن السجوف إذا بدا |  | فصرن يرقعن الخروق إذا طلع‏ |
|  |  |  |

و له و هو ابتداء قصيدة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| ألهاك عنا ربة البرقع‏ |  | مر الثلاثين إلى الأربع‏ |
| أنت أعنت الشيب في مفرقي‏ |  | مع الليالي فصلى أو دعي‏ |
|  |  |  |

ص: 202

و له و هي قطعة مفردة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| أ أميم إن أخاك غض جماحه‏ |  | بيض طردن عن الذوائب سودا |
| عقب الجديد إذا مررن على الفتى‏ |  | مر القوادح لم يدعن جديدا |
| قد كان قبلك للحسان طريدة |  | فاليوم راح عن الحسان طريدا |
| حولن عنه نواظرا مزورة |  | نظر القلى و لوين عنه خدودا |
| نشد التصابي بعد ما ضاع الصبي‏ |  | عرضا لعمرك يا أميم بعيدا |
|  |  |  |

و له و هي قطعة مفردة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| تمل من التصابي قبل تمسى‏ |  | و لا أمم صباك و لا قريب‏ |
| سواد الرأس سلم للتصابى‏ |  | و بين البيض و البيض الحروب‏ |
| و ولاك الشباب على الغواني‏ |  | فبادر قبل يعذلك المشيب‏ |
|  |  |  |

هذا المصراع من البيت الأخير مليح اللفظ.

و له من جملة قصيدة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| راحت تعجب من شيب ألم به‏ |  | و عاذرا شيبه التهمام و الأسف‏ |
| و لا تزال هموم النفس واردة |  | رسل البياض الى الفودين تختلف‏ |
| ان الثلاثين و السبع التوين به‏ |  | عن الصبي فهو مزور و منعطف‏ |
|  |  |  |

قوله‏

|  |
| --- |
| و عاذرا شبيه التهمام و الأسف‏ |

من أخصر عبارة و أبلغها من هذا المعنى.

ص: 203

و له من أثناء قصيدة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| فيا حادي السنين قف المطايا |  | فهن على طريق الأربعينا |
| و أب الرأس بعدك صوحته‏ |  | بوارح شيبة فغدا حنينا |
| و كان سواده عند الغواني‏ |  | يعدن الى مطالعة العيونا |
| اتاجرها فأربح في التصابي‏ |  | و بعض القوم يحسبني غبينا |
| أهان الشيب ما اعززن منه‏ |  | و عز على العقائل أن يهونا |
| جنون شبيبة و وقار شيب‏ |  | خذا عنى الصبي و دعا الجنونا |
|  |  |  |

و له من قصيدة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و طارق للشيب حييته‏ |  | سلام لا الراضي و لا الجاذل‏ |
| أجرى على عودي ثقاف النهى‏ |  | جري الثقافين على الذابل‏ |
| و أعرني عقر مراحى له‏ |  | لادر در الشيب من نازل‏ |
| فاليوم لا زور و لا طربة |  | نام رقيبى و صحا عاذلى‏ |
|  |  |  |

و له من قصيدة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و رأت وخط مشيب طارق‏ |  | وخط التهمام قلبي فوخط |
| ما لها تنكر مع هذا الشجى‏ |  | وقعات الشيب بالجعد القطط |
|  |  |  |

ص: 204

و له و هو ابتداء قصيدة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| من شافعي و ذنوبي عندها الكبر |  | ان البياض لذنب ليس يغتفر |
| رأت بياضك مسودا مطالعة |  | ما فيه للحب لا عين و لا اثر |
| و أي ذنب للون راق منظره‏ |  | إذا أراك خلاف الصبغة النظر |
| و ما عليك و نفسي فيك واحدة |  | إذا تلون في ألوانه الشعر |
| أنساك طول نهار الشيب آخره‏ |  | و كل ليل شباب عيبه القصر |
| ان السواد على لذاته لعمى‏ |  | كما البياض على علاته بصر |
| البيض اوفى و أبقى لي مصاحبة |  | و السود مستوفزات للنوى غدر |
| كنت البهيم و اعلاق و الهوى جدد |  | فأخلقتك حجول الشيب و الغرر |
| و ليس كل ظلام رام غيهبه‏ |  | يسر خابطه ان يطلع القمر |
|  |  |  |

تسلية الغواني النافرات من الشيب الحائدات عن صاحبه بأن حلوله ما أحال عهدا و لا غير ودا طريق مسلوكة و جدد مألوفة، و سيأتي في شعري من هذا المعنى ما يوقف عليه في موضعه، و من جملة قولي:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و ما ضرني و العهد غير مبدل‏ |  | تبدل شرخى ظالما بمشيبى‏ |
|  |  |  |

و قولي:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| إن كنت بدلت لونا |  | فما تبدلت حبا |
|  |  |  |

و قولي:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و لا لوم يوما من تغير صبغتى‏ |  | إذا لم يكن ذاك التغير في عهدي‏ |
|  |  |  |

و أما قوله رحمه اللَّه‏

|  |
| --- |
| أنساك طول نهار الشيب آخره‏ |

فمعناه ان الشيب لامتداد أيامه ينسى ذكر عواقبه و مصائره التي هي الموت و الفناء.

ص: 205

و من مليح اللفظ قوله‏

|  |
| --- |
| و كل ليل شباب عيبه القصر |

و أما قوله‏

|  |
| --- |
| البيض أوفى و أبقى لي مصاحبة |

فنظيره قول الشاعر:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و الشيب ان يظهر فان وراءه‏ |  | عمرا يكون خلاله متنفس‏ |
|  |  |  |

و من شعري قولي:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| عمر الشباب قصير لا بقاء له‏ |  | و العمر في الشيب يا أسماء ممدود |
|  |  |  |

و له من قصيدة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| شيع بالقطر الروا |  | ذاك الشباب الراحل‏ |
| ما سرني من بعده‏ |  | الاعواض و البدائل‏ |
| ما ضر ذي الأيام لو |  | أن البياض الناصل‏ |
| كل حبيب ابدا |  | أيامه قلائل‏ |
| ظل و كم يبقى على‏ |  | فوديك ظل زائل‏ |
| لقد رأى بعارضيك‏ |  | ما أحب العاذل‏ |
| و استرجعت منك اللحاظ |  | الخرد العقائل‏ |
| و أغمدت عنك نصول‏ |  | الأعين القواتل‏ |
| فلا الدماليج يقعقعن‏ |  | و لا الخلاخل‏ |
| فان وعدن فاعلمن‏ |  | ان الغريم ماطل‏ |
| و وعد ذي الشيبة |  | بالوصل غرور باطل‏ |
|  |  |  |

و له من قصيدة

ص: 206

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| ما لقائي من عدوي‏ |  | كلقائي من مشيبي‏ |
| موقد نارا أضاءت‏ |  | فوق فودي عيوبي‏ |
| و بياض و هو عند |  | البيض من شر ذنوبي‏ |
|  |  |  |

يمكن أن يكون معنى قوله رضي اللَّه عنه‏

|  |
| --- |
| أضاءت فوق فودي عيوبي‏ |

انها كانت مستورة بالشباب معرض عن ذكرها و التقريع بها لوسيلة الشباب و فضيلته، فلما مضى ظهر منها ما كان مستورا حاله.

و يمكن غير هذا الوجه، و هو: أنه لم يرد ان عيبا له كان كامنا مستورا فظهر بل يريد أنه بالمشيب تمحلت له عيوب و تكذبت عليه و أشيعت عنه، و ان ضوء المشيب هو الذي كان السبب فيها.

و يمكن وجه ثالث، و هو: أن يريد بالعيوب نفس الشيب لا شيئا سواه، و انه لما أضاء برأسه و عيب به كان مظهره و ناشره في رأسه كأنه مظهر لعيوبه و معلن لها.

و له و هو ابتداء قصيدة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| ما للبياض و الشعر |  | ما كل بيض بغرر |
| صفقة غبن في الهوى‏ |  | بيع بهيم بأغر |
| صغره في أعين‏ |  | البيض بياض و كبر |
| لو لا الشباب ما نهى‏ |  | على ألمها و لا أمر |
| ما كان اغنى ذلك‏ |  | المفرق عن ضوء القمر |
| قد كان صبح ليله‏ |  | أمر صبح ينتظر |
|  |  |  |

ص: 207

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| واها و هل يغني الفتى‏ |  | بكاء عين لا اثر |
| يا حبذا ضيفك من‏ |  | مفارق و ان غدر |
| اين غزال داجن‏ |  | رأى البياض فنفر |
| هيهات رثم الرمل لا |  | يدنو الى ذنب الخمر |
|  |  |  |

من بارع القول و مليحه قوله رحمه اللَّه «ما كل بيض بغرر» و مثل ذلك قولهم ما كل بيضة شحمة، لأن بياض اللون قد يشترك فيه الممدوح و المذموم و المراد و المكروه.

و البيت الثاني معناه ان من باع الشباب و هو البهيم بالمشيب- و هو الأغر- فقد غبن. و موضع العجب أن الأغر أفضل و أنفس من البهيم، فكيف انعكس ذلك في الشيب و الشباب.

و نظير هذا المعنى من شعري قولي:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| إن البهيم من الشباب ألذ لي‏ |  | فلتغذني أوضاحه و حجوله‏ |
|  |  |  |

فأما قوله رحمه اللَّه‏

|  |
| --- |
| صغره في أعين البيض بياض و كبر |

فمن العجب أن يصغر الكبر، و نظير هذا البيت قول البحتري:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| صغر قدري في الغانيات و ما |  | صغر صبا تصغيره كبره‏ |
|  |  |  |

و أما قوله‏

|  |
| --- |
| ما كان أغنى ذلك المفرق‏ |

فالليل لا يستغني عن القمر بل يفتقر إليه أشد فقر، الا ان المشبه بالليل من الشباب مستغن عن المشبه بالقمر من ضوء المشيب. و هذا المعنى يمضي كثيرا في الشعر، و سيجي‏ء منه في شعري ما أذكره في مواضعه بمشيئة اللَّه.

و قوله رحمه اللَّه‏

|  |
| --- |
| بكاء عين لا اثر |

من مطبوع القول و مقبولة.

ص: 208

و لقائل أن يقول في البيت الذي هو:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| يا حبذا ضيفك من‏ |  | مفارق و ان غدر |
|  |  |  |

أي غدر يليق بالشباب و هو لم يفارق مختارا بل مضطرا؟

فالجواب عنه: ان الغدر بالفراق انما يكون متى كان عن غير سبب أوجب المفارقة و مع الإيثار للمواصلة و المقام، فكأن الشباب لما تعجل قبل حينه و أوان فراقه من غير سبب من ذي الشباب أوجب ذلك نسب اليه الغدر توسعا و استعارة و تشبيها.

و له من قصيدة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| يا قاتل اللَّه ريعان الشباب و ما |  | خلى علي من الأشجان و الغلل‏ |
| و روضة من سواد الرأس حالبة |  | كان المشيب إليها رائد الأجل‏ |
| قالوا الخضاب لود البيض مطمعة |  | قد ضل طالب ود البيض بالحيل‏ |
|  |  |  |

فلقوله رحمه اللَّه‏

|  |
| --- |
| كان المشيب إليها رائد الأجل‏ |

من الإحسان و العذوبة ما شاء.

و له من قصيدة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| إليك فقد قلصت شرتى‏ |  | بعيد البياض قلوص الظلال‏ |
| و بدلت مما يروق الحسان‏ |  | من منظر ما يروع الغوالي‏ |
| سواد تعذر زور البياض‏ |  | علوق الضرام برأس الذبال‏ |
|  |  |  |

ص: 209

[[112]](#footnote-112)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و مر على الرأس مر الغمام‏ |  | قليل المقام سريع الزيال‏ |
|  |  |  |

و له من قصيدة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| قل لزور المشيب أهلا انه‏ |  | أخذ الغي و أعطاني الرشد |
| طارق قوم عودي بالنهي‏ |  | بعد ما استغمز من طول الأود |
| و قر اليوم جموحا رأسه‏ |  | جار ما جار طويلا و قصد |
| ظل لماع حلاه عارض‏ |  | بعد ما أبرق حيا و رعد |
|  |  |  |

و له في ذم الشيب و هي قطعة مفردة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| ليس على الشيب للغواني‏ |  | و ان تحملن من قرار |
| كأنما البيض من لداتي‏ |  | ضرائر البيض من عذاري‏ |
| ان خيمت هذه بأرضي‏ |  | تحملت تلك عن دياري‏ |
| ارين في رأسي الليالي‏ |  | شر ضياء لشر نار |
| تبدي الخفيات من عيوبي‏ |  | و تظهر السر من عواري‏ |
| أعدو بها اليوم للغوانى‏ |  | أعدى من الذئب للضوارى‏ |
| و كن طربى الى طروقى‏ |  | إذ ليل رأسي بلا درارى‏ |
| فمذ أضاء المشيب فودى‏ |  | تورع الزور عن مزاري‏ |
| مثل الخيالات زرن ليلا |  | و زلن مع طالع النهار |
|  |  |  |

أما تشبيه النساء اللواتي يزرن مع سواد الشباب و يهجرن مع بياض المشيب بالخيال الذي يزور ليلا و يهجر نهارا فمن مليح التشبيه و غريبه.

ص: 210

و له من قصيدة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و لم يلبثن غربان الليالي‏ |  | نعيقا ان اطرن غراب رأسي‏ |
| و ما زال الزمان يحيف حتى‏ |  | نزعت له على مضض لباسى‏ |
| نضا عنى السواد بلا مرادي‏ |  | و أعطاني البياض بلا التماسي‏ |
| أروع به الظباء و قد أراني‏ |  | رميلا للغزال الى الكناس‏ |
| و بغضنى المشيب الى لداتي‏ |  | و هوننى البقاء على أناسي‏ |
| خذوا بأزمتى فلقد أراني‏ |  | قليلا ما يلين لكم شماسى‏ |
| أ ليس الى الثلاثين انتسابي‏ |  | و لم أبلغ الى القلل الرواسي‏ |
| فمن دل المشيب على عذارى‏ |  | و ما جر الذيول الى غراسي‏ |
|  |  |  |

و له من جملة قصيدة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و تلفعت ريطة من بياض‏ |  | انا راض منها بما لا يرضى‏ |
| أبرمت لي من صبغة الدهر |  | لا يسرع فيها الا المنايا نقضا |
| مخبر فاحم و لون مضي‏ء |  | من رأى اليوم فاحما مبيضا |
|  |  |  |

قوله رحمه اللَّه‏

|  |
| --- |
| لا يسرع فيها الا المنايا نقضا |

يريد به أن بياض المشيب لا يحول و لا يزول الا بالموت، و ليس كسواد الشباب الذي يزول ببياض المشيب.

و له من قصيدة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| يا قاتل اللَّه الغواني لقد |  | سقينني الطرق بعيد الحمام‏ |
|  |  |  |

ص: 211

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| اعرضن عني حين ولي الصبي‏ |  | و اختلج الهم بقايا العرام‏ |
| و شاعت البيضاء في مفرقي‏ |  | شعشعة الصبح وراء الظلام‏ |
| سيان عندي أبدت شيبة |  | في الفود أو طبق عضب حسام‏ |
| ألقى بذل الشيب من بعدها |  | من كنت ألقاه بدل الغلام‏ |
| ترى جميم الشعر لما ذوي‏ |  | يراجع العظلم بعد الثغام‏ |
| كم جدن بالأجياد لي و الطلي‏ |  | فاليوم يبخلن برد السلام‏ |
|  |  |  |

عدل رحمه اللَّه في البيت الذي أوله «ألقى بذل الشيب» عن أن يقابل الذل بالعز الى مقابلته بالدل، لأن الدل بصورة الذل في الخط و الوزن، و فيه أيضا معنى العز، فهو أليق بالمقابلة و أجمع لشروطها. فأما العظلم فهو نبت أسود العصارة، و قيل انه الوسمة، و العرب تقول ليل عظلم أي مظلم.

و له و قد حلق وفرته بمنى و رأى فيها شيئا من البياض، و هي قطعة مفردة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| لا يبعدن اللَّه برد شبيبة |  | ألقيته بمنى و رحت سليبا |
| شعر صحبت به الشباب غرانقا |  | و العيش مخضر الجناب رطيبا |
| بعد الثلاثين انقراض شبيبة |  | عجبا أميم لقد رأيت عجيبا |
| قد كان لي قطط يزين لمتى‏ |  | ثروى السنان يزين الانبوبا |
| فاليوم اطلب للهوى متكلفا |  | حصرا و ألقى الغانيات مريبا |
| اما بكيت على الشباب فإنه‏ |  | قد كان عهدي بالشباب قريبا |
| أو كان يرجع ذاهب بتفجع‏ |  | و جوى شققت على الشباب جبوبا |
| و لئن حننت إلى منى من بعدها |  | فلقد دفنت بها الغداة حبيبا |
|  |  |  |

ص: 212

و له من جملة قصيدة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و لقد أكون من الغواني مرة |  | بأعز منزلة الحبيب الأقرب‏ |
| اقتادهن بفاحم متخايل‏ |  | فيريبنى و يرين لي و يرين بي‏ |
| و إذا دعوت أجبن غير شوامس‏ |  | زفف النياق الى رغاء المصعب‏ |
| فاليوم يلوين الوجوه صوادفا |  | صد الصحاح عن الطلي الأجرب‏ |
| و إذا لطفت لهن قال عواذلى‏ |  | ذئب الرداه يريغ ود الربرب‏ |
| فلئن فجعت بلمة فينانة |  | مات الشباب بها و لما يعقب‏ |
| فلقد فجعت بكل فرع باذخ‏ |  | من عيص مدركه الأعز الأطيب‏ |
|  |  |  |

و لهذه الأبيات ما شئت من معنى و لفظ. و قوله «يرين لي» أي يوجبن حقي، فأما «يرين بي» فمعناه أنهن يوجبن لغيري الحق من أجلي.

و الزفف: ضرب من المشي. و المصعب: الفحل من الإبل. و الرداه: جمع ردهة و هي النقرة في الجبل يستنقع فيها الماء. و «مات الشباب و لما يعقب» من مليح اللفظ.

و كنا ذكرنا في صدر الكتاب أنا أخرجنا من ديوان أخي رحمه اللَّه مبلغا عيناه و وقع إلينا بعد ذلك من شعره ما زاد على ما ذكرناه من العدد، و المخرج كله يزيد على الثلاثمائة بيت.

(انقضى ما أخرجته لأخي رضي اللَّه عنه) و هذا ابتداء ما انتزعته من ديوان شعري في الشيب لي من قصيدة أولها

|  |
| --- |
| لو لم تعاجله النوى لتحيرا |

:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| جزعت لوخطات المشيب و انما |  | بلغ الشباب مدى الكمال فنورا |
|  |  |  |

ص: 213

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و الشيب ان فكرت فيه مورد |  | لا بد يورده الفتى ان عمرا |
| يبيض بعد سواده الشعر الذي‏ |  | ان لم يزره الشيب و أراه الثرى‏ |
| زمن الشبيبة لاعدتك تحية |  | و سقاك منهمر الحيا ما استغزرا |
| فلطا لما اضحى ردائي ساحبا |  | في ظلك الوافي و عودي اخضرا |
| أيام يرمقني الغزال إذا رنا |  | شغفا و يطرقني الخيال إذا سرى‏ |
|  |  |  |

معنى‏

|  |
| --- |
| بلغ الشباب مدى الكمال فنورا |

انه تكامل و انتهى الى غايته، و الزرع إذا تكامل و بلغ غايته نور.

و في هذا الموضع زيادة على ما يمضى كثيرا في الشعر من تشبيه الشيب بالنور، لأن ذاك انما يفيد تشبيه به في لونه، و هذا البيت الذي يختص به يريد مع أنه يشبهه في النور ان معنى الشيب مع النور في الظهور و الطلوع عند بلوغ الغاية، و انما أردت تسلية من جزعت من شيبى من النساء بأن الشيب لا بد منه عند الانتهاء الى غايته كما لا بد من النور في هذه الحال.

و لي من أبيات قد ذكرتها فيما خرجته من شعري مثل هذا بعينه، و هو:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و رأت بياضا في نواحي لمة |  | ما كان فيها في الزمان السالف‏ |
| مثل الثغام تلاحقت أنواره‏ |  | عمدا لتأخذه بنان القاطف‏ |
|  |  |  |

و الثغام نور أبيض تشبه العرب به الشيب، فأما البيتان التاليان للبيت الأول فمعناهما واحد، لأن من عمر شاب و الشعر الأسود رهن يشيب مع البقاء أو بالتراب عند الفناء.

و قد تكررت هذه القسمة في كثير من شعري، و أنت ترى ذلك في مواضعه، من جملة ما يشبه ذلك لي‏

ص: 214

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| من عاش لم تجن عليه نوب‏ |  | شابت نواحي رأسه أو هرما |
|  |  |  |

و قولي:

|  |
| --- |
| و من ضل عن أيدي الردى شاب مفرقا |

و هذه القسمة أصح من قسمة البحتري في قولي:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و لا بد من ترك احدى اثنتين‏ |  | اما الشباب و اما العمر |
|  |  |  |

لأن تلك القسمة اشتبهت على الامدي حتى تكلم فيها فيما بينا الزلل منه.

فان قيل: كيف تصح قسمتكم بأنه لا بد من الشيب مع طول العمر و في الناس من لا يشيب على وجه و لا سبب؟

و الجواب عن ذلك: ان في الناس من يتأخر شيبه و لا بد مع استمرار بقائه من بياض سواد شعره و لو كان فيهم من لا يشيب مع البقاء الأطول، و ليس الأمر كذلك لكانت القسمة صحيحة و محمولة على أنه لا بد مع طول العمر من الشيب أو من ورود زمانه، فان زمانه إذا وفد و ورد فهو كالوارد الوافد و ان عاق عنه في بعض الناس عائق. و هذا السؤال لا يتأتى في قولي «شابت نواحي رأسه أو هرما» لأنني جعلت من عاش بين موت أو هرم.

فان قيل: جزع النساء انما هو من الشيب و انما يسلين عنه بأنه لا بد مع العمر من حلوله، و إذا كان منه بد فلا تعزية.

قلنا: انما تجزع النساء من الشيب لما فيه من إضعاف القوة و اكلال الجوارح و إطفاء السورة، و الكبر و الهرم يكون معه ذلك كله، و ان لم يظهر شيب الشعر فقد بان انه لا بد مما يجزع النساء منه.

ص: 215

و لي من قصيدة أولها

|  |
| --- |
| أظنك من جدوى الأحبة قانطا |

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و غر الثنايا رقتهن بلمتى‏ |  | فواعدنها زورا من الشيب و أخطأ |
| سواد يبريني و ان كنت مذنبا |  | و يبسط من عذري و ان كنت غالطا |
| و يسكننى حب القلوب و طالما |  | ألف على ضمي اكفا سبائطا |
|  |  |  |

معنى البيت الأول: ان الحسان اللواتي يوصفن بوضوح الثنايا لما رأين اللمة السوداء فغبطن بها و اغتبطن منها تعللن بأن واعدنها زمان الشيب الذي يمحو حسنها و يذهب بهجتها، و معنى البيت الثاني يجي‏ء كثيرا في الشعر و ان الشباب معذور الجناية مغتفر الذنب و الشيب بالضد من ذلك، و سيجي‏ء من شعري مترددا.

و لي من قصيدة أولها

|  |
| --- |
| حييت يا ربع اللوى من مربعي‏ |

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| شعر شفيعى في الحسان سواده‏ |  | حتى إذا ما أبيض بي لم يشفع‏ |
| عوضت قسرا من غداف مفارقي‏ |  | و هي الغبينة بالغراب الأبقع‏ |
| لون تراه ناصعا حتى إذا |  | خلف الشباب فليس بالمستنصع‏ |
|  |  |  |

من العجب أن تتغير قبول الشفاعة و نجح الوسيلة بتغير الصبغة، و هذا معنى يختص بالسبب.

فأما البيت الأخير فغريب المعنى، لأن لون البياض أنصع الألوان و أشرفها و أحسنها، هذا في الجملة، و إذا كان البياض بدلا من الشباب كان مستقبحا مستهجنا منفورا عنه متباعدا منه. و هذا من عجائب لون الشيب و من لطيف ما نبه عليه و أشير اليه.

و تشبيه الشعر الذي أبيض بعضه و باقية أسود بالغراب الأبقع من غريب التشبيه،

ص: 216

لأن الشعراء قد شبهت الشباب بالغراب و الغداف و أكثرت من ذلك، و ما ورد تشبيه الشيب الممتزج بالغراب الأبقع.

فإن قيل: إذا شبهوا الشباب بالغراب و الغداف قبح هذا التشبيه تشبيه المختلط بالغراب الأبقع. قلنا: هو كذلك، الا أن هذا لا يدفع استغراب هذا التشبيه و انه غير متداول مبتذل.

و ممن سبق الى هذا المعنى أبو حية النميري في قوله:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| زمان علي غراب غداف‏ |  | فطيره الشيب عني فطارا |
|  |  |  |

و وجدت لبعض الأعراب ممن لا أعلم تقدمه لزمان أبي حية أو تأخره:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و كأنما الشيب ألملم بلمتى‏ |  | باز اطار من الشباب غرابا |
|  |  |  |

و نظير بيت الأعرابي قول أبي دلف:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| أرى بازي المشيب أطار عني‏ |  | غرابا حب ذلك من غراب‏ |
|  |  |  |

و مثله لابن المعتز:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و أرسل الشيب في رأسي و مفرقه‏ |  | بزاته البيض في غربانى السود |
|  |  |  |

و نظير قول أبي حية ليزيد بن الطثرية:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و أصيح رأسي كالصخيرة أشرفت‏ |  | عليها عقاب ثم طار غرابها |
|  |  |  |

و لي أيضا:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| صدت و ما صدها الا على يأس‏ |  | من ان ترى صبغ فوديها على رأسي‏ |
|  |  |  |

ص: 217

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| أحب إليها بليل لا يضي‏ء لها |  | إلا إذا لم تسر فيه بمقباس‏ |
| و الشيب داء لربات الحجال إذا |  | رأينه و هو داء ماله آسى‏ |
| يا قربهن و رأسي فاحم رجل‏ |  | و بعدهن و شيبي ناصع عاسى‏ |
| ما ذا يريبك من بيضاء طالعة |  | جاءت بحلمي و زانت بين جلاسى‏ |
| و ما تبدلت الا خير ما بدل‏ |  | عوضت بالشيب أنوارا بأنقاس‏ |
|  |  |  |

معنى البيت الأول انها لم تصد عنه الا بعد يأسها من شبابه و يقينها بفوته.

و البيت الثاني من غريب الصنعة لطيف اللفظ، لأن الليل من شأنه أن يضي‏ء بالأنوار و المصابيح و النجوم، الا الشباب المشبه لليل فإنه يضي‏ء لمبصره و يحسن في عينه إذا كان خاليا من ضوء المشيب و نوره و يظلم إذا طلعت أنوار المشيب و اضواؤه فيه، و هذا عكس المعهود.

و العبارة عن فقد معاينة الشيب فيه بأنها لم تسر فيه بمقباس، لا تجهل بلاغتها و حلاوتها، و النقس المداد و على الظاهر و المعهود، و الأنوار أفضل و أفخر من الأنقاس.

و لي من قصيدة أولها «عل البخيلة ان تجود لعاشق»:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| صدت و قد نظرت سواد قرونها |  | عنى و قد نظرت بياض مفارقي‏ |
| و تعجبت من جنح ليل مظلم‏ |  | أنى رمى فيه الزمان بشارق‏ |
| و سواد رأس كان ربع أحبه‏ |  | رجع المشيب به طلول معاشق‏ |
| يا هند إن أنكرت لون ذوائبى‏ |  | فكما عهدت خلائقى و طرائقى‏ |
| و وراء ما شنئته عينك خلة |  | ما شئت من خلق يسرك رائق‏ |
| أ وميض شيب أم وميض بواتر |  | قطعن عند الغانيات علائقى‏ |
|  |  |  |

ص: 218

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و كأن طلعة شيبة في مفرق‏ |  | عند الغواني ضربة من فالق‏ |
| و معيري شيب العذار و ما درى‏ |  | ان الشباب مطية للفاسق‏ |
| و يقول لو غيرت منه لونه‏ |  | هيهات أبدل مؤمنا بمنافق‏ |
| و الشيب أملا للصدور و ان نبت‏ |  | عن لونه في الوجه عين الرامق‏ |
| و إذا ليالي الأربعين تكاملت‏ |  | للمرء فهو إلى الردي من حالق‏ |
|  |  |  |

أردت انها لما رأت سواد شعرها و بياض شعري ظهر لها تضاد ما بيننا و تباعده فصدت و أعرضت. و تشبيه الشعر الأسود بالليل و الشيب بالنجوم و الشهب قد ذكرنا أنه يتردد في الشعر.

و معنى البيت الثالث: ان الشباب كان للأنس به كالربع المسكون الذي تحله الأحبة، و لما علاه الشيب صار كالطلول، و هي الرسوم التي لا تسكن و لا تحل.

و في البيتين الرابع و الخامس تسلية لمن صد من النساء عن الشيب، لأن الخلائق معه و الطرائق كما عهدت و ألفت و انه لم ينقصن جلدا و لا غير ودا و لا حل عقدا، و ليس يعزى عنه بأبلغ من هذا القول.

و لما كان الشيب قاطعا علائق الغواني و بانا لحبالهن حسن التشكل في بياضه و ومضه هل هو لشيب أم لسيوف بواتر قطعت علائق الحب و وصائله؟

و انما أضفت في البيت السابع الى الغواني إنزال حلول الشيب في الرأس منزلة حلول الضربة الفالقة له، لأن هذا حكم موقوف على الغواني و النساء لأنهن الجازعات من الشيب دون الرجال. و انما عادل النساء بين شيب الرأس و الضربة الفالقة له، لأنه عندهن بعد الشيب لا منفعة فيه و لا متعة به كما لا منفعة بالرأس الفيلق.

و وصفت الشباب في البيت الثامن بأنه مطية الفاسق من حيث الاستعانة به على بلوغ الأغراض و نيل الأوطار، فجرى مجرى المطية التي توصل الى بعيد

ص: 219

الوطر. و هذا أحسن من قول أبي نواس «كأن الشباب مطية الجهل»، و في الناس من يرويه «مظنة» بالظاء المعجمة و النون. و انما تقدم عليه لأن الجهل يرجع الى الاعتقاد بالقلب و ليس للشباب معونة على ذلك، اللهم الا أن يريد بالجهل الأفعال القبيحة التي يدعو إليها الجهل، فقد يسمى ما يدعو اليه الجهل الذي هو الاعتقاد من الأفعال جهلا على سبيل المجاز و الاستعارة.

و هذا ما أراد أبو نواس لا محالة، و الترجيح باق، لأنه استعمل لفظة «الجهل» في غير موضعها، و لأن ليس كل من فعل قبيحا فعن جهل يقبحه، بل أكثر من يرتكب القبيح يرتكبه مع العلم بقبحه، فوصف الشباب بأنه مطية للفاسق أصح معنى و أبلغ لفظا.

فأما وصف الخضاب بأنه منافق و الشباب بأنه مؤمن، فمن غريب الوصف و بديعه، و لا أعرف نظيره. لأن المؤمن ظاهره و باطنه سواء، و الشيب إذا لم يخضب كذلك، و المنافق يخالف ظاهره باطنه، و الشعر المخضوب كذلك.

و أحسن ابن الرومي في قوله يصف الخضاب بأنه لا طائل فيه:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| إذا كنت تمحو صبغة اللَّه قادرا |  | فأنت على ما يصنع الناس اقدر |
|  |  |  |

و لي من قصيدة أولها

|  |
| --- |
| إلا أرقت لضوء برق أومضا |

:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و لقد أتاني الشيب في عصر الصبي‏ |  | حتى لبست به شبابا ابيضا |
| لم ينتقص مني أوان نزوله‏ |  | بأسا أطال على العداة و أعرضا |
| فكأنما كنت امرءا مستبدلا |  | أثوابه كره السواد فبيضا |
|  |  |  |

أردت أن الشيب لما طرق قبل كبر السن و الهرم كان ما يرى من بياض شعره‏

ص: 220

كأنه شباب، لأنه في زمان الشباب و أن صير مظلما لونه، و هذا عكس قول البحتري:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و شبيبة فيها النهي فإذا بدت‏ |  | لذوي التوسم فهي شيب اسود |
|  |  |  |

فشباب أبيض عكس شيب أسود.

و معنى البيتين الأخيرين تردد كثيرا في الشعر، لأن عذر كل من اعتذر للشيب انما هو بأنه ما فل حده و لا أوهن قوته و لا غير حزمه، و قد قال الشاعر:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| لم ينتقص منى المشيب قلامة |  | الان حين بدا أكب و أكيس‏ |
|  |  |  |

و ما تعوض عنه من لون الشباب بلون المشيب بمن استبدل ثوبا أسود بأبيض، من بارع التشبيه و نادرة، لأن تبديل الثياب المختلفة الألوان لا تغير جلدا و لا توهن عضدا، و إذا وصف بمثل ذلك من تغير لون شعره فهو الغاية في المعنى المقصود.

و نظير هذا المعنى بعينه من شعري مما سيجي‏ء ذكره:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| فلا تنكري لونا تبدلت غيره‏ |  | كمستبدل بعد الرداء رداء |
|  |  |  |

و لي أيضا:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| أما الشباب فقد مضت أيامه‏ |  | و استل من كفى الغداة زمامه‏ |
| و تنكرت آياته و تغيرت‏ |  | جاراته و تقوضت آطامه‏ |
| و لقد درى من في الشباب حياته‏ |  | ان المشيب إذا علاه حمامه‏ |
|  |  |  |

و لي أيضا:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| إلا حبذا زمن الحاجري‏ |  | و إذا أنا في الورق الناضر |
|  |  |  |

ص: 221

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| اجرر ذيل الصبي جامحا |  | بلا آمر و بلا زاجر |
| الى ان بدا الشيب في مفرقي‏ |  | فكانت أوائله آخري‏ |
|  |  |  |

المراد بالورق الناضر هاهنا الشباب، و انما يوصف بذلك لغضاضته و بهجته و رونقه.

و معنى‏

|  |
| --- |
| بلا آمر و بلا زاجر |

انه لفرط جماحه و شدة تتابعه لا يؤمر و لا ينهى، لليأس من إقلاعه و انصرافه.

و يحتمل وجها آخر، و هو: أن يكون من حيث عصى العذال و خالف النصحاء كأنه غير مأمور و لا منهي و لا مزجور، و ان كان ممن أمر لفظا و نهي.

و أما

|  |
| --- |
| فكانت أوائله آخري‏ |

فمن الاختصارات البليغة.

و معنى أخرى: نهاية عمري و غاية مدتي. و يقال أيضا: ان يريد انه آخر سروري و لذتي و انتفاعي بالعيش و متعتى، و يجوز أن يكونا جميعا مرادين، فاللفظ يسير و المعنى كثير كما تراه.

و لي من قصيدة أولها

|  |
| --- |
| رضينا من عداتك بالمطال‏ |

:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و بيض راعهن البيض منى‏ |  | فقطعن العلائق من حبالى‏ |
| جعلن الذنب لي حتى كأني‏ |  | جنيت أنا المشيب على جمالي‏ |
| و ليس الشيب من جهتي فالحي‏ |  | و لا رد الشبيبة في احتيالى‏ |
|  |  |  |

معنى البيت الثاني و الثالث يتردد كثيرا في الشعر و في شعري خاصة، و هو حجة لمن عيب بالشيب واضحة، لأن المؤاخذة لا تكون الا بالذنوب و لا صنع لذي الشيب في حلوله به، و قد يتبرأ من الذم به تارة بأنه من غير فعله و لا اختياره‏

ص: 222

و أنه من الدهر و من الأيام، أو من الهموم و الأحزان، أو من صد الحبائب و هجر الصواحب. و سترى ذلك في مواضعه فهو كثير.

و لي من قصيدة أولها

|  |
| --- |
| بقاء و لكن لو أتى لا اذمه‏ |

:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| خطوت مدى العشرين أهزأ بالصبي‏ |  | فلما نأى عني تضاعف همه‏ |
| فيا ليت ما أبقى الشباب و جازه‏ |  | سريعا على علاته لا يؤمه‏ |
| و ليت ثرائى من شباب تعجلت‏ |  | بشاشته عنى تأبد عدمه‏ |
| مشيب اطار النوم عنى أقله‏ |  | فكيف به ان شاع في الرأس عظمه‏ |
|  |  |  |

أردت انني كنت محتقرا لزمان الصبي مستهينا به حتى عدمته فحزنت له، و الشي‏ء لا يظهر فضله الا مع الفقد و البعد.

و أردت بما أبقى الشباب من بقاياه و عقابيله. و يحتمل أن يراد بما أبقاه و خلفه عندي من الشيب، فكأنني أشفقت من لحوق الباقي بالماضي في الذهاب منى و التقضي عنى.

فأما التألم من قليل الشيب فأحسن ما قيل فيه قول ابن الرومي:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| طرقت عيون الغانيات و ربما |  | أمالت الي الطرف كل مميل‏ |
| و ما شبت الا شيبة غير أنه‏ |  | قليل قذاة العين غير قليل‏ |
|  |  |  |

و هذا من بارع المعنى و اللفظ، و لو لم يكن لابن الرومي في الشيب الا هذا البيت الواحد لكفاه.

و قد أعاد ابن الرومي هذا المعنى بعينه في قوله:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| أصبحت أعين الغواني عدتني‏ |  | و لعهدي بها الي تميل‏ |
|  |  |  |

ص: 223

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| طرقتهن شيبة و قذاة العين‏ |  | لا يستقل منه القليل‏ |
|  |  |  |

و بين هذا و بين قوله‏

|  |
| --- |
| قليل قذاة العين غير قليل‏ |

في الفصاحة و البلاغة كما بين سماء و أرض و كل و بعض.

و لي من قصيدة أولها

|  |
| --- |
| ما الحب الا موئل المتعلل‏ |

:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| أما و قد صبغ المشيب ذوائبى‏ |  | للناظرين فلات حين تغزلى‏ |
| و أزال من خطر المشيب توجعى‏ |  | علمي بأن ليس الشباب بمعقل‏ |
| فلئن جزعت فكل شي‏ء مجزعي‏ |  | و لئن أمنت فشيمة المسترسل‏ |
|  |  |  |

معنى البيت الثاني أن الشباب لا يؤمن من خطر الموت و لا يحصن من هجومه فقد لحق بالشيب في تطرق الاخطار اليه، فما معنى التوجع منه و التألم من خطره.

و قد نطق البيت الثالث بأنني إن كنت جازعا فيجب أن أجزع من كل حال لتطرق الاخطار عليها، و ان اطرحت الجزع و لزمت الاستسلام فهي شيمة المسترسل الذي يطيب عيشه و تستمر لذته.

و لي أبيات مفردة في الشيب، و هي:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| أشيب و لما تمض خمسون حجة |  | و لا قاربتنى ان هذا من الظلم‏ |
| و لو أنصفتنى الأربعون لنهنهت‏ |  | من الشيب زورا جاء من جانب الهم‏ |
| قرعت له سني و لو استطيعه‏ |  | قرعت له ما لم تر العين من عظمى‏ |
| يقولون لا تجزع من الشيب ضلة |  | و أسهمه إياي دونهم تصمى‏ |
| و قالوا أتاه الشيب بالحلم و الحجى‏ |  | فقلت بما يبرى و يعرق من لحمي‏ |
|  |  |  |

ص: 224

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و ما سرني حلم يفي‏ء إلى الردى‏ |  | كفاني ما قبل المشيب من الحلم‏ |
| إذا كان ما يعطيني الحلم سالبا |  | حياتي فقل لي كيف ينفعني حزمى‏ |
| و قد جربت نفسي القذاة و قاره‏ |  | فما شد من وهني و لا سد من ثلمى‏ |
| و اني مذ اضحى عذارى قراره‏ |  | فعاد بلا سقم و أجفى بلا جرم‏ |
| و سيان بعد الشيب عند حبائبى‏ |  | وقفن عليه أو وقفن على رسم‏ |
| و قد كنت ممن يشهد الحرب مرة |  | و يرمى بأطراف الرماح كما يرمى‏ |
| الى ان علا هذا المشيب مفارقي‏ |  | فلم يدعني الأقوام الا الى السلم‏ |
|  |  |  |

هذه الأبيات كثيرة المعاني في وصف الشيب جيدة النسج.

و معنى «من جانب الهم» أي من ناحيته لا من ناحية علو السن.

و قد ذكرنا هذا البيت مع نظيره من شعر أبي تمام، و يجي‏ء مثله في الشعر و شعري خاصة كثيرا.

و معنى البيت الثالث: انني قرعت سني هما و حزنا، و لو استطعت لقرعت من عظمي ما هو خاف غير ظاهر للعين. و هذا تأكيد لصولة الهم و سورة الحزن.

و معنى البيت الرابع: أن المعزى لي عن الشيب بنجوة عن سهامه و بعد من إيلامه، فلا نسبة بيننا.

و معنى البيت الخامس: أن الشيب و ان أعطى حلما فقد عرق لحما، فهذا بذاك.

و البيت السادس: تضمن أنه لا منفعة بحلم يفضي الى الموت، لأن الحلم و غيره من أدوات الفضل انما يراد للحياة زينة لها و فخرا فيها، و لا خير فيما أفضى إلى إبطال الحياة، و هي الأصل في المنافع.

و قد ذكرنا هذين البيتين مع نظيرهما من شعر أبي تمام.

و أما قولي «أعاد بلا سقم» فمعناه أن من توجع لي من الشيب و تألم من حلوله‏

ص: 225

بي كأنه عائد لي، لأنه يظهر من الجزع و التألم ما يظهره العائد. و لا شبهة في أن الشيب ليس بسقم على الحقيقة فيعاد صاحبه.

و أما قولي «و أجفى بلا جرم» فيتردد في الشعر كثيرا، و انما يفضل موضع فيه على آخر لحلاوة العبارة و طلاوتها و اختصارها و حسن موقعها.

و تشبيه وقوف النساء على الشيب بوقوفهن على الرسم الدارس المحيل واقع، لأن الرسم لا منفعة في التعريج اليه و الوقوف عليه و لا فائدة فيه و لا متعة به، و كذلك الشيب عند النساء. و لا شبهة في أن ذا الشيب يستضعف جلده فلا يدعى الى الحرب و انما يدعى للسلم و الموادعة. و هذا من جهات ذم الشيب.

و لي في الشيب، و هي قطعة مفردة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| شعر ناصع و وجه كئيب‏ |  | ان هذا من الزمان عجيب‏ |
| يا بياض المشيب لونك لو |  | أنصفت رائيك حالك غربيب‏ |
| صد من غير أن يمل و ما |  | أنكر شيئا سواك عنى الحبيب‏ |
| يا مضيئا في العين تسود منه‏ |  | كل يوم جوانح و قلوب‏ |
| ليس لي مذ حللت يا شيب في‏ |  | رأسي كرها عند الغواني نصيب‏ |
| و لخير من لونك اليقق المشرق‏ |  | عندي و عندهن الشحوب‏ |
| رحن يدعونني معيبا و ينبذن‏ |  | عهودى و أنت تلك العيوب‏ |
|  |  |  |

أردت أن نصوع الشعر و إشراقه يضاد اكتئاب الوجه و قطوبه فكيف اتفقا، و هذا يحقق أن النصوع و الإشراق محمود في كل شي‏ء إلا في لون الشيب.

و معنى «ان لونك حالك غريب لو أنصفت» لأنه جالب للهم و الحزن،

ص: 226

و السواد بذلك أحق من البياض. و يحقق ذلك البيت الرابع.

و انما جعلت الشيب رقيبا على الغانيات، لأنه يحشمهن من وصلي و يبعدهن عن قربى. و هذا معنى الرقيب.

و لي من قصيدة أولها

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| ريعت لتنعاب الغراب الهاتف‏ |  | و رأت بياضا في نواحي لمة |
| ما كان فيها في الزمان السالف‏ |  | مثل الثغام تلاحقت أنواره‏ |
| عمدا لتأخذه بنان القاطف‏ |  | و لقد تقول و من اساها قولها |
| ما كان هذا في حساب العائف‏ |  | اين الشباب و اين ما يمشى به‏ |
| في البيض بين مساعد و مساعف‏ |  | ما فيك يا شمط العذار لرامق‏ |
| عبق الجوانح بالهوى من شاعف‏ |  | فليخل قلبك من أحاديث الهوى‏ |
| و ليخل غمضك من مطيف الطائف‏ |  |  |

أردت بقولي‏

|  |
| --- |
| عمدا لتأخذه بنان القاطف‏ |

انه قد انتهى بطلوع النور فيه الى غايته و استقطف للبنان. و هذه إشارة الى أن الشيب يكون آخر العمر و انقطاع أمده.

و لي من قصيدة أولها

|  |
| --- |
| أ أغفل و الدهر لا يغفل‏ |

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و لما بدا شمط العارضين‏ |  | لمن كان من قبله يعذل‏ |
| تتاهوا و قالوا لسان المشيب‏ |  | لحسن جوارحنا اعزل‏ |
| فقلت لهم انما يعذل‏ |  | المشيب على الغي من يقبل‏ |
| ا من بعد أن مضت الأربعون‏ |  | سراعا كسرب القطا يجفل‏ |
| و لم يبق فيك لشرخ الشباب‏ |  | مآب يرجى و لا موئل‏ |
|  |  |  |

ص: 227

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| تطامح نحو طويل الحياة |  | و يوشك أن ما مضى أطول‏ |
|  |  |  |

معنى‏

|  |
| --- |
| انما يعذل المشيب من يقبل‏ |

أي ينتفع بعذله من يقبل، و جعلت من لم ينتفع بالعذل كأنه غير معذول، كما قال اللَّه تعالى‏ «إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشاها»[[113]](#footnote-113)) و قوله جل و عز «إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ»[[114]](#footnote-114).

و لي من قصيدة أولها

|  |
| --- |
| أ منك سرى طيف و قد كاد لا يسرى‏ |

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و بيض لواهن المشيب عن الهوى‏ |  | فأنزرن من وصلي و اوسعن من هجري‏ |
| و ألزمننى ذنب المشيب كأنما |  | جنته يداي عامدا لا يد الدهر |
| أ من شعرات حلن بيضا بمفرقي‏ |  | ظننتن ضعفي أو اسيتن من عمري‏ |
| لحاكن ربي انما الشيب فسحة |  | لما فات في شرخ الشبيبة من أمر |
| سقى اللَّه أيام الشبيبة ريها |  | و رعيا لعصر بان عنى من عصر |
| ليالي لا يعدو جمالي منيتي‏ |  | و لم تردد الحسناء نهيي و لا امري‏ |
| و ليل شبابي غارب النجم فاحم‏ |  | ترى العين تسرى فيه دهرا بلا فجر |
| و إذ أنا في حب القلوب محكم‏ |  | و أفئدة البيض الكواعب في اسرى‏ |
|  |  |  |

الاعتذار من الشيب بأنه من جناية الدهر و لا عذر لذي الشيب فيه، يجي‏ء كثيرا في الشعر، و ستراه من شعري في عدة مواضع بعبارات تختلف في ضيق و سعة و اختصار و اطالة و تتفق في عذوبة و رطوبة.

و معنى الشيب فسحة أن المرء يستدرك في زمان الشيب ما فاته في زمان الشباب من صيانة و ديانة، و يتلافى ما لعله فرط فيه و ضيع.

ص: 228

و أردت بقولي «لا يعدو جمالي منيتي» انني إذا تمنيت لم يتجاوز مناي ما أنا عليه من الجمال و الكمال. و هذا يدل على كمال الجمال و بلوغه الغاية.

و معنى «ليل شبابي غارب النجم» أي لا شيب فيه و مثله ترى العين تسري فيه دهرا بلا فجر. و حظ هذا البيت من اختصار و بلاغة غير مجهول.

و لي من قصيدة أولها

|  |
| --- |
| قد هويناه ناقضا للعهود |

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| قلن لما رأين و خطا من الشيب‏ |  | برأسي أعيا على مجهودي‏ |
| كسنا بارق تعرض وهنا |  | في حواشي بعد الليالي السود |
| أبياض مجدد من سواد |  | كان قدما لا مرحبا بالجديد |
| يا لحاكن من رماكن‏ |  | بالحسن لتنهرننا بغير جنود |
| ليس بيضى منى فأجرى عليهن‏ |  | صدودا و ليس منكن سودى‏ |
| قل ما ضركن من شعرات‏ |  | كن يوما على الوقار شهودي‏ |
|  |  |  |

معنى «أعيا على مجهودي» أي ضقت ذرعا بدفعه.

و البيت الثاني في الغاية من وصف الشيب بالجفاء و عدم الشمول و الظهور، و يجري في التوقي من غاية إلى أخرى مجرى قول الراعي:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| كدخان مرتحل بأعلى تلعة |  | غرثان ضرم عرفجا مبلولا |
|  |  |  |

و معنى «لا مرحبا بالجديد» استثقال المشيب و ان كان جديدا، و من شأن كل جديد أن تسر النفوس به في الغالب الا للشيب.

و معنى «ليس بيضى مني» ما يتكرر من أنه لا صنع لي في الشيب فأؤاخذ به.

و معنى «و ليس منكن سودي» أي ليس شبابي من جهتكن فتسرفن في التلهف‏

ص: 229

على فوته و التأسف على فراقه.

فأما

|  |
| --- |
| كن يوما على الوقار شهودي‏ |

فيشهد لنفسه بالبراعة.

و لي و قد سئلت نقض قول جرير:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| تقول العاذلات علاك شيب‏ |  | أ هذا الشيب يمنعني مراحى‏ |
| و ما مرح الفتى تزور عنه‏ |  | خدود البيض بالحدق الملاح‏ |
| و يصبح بين اعراض مبين‏ |  | بلا سبب و هجران صراح‏ |
| و قالوا لا جناح فقلت كلا |  | مشيبي وحده فيكم جناحي‏ |
| أ ليس الشيب يدنى من مماتي‏ |  | و يطمع من قلاتى في رواحي‏ |
| مشيب شن في شعر سليم‏ |  | كشن العر في الإبل الصحاح‏ |
| كأني بعد زورته مهيض‏ |  | ادف على الوطيف بلا جناح‏ |
| أو العاني تورط في الأعادى‏ |  | من عليه مطلع السراح‏ |
| سقى اللَّه الشباب الغض راحا |  | عتيقا أو زلالا مثل راحى‏ |
| ليالي ليس لي خلق معيب‏ |  | فلا جسدي يذم و لا مزاحي‏ |
| و إذ أنا من بطالات التصابي‏ |  | و نشوات الغواني غير صاح‏ |
| و إذا أسماعهن الي ميل‏ |  | يصخن الى اختياري و اقتراحي‏ |
|  |  |  |

إنما أردت كيف يمرح من يعرض عنه من النساء حسانهن و جفونه و قطعنه، و أي متعة في العيش لمن كان بهذه الصفة.

و قولي في البيت الثاني «بلا سبب» هو في موضع الحشو، لكنه حقق المعنى المقصود و تممه، و لا يكادون يسمون من كان بهذا الموقع حشوا.

و معنى‏

|  |
| --- |
| و يطمع من قلاتي في رواحي‏ |

أي في مماتي و انصرافي عن الدنيا،

ص: 230

يقال راح الرجل إذا مات.

و العر: الجرب. و من حسن التشبيه اجراء الشيب في حلوله بالشعر الأسود مجرى الجرب في وقوعه بالإبل الصحاح، لأنه و ان لم يماثله من جهة اللون فهو في معناه يشاكله، لأن العر إذا أصاب الإبل بوعدت من الصحاح منها و هجرت خوف العدوي، و من شاب شعره مجفو بين النساء مقاطع مباعد.

و الأبيات كما ترى مبصورة الأغراض سليمة الألفاظ.

و لي من قصيدة أولها

|  |
| --- |
| هل أنت من وصب الصبابة ناصري‏ |

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| ما لي و للبيض الكواعب هجن لي‏ |  | بلوى الثوية ذكرة من ذاكر |
| شيبننى و ذممن شيب مفارقي‏ |  | خذها إليك قضية من جائر |
| لا مرحبا بالشيب أظلم باطني‏ |  | لما تجللني و أشرق ظاهري‏ |
| شعر أبي لي في الحسان اصاخة |  | يوم العتاب الى قبول معاذرى‏ |
| مثل الشجاة ملظة في مبلع‏ |  | أو كالقذاة مقيمة في الناظر |
| لا ذنب لي قبل المشيب و اننى‏ |  | لمؤاخذ من بعده بجراثر |
|  |  |  |

لا شبهة في أن أجور الناس من فعل شيئا ثم ذمه و عابه.

و معنى «أشرق ظاهري و أظلم باطني» قد مر تفسير مثله.

و البيت الأخير معناه: ان ذنوب الشباب مغفورة و ان وقعت و ذو الشيب يؤاخذ بما جناه و ما لم يجنه تجرما عليه.

و لي من قصيدة أولها

|  |
| --- |
| يا طيف ألا زرتنا بسواد |

ص: 231

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و مخضب الأطراف صد بوجهه‏ |  | لما رأى شيبي مكان سوادي‏ |
| و الغانيات لذي الشباب حبائب‏ |  | و إذا المشيب دنا فهن اعادى‏ |
| شعر تبدل لونه فتبدلت‏ |  | فيه القلوب شناءة بوداد |
| لم تجنه الا الهموم بمفرقى‏ |  | و يخال جاء به مدى ميلادى‏ |
|  |  |  |

ما تحتاج هذه الأبيات الى منبه على سباطتها و عذوبة ألفاظها و ان ماء القبول فيها مندفق مترقرق.

و لي من قصيدة أولها

|  |
| --- |
| يا راكبا وصل الوجيف زميله‏ |

:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| من مانع عنى و قد شحط الصبي‏ |  | شيبا على الفودين آن نزوله‏ |
| وافى هوي السلك خر نظامه‏ |  | و الشعب سال على الديار مسيله‏ |
| سبق احتراسى من أذاه بضيئه‏ |  | لما تجللني فكيف عجوله‏ |
| ما ضره لما أراد زيارة |  | لو كان بالإيذان جاء رسوله‏ |
| لا مرحبا ببياض رأسي زائرا |  | أعيا علي حلوله و رحيله‏ |
| من كان يرقب صحة من مدنف‏ |  | فالشيب داء لا يبل عليلة |
| نصل الشباب الى المشيب و انما |  | صيغ المشيب الى الفناء نصوله‏ |
| ان البهيم من الشباب ألذ لي‏ |  | فلتعدنى أوضاحه و حجوله‏ |
| أعجب به صبحا يرد ظلامة |  | و شهاب داجية يحب أفوله‏ |
| قالوا المشيب نباهة و أود أن‏ |  | يبقى علي من الشباب خموله‏ |
| و الفضل في الشعر البياض و ليته‏ |  | لم يشجني بفراقه مفضوله‏ |
|  |  |  |

الفودان جانبا الرأس. و البيت الثاني الذي أوله «وافى هوي السلك» أبلغ‏

ص: 232

من قول البحتري مشيب كبت السوعى بحمله محدثه، لأن البحتري لم يخرج نزول الشيب من أن يكون مستندا إلى إيثار مؤثرة و ان توفرت دواعيه، و البيت الذي لي يزيد على ذلك بالإضافة على ما يقع وجوبا، اما بالطبع على قول من أثبته أو على جهة الوجوب، فهو أشد استيفاء للمعنى.

و لا بد من تقدير ما يضاف الى الشعب مما يليق به لأنه معطوف على السلك و السلك يليق بالهوى و لا يليق ذلك بالشعب، فيجب أن يقدر فعل يليق به مثل سيل الشعب أو ما أشبهه.

و قد ذكرت ما يشبه بعض الشبه في البيت الثالث من هذه الأبيات عند ذكر ما أخرجته للبحتري.

فأما البيت الرابع فمعناه: ان الشيب هجم بغتة و فجأة، فما ضره أو قدم له نذيرا يشعر بوفوده و قرب وروده، فيكون حمله أخف و خطبة أهون.

و معنى‏

|  |
| --- |
| أعيا علي حلوله و رحيله‏ |

انني لا أطيق دفع نزوله إذا نزل كما لا أطيق دفع رحيله إذا رحل و فارق بالموت و الفناء و كأنني مقهور عليه في جميع أحواله. و جعلت نصول الشيب الى الفناء كما كان نصول الشباب الى الشيب، و كما كان الفناء عاقبة الشيب كان الشيب عاقبة الشباب و غايته.

و ما عدا هذا من الأبيات واضح المعنى، يسبق الفهم اليه من غير تأمل.

و لي من قصيدة أولها

|  |
| --- |
| أمالك من مشيب ما امالا |

:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و كان الدهر ألبسني سوادا |  | أروق به الغزالة و الغزالا |
| نعمت بصبغة زمنا قصيرا |  | فلما حالت الأعوام حالا |
|  |  |  |

ص: 233

و لي من قصيدة أولها

|  |
| --- |
| ارقت للبرق بالعلياء يضطرم‏ |

:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و عيرتني مشيب الرأس خرعبة |  | و رب شيب بدا لم يجنه الهرم‏ |
| لا تتشكى كلوما لم تصبك فما |  | يشكو أذى الشيب الا القدر و اللهم‏ |
| شيب كما شب في جنح الدجى قبس‏ |  | أو انجلت عن تباشير الضحى ظلم‏ |
| ما كنت قبل مشيب بات يظلمني‏ |  | لظالم أبد الأيام أنظلم‏ |
|  |  |  |

الخرعبة من النساء: الناعمة، و يقاربه في المعنى الخرعوبة، لأن الخراعيب الأغصان الرطبة السبطة.

و معنى‏

|  |
| --- |
| و رب شيب بدا لم يجنه الهرم‏ |

لا تعيري بما لا تعلمين أنه عن هرم و ضعف و نفاد عمر، فان الشيب ربما كان عن غير كبر و لا هرم، و هذه محاسبة صحيحة.

و معنى البيت الثاني: ان الشيب ان كان عيبا أو داء فهو بغيرك لا بك، فلا تتشكى منه.

و البيت الثالث قوي في حسن العبارة عن وضوح الشيب و ظهوره.

و البيت الرابع يتضمن غاية التمدح، لأنه كان يظلم من يظلمه و يقهره الا الشيب فإنه عزيز منيع الجانب. و له نظائر في شعري منها و سيجي‏ء:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و لو جنته يد ما كنت طائعها |  | لكن جناه على فودي غير يد |
|  |  |  |

و لي من قصيدة أولها

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| «أ ترى يؤوب لنا الابيرق‏ |  | و المنى للمرة شغل» |
|  |  |  |

. و تعجبت جمل لشيب مفارقي و تشيب جمل‏

ص: 234

و رأت بياضا ما رأته بدا هناك سواه قبل كذبالة رفعت على الهضبات للسارين ضلوا لا تنكريه و بت غيرك فهو للجهلات غل أي المفارق لا يزار بذا البياض و لا يحل معنى البيت الأول: لا تعيبي ما أنت شريكة فيه و صائرة اليه، و ورد بأخصر لفظ.

و عليه سؤال، و هو أن يقال: قد لا تشيب جمل بأن تموت، فالشيب ليس بواجب لها.

قلنا: المراد انك إذا عمرت عمري و بلغت سني فلا بد من شيبك، لأنها عيرت و تعجبت من الشيب مع السن و هي شريكة في ذلك لا محالة.

و البيت الثاني في اشتهار الشيب و وضوحه بديع بليغ.

و العبارة بأنه «للجهلات غل» من حيث انه قبض عن الشهوات و صرف عن المنكرات، من أبلغ عبارة.

و البيت الثالث تفسير الأول و تأكيد له، و مثل و تشيب جمل قولي:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و عيرتني شيبا ستكسين مثله‏ |  | و من ضل عن أيدي الردى شاب مفرقا |
|  |  |  |

و لي من قصيدة أولها

|  |
| --- |
| نولينا منت الغداة قليلا |

:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| جزعت للمشيب جانبة الشيب‏ |  | و قالت بئس النزيل نزيلا |
| و رأت لمة كان عليها |  | صارما من مشيبها مسلولا |
| راعها لونه و لم تر لو لا |  | عنت الغانيات منه مهولا |
|  |  |  |

ص: 235

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| عاينت لونه و الحوادث ينكرن‏ |  | طلوعا لم ترج منه افولا |
| لا تذميه فالمشيب على طول‏ |  | بقاء الفتى يكون دليلا |
| ان لون الشباب حال إذا امتد |  | زمان انى لها أن تحولا |
| لو تخيرت و السواد ردائي‏ |  | ما أردت البياض منه بديلا |
| و حسام الشباب غير صقيل‏ |  | هو أشهى إلي منه صقيلا |
| قد طلبنا فما وجدنا عن الشيب‏ |  | محيصا يجيرنا أو مميلا |
|  |  |  |

لمعنى البيت الأول نظائر كثيرة في الشعر و في شعري خاصة سترى في مواضعها، و لتشبيه الشيب في لونه بالسيف نظائر كثيرة في شعري خاصة و غيره عامة. و هذا البيت يفيد تشبيه الشيب بالسيف لونا و قطعا لحبال المودة و ارهابا لمن حل به و جرد في ذوائبه.

و معنى‏

|  |
| --- |
| طلوعا لم ترج منه أفولا |

أن لون الشيب كما لا يحول و لا يزول كلون الشباب فهو ملازم لانقضاء العمر.

و معنى البيت الخامس: ان المشيب لا يظهر في الأغلب الأكثر إلا مع امتداد العمر و طول البقاء فكيف يعاب و يذم، و هو شاهد بطول البقاء. و هذا تمحل و تعلل في الاعتذار للشيب، لأن قائلا لو قال: كما شهد بطول بقاء متقدم، فهو شاهد و دليل على قصر ما بقي من العمر، و لأن صاحبه أقرب الى الفناء من صاحب الشباب لما كان جوابه، الا أن هذا القول ألطف ما تمحل و استخرج في التسلية عن الشيب و التجلد على مصاحبته.

و لي من قصيدة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| عرفت الديار كسحق البرود |  | كأن لم تكن لانيس ديارا |
|  |  |  |

ص: 236

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و قالوا و قد بدلت حادثات‏ |  | زماني ليل شبابي نهارا |
| أتاه المشيب بذاك الوقار |  | فقلت لهم ما أردت الوقارا |
| فيا ليت دهرا أعار السواد |  | إذا كان يرجعه ما اعارا |
| و ليت بياضا أراد الرحيل‏ |  | عقيب الزيارة ما كان زارا |
|  |  |  |

إنما أردت: لا خير في وقار يؤيس من الحياة و يدني الى المنية و يسلب القوة و يورث الضعف، و طالما استعفى الشعراء من وقار الشيب و أبهته و تجاوزوا ذلك الى كراهية المخاطبة بما يقتضي علو السن و تصرم زمان الحداية، قال مضرس ابن ربعي الأسدي:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| لحي اللَّه وصل الغانيات فاننا |  | نراهن لمحا لا ينال و خلبا |
| إذا ما دعين بالكنى لا يريننا |  | صديقا و لم يقربن من كان اشيبا |
|  |  |  |

و مثله للأخطل:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و إذا دعوتك يا أخي فإنه‏ |  | ادنى إليك مودة و وصالا |
| و إذا دعوتك عمهن عن‏ |  | نشب يزيدك عندهن خبالا |
|  |  |  |

و للبحتري ما له بهذا بعض الشبه:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| يتبرجن للغرير المسمى‏ |  | من تصاب دون الخليل المكنى‏ |
|  |  |  |

و نظير ذلك كله قول ابن الرومي:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| أصبحت شيخا له سمت و أبهة |  | يدعونني البيض عما تارة و أبا |
| و تلك حالة إجلال و تكرمة |  | وددت اني معتاض بها لقبا |
|  |  |  |

و له أيضا

ص: 237

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| راع ألمها شيبي و فيه أمانها |  | من أن تصيد رميهن سهامي‏ |
| و عففني لما ادعين عمومتي‏ |  | و من النساء معقة الأعمام‏ |
|  |  |  |

و لبعضهم و هو ضعيف اللفظ:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| قالت و قد راعها مشيبي‏ |  | كنت ابن عم فصرت عما |
| فقلت هذا و أنت أيضا |  | قد كنت بنتا فصرت اما |
|  |  |  |

و لابن المعتز ما له بعض النظر بهذا المعنى يصف دليل قوم في مفازة و انهم عند خوف العطش يكنونه إجلالا له و طلبا لمرضاته و إذا بلغوا الماء دعوه باسمه استغناء عنه، و هو قوله:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| ثم استنارهم دليل فارط |  | يسموا لبغيته بعيني أجدل‏ |
| يدعى بكنيته لأول ظمئها |  | يوما و يدعى باسمه في المنهل‏ |
|  |  |  |

و لي من قصيدة أولها

|  |
| --- |
| تلك الديار برامتين همود |

:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و غرائر أنكرن شيب ذوائبى‏ |  | و البيض منى عندهن السود |
| انكرن داء ليس فيه حيلة |  | و ذممن مفضى ليس عنه محيد |
| يهوى الشباب و ان تقادم عهده‏ |  | و يمل هذا الشيب و هو جديد |
| لا يبعدن عهد الشباب و من جوى‏ |  | أدعو له بالقرب و هو بعيد |
| أيام أرمي باللحاظ و ارتمى‏ |  | و أصاد في شرك الهوى و أصيد |
|  |  |  |

معنى‏

|  |
| --- |
| و البيض مني عندهن السود |

ان الذي أبيض من شعري مسود في فؤادي.

و البيت الثالث قوي اللفظ و العبارة، لأن من شأن من تتطاول صحبته أن يمل و الشباب تستمر محبته مع استمرار صحبته، و من شأن الجديد أن لا يكون مملولا

ص: 238

و الشيب يمل جديدا، فقد انتقضت العادة المألوفة في غير الشباب و الشيب بهما و فيهما.

و لي من قصيدة أولها

|  |
| --- |
| لو كنت في مثل حالي لم ترد عذلي‏ |

:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| صدت اسيماء و الحراس قد هجعوا |  | و الصد ان لم يكن خوفا فعن ملل‏ |
| و رابها من بياض الشيب منظرة |  | كانت أذى و قذى في الأعين النجل‏ |
| يا ضرة الشمس الا أنها فضلت‏ |  | بأن شمس الضحى زالت و لم تزل‏ |
| قومي انظري ثم لومى فيه أو فذرى‏ |  | الى عذار بضوء الشيب مشتعل‏ |
| حنيته و جعلت الذنب ظالمة |  | لما تصرم من أيامي الأول‏ |
| تقول لي و دموع العين واكفة |  | خريدة كرهت فقد الشبيبة لي‏ |
| برد الشباب ببرد الشيب تجعله‏ |  | مستبدلا بئسما عوضت من بدل‏ |
| شمر ثيابك من لهو و من اشر |  | و عد دارك عن وجد و عن غزل‏ |
|  |  |  |

لما قلت «يا ضرة الشمس» و كان في هذا تشبيه لها بالشمس و نظير لها بها، لم أرض بذلك حتى فضلتها على الشمس، بأن الشمس تزول و تحول و هذه لا تزول.

و أما البيت الخامس فقد مضت له نظائر في شعري و سيمضي مثلها، و قد استوفى هذا البيت المعنى و لم يترك منه بقية تستدرك في غيره.

و الخريدة من النساء: الخفرة المصونة، و جمعها خرائد، يقولون خرد من الشمس إذا استتر عنها. و الخريدة أيضا: اللؤلؤة التي لم تثقب، و المعنى في كل ذلك يتقارب.

و لي من قصيدة أولها

|  |
| --- |
| أعلى العهد منزل بالجناب‏ |

ص: 239

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| ان نعما و كان قلبي في ما |  | ألفته موكلا بالتصابى‏ |
| سألتني عن الهوى في ليال‏ |  | ضاع فيهن من يدي شبابي‏ |
| فمتى ما أجبتها بسوى ذكر |  | مشيبي فذاك غير جوابي‏ |
| صار منى مثل الثغامة ما كان‏ |  | زمانا محلولكا كالغراب‏ |
| ليس يبقى شي‏ء على عهده‏ |  | الأول في كر هذه الأحقاب‏ |
| من عذيري من المشيب و قد |  | صار بعيد الشباب من أثوابي‏ |
|  |  |  |

معنى قولي «فمتى ما أجبتها» البيت: اننى ان أجبتها و قد سألتني عما عهدته مني من الهوى و التصابي بأن المشيب في ذهاب ذلك عنى و نفاده منى غير معيب، فما أجبت بالجواب الصحيح الصادق. و هذا تحقيق كما تراه، لأن الشيب أثر في هواه الذي كان معهودا منه.

فأما الثغام فهو نور شديد البياض تشبه العرب به الشيب.

و أما البيت الأخير فمعناه: انه لا دواء لوصب المشيب و لا شفاء منه، لأنه لا دواء الا ما يذوقه الساقي، فإذا لم يكن فيه شفاء و لا دواء للشيب فلا دواء له و لا علاج.

و لي من قصيدة أولها

|  |
| --- |
| هل هاج شوقك صوت الطائر الغرد |

:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| من عاذري في الغواني غب منتشر |  | من المشيب كنوار الضحى بدد |
| وافى و لم يبغ منى ان أهيب به‏ |  | و حل منى كرها حيث لم أرد |
| و لو جنته يد ما كنت طائعها |  | لكن جناه على فودي غير يد |
|  |  |  |

لم أرض بأن جعلته نورا حتى أضفته إلى الضحى ليكون أظهر له و أشهر.

و للبيت الثاني حظ من البلاغة، و لا أعرف له على جهته نظيرا، فكأنني قلت‏

ص: 240

انه لو جناه علي- اعنى الشيب- غير اللَّه تعالى الذي لا يغالب و لا يمانع لما أطعته و لا أنقدت له. و هذه غاية التعزز و الافتخار.

فان قيل: كيف سمى ما يفعله اللَّه تعالى بأنه جناية، و هذه اللفظة لا تستعمل في المتعارف إلا في ما كان قبيحا.

قلنا: سميناه بهذا الاسم استعارة و تجوزا ليطابق و يجانس قولي‏

|  |
| --- |
| و لو جنته يد ما كنت طائعها |

، و له نظائر كثيرة في القرآن و الشعر، قال اللَّه تعالى‏ «وَ جَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها»[[115]](#footnote-115)) و «فَمَنِ اعْتَدى‏ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدى‏ عَلَيْكُمْ»[[116]](#footnote-116).

و لي في التسلية عن الشيب و الاعتذار بحلوله، و هي قطعة مفردة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| أ ماوي ان كان الشباب الذي انقضت‏ |  | لياليه عني شاب منك صفاء |
| فما الذنب لي في فاحم حال لونه‏ |  | بياضا و قد حال الظلام ضياء |
| و ما ان عهدنا زائلا حان فقده‏ |  | و ان كان موقوفا أزال اخاء |
| و لو كان في ما يحدث الدهر حيلة |  | أبيت على هذا المشيب إباء |
| فلا تنكري لونا تبدلت غيره‏ |  | كمستبدل بعد الرداء رداء |
| فاني على العهد الذي تعهديته‏ |  | حفاظا لما استحفظتنى و وفاء |
| مشيب كفتق الليل في مدلهمة |  | أتاك يقينا أو أزال مراء |
| كأن الليالي عنه لما رمينني‏ |  | جلون صداء أو كشفن غطاء |
| فلا تجعلي ما كان منك من الأذى‏ |  | عقابا لما لم آته و جزاء |
| و عدي بياض الرأس بعد سواده‏ |  | صباحا اتى لم أجنة و مساء |
|  |  |  |

ص: 241

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و لا تطلبي شيئا يكون طلابه‏ |  | و قد ضل عنه رائدوه عناء |
| فإنك إن ناديت غب تلهف‏ |  | شبابا و قد ولي أضعت نداء |
|  |  |  |

قد تضمنت هذه الأبيات من الاعتذار بحلول الشيب و التسلية عنه و التنزيه لمن حل به من تبعته و تمثيله بكل ما لا حيلة في حئوله عن صبغته و تغيره عن صفته ما لا يكاد يجتمع في مكان واحد.

فأما الطلاوة و الحلاوة فمحكم فيها العدو و الحاسد فضلا عن المنصف و الناقد، و لا حاجة بها الى تفسير لمعانيها و إيضاح لفوائدها، فليس يفسر الا بما عبارتها عنه أوضح و أصح.

و لك أيها الناقد الخبير في البيت الذي عجزه «أتاك يقينا أو أزال مراء» و البيت الذي يليه مسرح طويل في الاستحسان ان كنت منصفا فبلسانك و ان كنت ظالما غامطا فبقلبك.

و معنى‏

|  |
| --- |
| أبيت على هذا المشيب إباء |

أي كنت آبى عليه الا بالذي يمنع جانبي منه و يؤمنني ريبه و شره، و يجري ذلك مجرى قوله تعالى‏ «فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتاباً»[[117]](#footnote-117) اي عظيما مقبولا.

و معنى‏

|  |
| --- |
| كمستبدل بعد الرداء رداء |

أي انه لم يغير منى جلدا و لا أوهن قوة و لا اكسبنى ضعفا و عجزا، فجرى مجرى من تبدل رداء بغيره في أن أحواله في نفسه ما تبدلت و لا تغيرت.

و لي و هي قطعة مفردة:

ص: 242

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| عجبت لشيب في عذارى طالعا |  | عليك و ما شيب امرئ بعجيب‏ |
| و رابك سود حلن بيضا و ربما |  | يكون حئول الأمر غير مريب‏ |
| و ما ضرني و العهد غير مبدل‏ |  | تبدل شرخى ظالما بمشيبى‏ |
| و ما كنت أخشى ان تكون جناية |  | المشيب برأسي في حساب ذنوبي‏ |
| و لا عيب لي إلا المشيب و حبذا |  | إذا لم يكن شيئا سواه عيوبي‏ |
|  |  |  |

معنى‏

|  |
| --- |
| و لا عيب لي إلا المشيب‏ |

ليس بمعنى أن المشيب عيب، لكن المراد لا عيب لي عند من عابني بالمشيب الا هو، ثم صرحت بأنني راض بأن لا يكون لي عيب سواه، لأنه في نفسه أولا ليس بعيب، فكأننى قلت اننى راض بأنه لا عيب لي. و أيضا فإذا كان لا عيب لي عند من أعنتني و عابني ما ليس بعيب سوى المشيب، فقد رضيت بذلك، و ان يكون غاية ما يعتني به المعنتون انما هو الشيب من غير ثان له و لا مضموم اليه.

و لي و هي قطعة مفردة محيطة بأوصاف المشيب المختلفة و قلما تجتمع هذه الأوصاف في موضع واحد:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| هل الشيب الا غصة في الحيازم‏ |  | و داء لربات الخدور النواعم‏ |
| يحدن إذا ابصرنه عن سبيله‏ |  | صدود النشاوى عن خبيث المطاعم‏ |
| تعممته بعد الشبيبة ساخطا |  | فكان بياض الشيب شر عمائمى‏ |
| و قنعت منه بالمخوف كأننى‏ |  | تقنعت من طاقاته بالاراقم‏ |
| و هيبنى منه كما هاب عائج‏ |  | على الغاب هبات الليوث الضراغم‏ |
| و هددنى في كل يوم و ليلة |  | سنا ومضه بالقارعات الحواطم‏ |
| كفاني عذالي على طربة الصبي‏ |  | و قام بلوم عفته من لوائمى‏ |
|  |  |  |

ص: 243

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و قلص عنى باع كل لذاذة |  | و قصر دوني خطو كل مخالم‏ |
| فو اللَّه ما أدرى أ صكت مفارقي‏ |  | بفهر مشيب أم بفهر مراجم‏ |
| و لما سقانيه الزمان شربته‏ |  | كما أوجر المأسور مر العلاقم‏ |
| حنتني منه الحانيات كأننى‏ |  | إذا ظلت يوما قائما غير قائم‏ |
| و أصبحت تستبطا منوني و يدعى‏ |  | و ما صدقوها في اختلال العزائم‏ |
| فلا انا مدعو ليوم تفاكه‏ |  | و لا انا مرجو ليوم تخاصم‏ |
| فلا تطلبا منى لقاء محارب‏ |  | فما أنا إلا في ثياب مسالم‏ |
| و لا يدفعني عنكما غشم غاشم‏ |  | فانى في أيدي المشيب الغواشم‏ |
| فلو كنت آسو منكما الكلم ما رأت‏ |  | عيونكما عندي كلوم الكوالم‏ |
| و انى أميم بالشيب فخليا |  | و لا تبغيا عندي علاج الامائم‏ |
| مشيب كخرق الصبح عال بياضه‏ |  | مجروء الليالي الحالكات العواتم‏ |
| و تطلع في ليل الشباب نجومه‏ |  | طلوع الدراري من خلال الغمائم‏ |
| كأني منه كلما رمت نهضة |  | الى اللهو مقبوض الخطى بالأداهم‏ |
| تساندنى الأيدي و قد كنت برهة |  | غنيا بنفسي عن دعام الدعائم‏ |
| و قد كنت إباء على كل جاذب‏ |  | فلما علاني الشيب لأنت شكائمي‏ |
| و اخشع في الخطب الحقير ضراعة |  | و قد كنت دفاعا صدور العظائم‏ |
| و كانت تغير الأغبياء نضارتى‏ |  | فأصبحت ندمان الغيور المعارم‏ |
| و لما عرانى ظلمه فحملته‏ |  | انست على عمد بحمل المظالم‏ |
| فلا ينغضن رأس إلى العز بعد ما |  | تجلله منه مذل الجماجم‏ |
| فيا صبغة حملتها غير راغب‏ |  | و يا صبغة بدلتها غير سائم‏ |
| و يا زائري من غير أن استزيره‏ |  | كما زير حيزوم الفتى باللهاذم‏ |
| أقم لا ترم عنى و ان لم تكن هوى‏ |  | فكم ذا سخطنا فقد غير ملائم‏ |
|  |  |  |

ص: 244

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| فمن مبدلي من صبحه بظلامة |  | و من عائضى من بيضه بالسواهم‏ |
| و من حامل عنى الغداة غرامة |  | و قد كنت نهاضا بثقل المغارم‏ |
| فيا بيض بيض الرأس هل لي عودة |  | الى السود من اغياركن الفواحم‏ |
| تنازحن بالبيض الطوالع شردا |  | كما شرد الإصباح أحلام نائم‏ |
| و يا فجر رأسي هل الى ليل لمتى‏ |  | سبيل و كرات المواضى القدائم‏ |
| ليالي افدى بالنفوس و ارتدى‏ |  | من البيض إسعافا ببيض المعاصم‏ |
| فان كان فقداني الشبيبة لازما |  | فحزني عليها الدهر ضربة لازم‏ |
| و ان لم يكن نوحى بشاف و ادمعى‏ |  | فدمع الحيا كاف و نوح الحمائم‏ |
|  |  |  |

الحيازم جمع حيزوم و هو الصدر، و انما خصصت النشاوي لأن النشوان نافر النفس شديد العزوف عن كل شي‏ء، و إذا كان عن خبيث المطاعم فهو أنفر و أشد صدودا.

و شبهت طاقات الشيب بالأراقم، لا في اللون لكن في الخوف منها و الرهبة لها و الحذار من بطشها.

و الحواطم: الكواسر، جمع حاطمة، و انما سمي حطيم مكة بذلك لانحطام الناس عليه، و المخالم المحبوب المخلص. و خلم الرجل مخلصه، و منه قول أبي نواس:

|  |
| --- |
| فان كنت لا خلما و لا أنت زوجه‏ |

[[118]](#footnote-118)

و انما كان الشيب ثياب مسالم لأنه يؤذن بالضعف و النكول و الخور، و من كان كذلك طلب الموادعة و المسالمة.

و الأميم الشجج في أم رأسه، و مثله المأموم، و الأمة الشجة التي تبلغ أم الرأس. و الأدهم: القيود.

ص: 245

و معنى البيت الذي أوله «و كانت تغير الأغبياء نضارتي» أي انني كنت لحسن شبابي أغير الغبي الذي لا فطنة عنده و لا تيقظ منه، فلما شبت و أخلق رونقي و غاضت نضارتي صار ينادمني الغيور، لأمنه مني و ثقته بأنه لا طماح من النساء الي و لا تعريج منهن علي. و لم أرض بالغيور حتى قلت «المعارم» من العرام، و العرامة التي هي النزق و سرعة البطش.

و المراد بالبيت الذي أوله‏

|  |
| --- |
| فيا صبغة حملتها غير راغب‏ |

أنني حملت صبغة الشيب غير راغب فيها و لا طالب لها و سلبت صبغة الشباب و بدلت منها من غير ملل مني لها. و هذه غاية في التألم و الشكوى، و أي شي‏ء أثقل من إنزال ما لا يطلب و لا فيه مرغب و سلب ما هو موافق غير مملول و لا مكروه.

و معنى البيت الذي أوله‏

|  |
| --- |
| أقم لا ترم عني و ان لم تكن هوى‏ |

و ان كنت غير موافق و لا محبوب مكروه الفراق مرغوب في مطاولتك و مصاحبتك، و هذا على ظاهر الأمر كأنه عجيب، و السبب فيه أن الشيب و ان كان مكروه الحلول مشكو النزول فان فراقه لا يكون الا بالموت و الفناء، فمطاولته على هذا محبوبة مأمولة و فراقه مكروه مذموم. و لا مناقضة في ذلك، لأن المكروه غير المحبوب و الممدوح غير المذموم، و أما المكروه و المذموم فهو تجدد الشيب و حدوثه و طرده الشباب و تبعيده و أما المحبوب الممدوح فهو مطاولة الشيب و استمرار مصاحبته و دوام أيامه، فهو و ان لم يكن نزوله هوى فمقامه و دوامه هوى.

فان قيل: ما في حدوث الشيب و تجدده من الضرر الا ما في استمراره و مطاولته، بل المطاولة أشد ضررا، لأن المذموم من الشيب انه يضعف القوة و يوهي المنة و يؤذن بتصرم العمر و هذا يتأكد باستمراره و مطاولته، و ان النساء ينفرن منه و يصددن عنه و هذا هو في حدوثه و بقائه معا.

قلنا: لا شك في أن ضرر ابتداء الشيب هو قائم في استمراره و دوامه، إلا أنا

ص: 246

نؤثر على ما فيه من ضرره مقامه و نهوى دوامه و نكره فراقه لما في فراقه من الضرر الأعظم و قطع كل المنافع. و قد نختار بعض الأمور المضرة المؤلمة دفعا لما هو أضر منها، كمن يمشي على الشوك دافعا بذلك على شدة ضرره ما هو أعظم منه من المضار و كشاب الدواء المر دافعا بذلك العلل العظيمة عن جسمه، و كقاطع بعض أعضائه فاديا بذلك السراية إلى نفسه.

و لي من قصيدة أولها

|  |
| --- |
| ما زرت الا خداعا أيها الساري‏ |

:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| لا تنكري نزوات الشيب آونة |  | في فاحم صيغ للابصار من قار |
| قد كنت أعذر نفسي قبل زورته‏ |  | فالآن ضاقت على اللذات اعذاري‏ |
| من منصفى من بديدات كما ابتدأت‏ |  | في عرفج الدو نار أيما نار |
| لوامع لم تكن للغيث جاذبة |  | أو أنجم لم تنر للمدلج الساري‏ |
| يغضضن عنهن أبصار الحسان كما |  | يغضضن عن ناخس فيها و عواري‏ |
| لا مرحبا ببياض لم يكن وضحا |  | لغرة الصبح أو لمعا لنوار |
|  |  |  |

أما تشبيه ابتداء الشيب و تبدده في الشعر بابتداء النار في العرفج قبل انتشارها فيه فهي تضي‏ء منه مواضع دون أخرى، فمن واقع التشبيه و غريبه. و انما قلنا نار، استكبارا لها و استعظاما و اختصارا شديدا لشكوى تلك الحال و تعديد ما فيها من المضار.

فأما البيت الذي أوله‏

|  |
| --- |
| لوامع لم تكن للغيث جاذبة |

فان تشبيه لمع بياض المشيب في خلال الشباب بلمع البروق في الغمام، لما اعتمد في البيت و وجب في صنعة الشعر، و تحقيق معناه: أن ينفى على هذا الشبه بالبروق فيقال انها لم تكن للغيث جاذبة، و كذلك لما شبه الشيب في هذا البيت بالنجوم وجب أن ينفى عنه‏

ص: 247

منافع النجوم و مرافقها، فيقال: انها لم تنر للمدلج الساري.

و البيت الأخير الذي أوله «لا مرحبا ببياض» في معنى هذا البيت الذي تكلمنا عليه، لأنه ذم لبياض الشيب لما لم يكن بياضا لذي منفعة كغرة الصبح و لمع النور. و هذا تصرف في المعاني و تحكم فيها.

و لي من قصيدة أولها

|  |
| --- |
| عتاب لدهر لا يمل عتابى‏ |

:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و إذ لم ارغ عند الغواني تغزلا |  | فمثل مشيبي بينهن شبابي‏ |
| و لو كنت يوما بالخضاب موكلا |  | خضبت لمن يخفى عليه خضابى‏ |
| فان تعطني أولى الخضاب شبيبة |  | فان له أخرى بغير شباب‏ |
| و أين من الإصباح صبغه‏ |  | و أين من البازي لون غراب‏ |
| و اي انتفاع لي بلون شبيبة |  | و لون إهاب الشيب لون اهابى‏ |
| و قد قلصت خطوي الليالي و ثمرت‏ |  | بروحاتها من جيئتي و ذهابي‏ |
| و كم ظفر الأقوام في البيض كالدمى‏ |  | بفوق المنى منهن لا بشباب‏ |
| فها الشيب منى عاريا غير مكتس‏ |  | و نصلا على رأسي بغير قراب‏ |
|  |  |  |

معنى البيت الأول اننى إذا كنت لا أطلب الغزل عند الغواني و لا الحظوة منهن فلا فرق بيني و بين مشيبي و شبابي، لأن الشيب انما يحزن و يكرب من سلبه مودة الغواني و حطه عن رتبته بينهن و زوى عنه خدودهن.

و معنى البيت الثاني النهي عن الخضاب من حيث كان غير خاف، لأنه إذا كان لا ينبغي أن يخضب الا لمن يخفى عليه خضابه و لم يك خافيا فلا معنى لتكلف الخضاب الذي لا يخفى.

و معنى البيت الثالث معروف، و قد قيل‏

ص: 248

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و قالوا الخضاب شباب جديد |  | فقلت النصول مشيب جديد |
|  |  |  |

و قال محمود الوراق:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| ان النصول إذا بدا |  | فكأنه شيب جديد |
|  |  |  |

و في البيت الرابع تفضيل لون الشيب على لون الخضاب.

فأما البيت الذي أوله‏

|  |
| --- |
| و أي انتفاع لي بلون شبيبة |

فمعناه كيف أدلس بياض شعري بتسويده و لون جلدي بتشنجه و تغضنه لا يليق بالشباب و انما يليق بالشيب، فإنما دلست ما هو منفضح و لبست ما هو منكشف، و كان عندي اني منفرد بهذا المعنى حتى وجدت لابن الرومي:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| رأيت خضاب المرء عند مشيبة |  | حدادا على شرخ الشبيبة يلبس‏ |
| و الا فما يغزو امرؤ بخضابه‏ |  | أ يطمع ان يخفى شباب مدلس‏ |
| و كيف بأن يخفى المشيب لخاضب‏ |  | و كل ثلاث صبحه يتنفس‏ |
| و هبة يوارى شيبه اين ماؤه‏ |  | و اين أديم للشبيبة أملس‏ |
|  |  |  |

و وجدت ابن الرومي يتصرف في هذا المعنى و يعكسه حتى جعل من لا غضارة لجلده من ذوي السواد يظن به الكبر و ان سواده خضاب لا شباب، فقال:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| إذا دام للمرء السواد و لم تدم‏ |  | غضارته ظن السواد خضابا |
| فكيف يظن الشيخ ان خضابه‏ |  | يظن سوادا أو يخال شبابا |
|  |  |  |

و فلسفة هذا الرجل في شعره و تطلبه لطيف المعاني مع اعراض عن فصيح العبارة و غريبها و ان كانت مذمومة مستبردة في الأغلب الأكثر، ربما أثارت دفينا أو أخرجت علقا ثمينا.

و نظير قول ابن الرومي‏

|  |
| --- |
| رأيت خضاب المرء عند مشيبة حدادا |

قول الأفوه الكوفي‏

ص: 249

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| فان تسألينى ما الخضاب فانني‏ |  | لبست على فقد الشباب حدادا |
|  |  |  |

و مثله لأبي سهل النوبختي:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| لم أخضب الشيب للغواني‏ |  | أبغي به عندها ودادا |
| لكن خضابى على شبابي‏ |  | لبست من بعده حدادا |
|  |  |  |

و لابن الرومي في ذم الخضاب:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| يا ايها الرجل المسود شيبه‏ |  | كيما يعد به من الشبان‏ |
| اقصر فلو سودت كل حمامة |  | بيضاء ما عدت من الغربان‏ |
|  |  |  |

و له في هذا المعنى:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| فزعت الى الخضاب فلم تجدد |  | به خلقا و لا أحييت ميتا |
| خضبت الشيب حين بدا فهلا |  | حلقت العارضين إذ التحيتا |
| لترجع مردة كانت فبانت‏ |  | كما تسويد شيبتك ارتجيتا |
|  |  |  |

و له مثله:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| خضبت الشيب حين بدا لتدعى‏ |  | فتى حدثا ضلالا ما ارتجيتا |
| أ لا حاولت أن تدعى غلاما |  | بحلق العارضين إذ التحيتا |
| أبت آثار دهرك ان تعفى‏ |  | بكفك شئت ذلك أم ابيتا |
| فدع عنك الخضاب و لا ترده‏ |  | فأجدى منه قولك لو وليتا |
|  |  |  |

و هذه الأبيات- و ان كان لمعناها بعض الصحة- فألفاظها مباينة لأسلوب الشعر العربي، و حظ اللفظ في الشعر أقوى من حظ المعنى.

و له أيضا مثله‏

ص: 250

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| كما لو أردنا أن نحيل شبابنا |  | مشيبا و لم يأن المشيب تعذرا |
|  |  |  |

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| كذلك تعيينا احالة شيبنا |  | شبابا إذا ثوب الشباب تحسرا |
| أبى اللَّه تدبير ابن آدم نفاء |  | و ألا يكون العبد الا مدبرا |
| و لا صبغ الا صبغ من صبغ الدجى‏ |  | دجوجية و الصبح أنور ازهرا |
|  |  |  |

فأما قولي في البيت الأخير من الأبيات الثانية

|  |
| --- |
| فها الشيب منى عاريا غير مكتس‏ |

فإنما أردت بعد ذم الخضاب و بيان أنه لا طائل في تكلفه أن شيبي عار من الخضاب و انه على هيئته و خلقته و جعلت الخضاب تارة له كسوة و أخرى قرابا لما جعلت الشيب نصلا، فهو يشبه النصل لونا و صقالا.

و لي من قصيدة أولها

|  |
| --- |
| ما ذا جنته ليلة التعريف‏ |

:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و تعجبت للشيب و هو جناية |  | لدلال غائية و صد صدوف‏ |
| و أحاطت الحسناء بي تبعاته‏ |  | فكأنما تفويفه تفويفي‏ |
| هو منزل بدلته من غيره‏ |  | و هو الفتى في المنزل المألوف‏ |
| لا تنكريه فهو أبعد لبسة |  | عن قذف قاذفة و قرف قروف‏ |
|  |  |  |

و لي من قطعة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و تطلب مني الحب و الشيب لبستى‏ |  | و اين الهوى ممن له الشعر ابيضا |
| فقلت لها قد كنت بالحب مولعا |  | و لكنه لما انقضت شرتى انقضى‏ |
|  |  |  |

و لي و هو ابتداء قصيدة

ص: 251

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| سجا لك ان الليل ليل عذاري‏ |  | مضى عائضا منه بضوء نهار |
| فمن لي عن الفجر المغلس بالدجى‏ |  | و عن يقق لم ارض عنه بقار |
| و كنت حذرت الشيب حتى لبسته‏ |  | و قل على المحتوم نفع حذار |
| لهيب مشيب في الفؤاد مثاله‏ |  | جوى و أوار من جوى و أوار |
| عشية امحى من عداد اولى الهوى‏ |  | و لا تألف الحسناء عقوة داري‏ |
| و شق مزاري بعد ان كنت برهة |  | إذا زير ربعي لا يشق مزاري‏ |
| تحب و تهوى كل يوم فكاهتى‏ |  | و يبتاع بالدر النفيس جواري‏ |
| و ليس هوى الا علي معاجه‏ |  | و في قبضتي البيض الدمى و أسارى‏ |
| فها انا ملقى كالقذاة تناط بي‏ |  | جرائر لم يجعلن تحت خياري‏ |
| أقيل عثارا كل يوم و ليلة |  | الهوى من لا يقبل عثارى‏ |
|  |  |  |

أما قولي‏

|  |
| --- |
| لهيب مشيب في الفؤاد مثاله‏ |

فمعناه أن الشيب المنتشر في الشعر المشبه لضوئه بلهب النار في القلب مثال له لنلهب الحزن و الغم، و اشتعالهما في القلب من أجل نزول الشيب و حلوله.

و الجوى هاهنا هو الحزن الباطن، و الأوار لهيب النار، فكأن هذا الذي في القلب من الجوى و الأوار متولد من أوار الشيب و تلهبه في الشعر.

فان قيل: أ ليس أهل اللغة يقولون ان الجوى هو الهوى الباطن، فكيف جعلتموه حزنا و هما؟

قلنا: لا يسمون الهوى الباطن جوى إلا إذا صحبه لدع و جوى و هم، و ذلك معروف.

فان قيل: فهبوا ان الأمر على ما قلتموه في ما يكون في القلب كيف جعلتم الشيب جوى و جمعتم بينه و بين الأوار، و هو يشبه أوار النار بلونه، و لا نسبة بينه‏

ص: 252

و بين الجوى.

قلنا: إذا كان سبب جوى القلب الذي هو الحزن به و الغم على حلوله جاز أن يسمى باسمه، فقد سموا السبب باسم مسببه و المسبب باسم سببه، و تخطوا ذلك الى ما هو أبعد منه كثيرا، و الاستعارات واسعة فسيحة.

و في قولي «الفجر المغلس» معنى لطيف، لأنني أشرت الى أن الشيب عجل عن وقته المعهود له، فلهذا شبهته بالفجر الطالع في الغلس قبل أوان طلوعه المألوف.

و لي من قصيدة أولها

|  |
| --- |
| لمن ضرم أعلى البقاع تعلقا |

:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و عيرننى شيبا سيكسين مثله‏ |  | و من ضل عن أيدي الردى شاب مفرقا |
| و هل تارك للمرء يوما شبابه‏ |  | صباح و امساء و مناي و ملتقى‏ |
|  |  |  |

و لي من قصيدة أولها

|  |
| --- |
| ما قربوا الا لبين نوقا |

:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| ذهب الشباب و كم مضى من فائت‏ |  | لا يستطيع له الغداة لحوقا |
| ما كان الا العيش قضى فانقضى‏ |  | بالرغم أو ماء الحياة أريقا |
| فلو اننى خيرت يوما خلة |  | ما كنت الا للشباب صديقا |
| و لقد ذكرت على تقادم عهده‏ |  | عيشا لنا بالأنعمين أنيقا |
| أزمان كان بها ردائي ساحبا |  | أشرا و غصني بالشباب وريقا |
| و إذا تراءى في عيون ظبائهم‏ |  | كنت الفتى المرموق و الموموقا |
|  |  |  |

ص: 253

و لي من قصيدة أولها

|  |
| --- |
| مثلا عنى المنازل لم بلينا |

:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| فيا شعرات رأس كن سودا |  | و حلن بما جناه الدهر جونا |
| مشيبك بالسنين و من هموم‏ |  | و ليتك قد تركت مع السنينا |
| كرهت الأربعين و قد تدانت‏ |  | فمن ذا لي برد الاربعينا |
| و لاح بمفرقى قبس منير |  | يدل على مقاتلي المنونا |
|  |  |  |

الجون من الألفاظ المشتركة بين الأبيض و الأسود، و أردت بالجون هاهنا البيض في مقابلة السود.

و معنى‏

|  |
| --- |
| و ليتك قد تركت مع السنينا |

أي ليت الهموم و الأحزان و الأسباب المشيبة للشعر لم تطرقك و تركت مع مر السنين و تأثيرها فيك، فكأنني تمنيت الأربعين السنين على شيب رأسي معين، و انما يكره الأربعين من لم يبلغها لأنها أقرب الى الموت و أدنى الى الهرم من السن الذي تقدمها فإذا جاوزها و أربى عليها تمناها لأنها أقرب من الشباب و أبعد من الهرم و الموت من السن التي هو فيها.

و قد ذكرت فيما مضى نظير البيت الذي أوله‏

|  |
| --- |
| و لاح بمفرقي قبس منير. |

و لي من قصيدة أولها

|  |
| --- |
| ان على رمل العقيق خيما |

:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| عجبت يا ظمياء من شيب غدا |  | منتشرا في مفرق مبتسما |
| لو كان لي حكم يطاع امره‏ |  | حميت منه لمتى و اللمما |
| تهوين عن بيض برأسي سودة |  | و عن صباح في العذار الظلما |
| و قلت ظلما كالثغام لونه‏ |  | و لون ما تبغين يحكى الفحما |
| صبغ الدجى أبعد عن فاحشة |  | و لم يزل صبغ الدجى متهما |
|  |  |  |

ص: 254

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| من عاش لم تجن عليه نوب‏ |  | شابت نواحي رأسه أو هرما |
|  |  |  |

ان قيل: كيف تكون ظالمة بتشبيه الشيب بالثغام و هو أشبه شي‏ء به؟

قلنا: لم تظلم لأجل التشبيه الذي هو صحيح واقع، و لكن لأنها ذمت بذلك الشيب و هجنته و أزرت عليه، و لهذا عورضت بأن لون ما تهواه من الشباب يشبه الفحم الذي الثغام على كل حال أفضل منه.

فأما الذي أوله‏

|  |
| --- |
| صبغ الدجى أبعد عن فاحشة |

فعزيز المعنى، لأن النهار نفسه و ما يشبه بالنهار من الشيب أبعد من الفواحش و القبائح، أما النهار فإنه يظهرها و لا يسترها و الشيب يعظ و يزجر عن ركوبها، و صاحبه في الأكثر عند الناس منزه عنها. و صبغ الدجى الذي هو الليل نفسه و ما يشبه به من الشباب أدنى القبائح، لأن الليل يستر القبيح و يخفيه و الشباب يدعو الى اقتراف القبيح و يعلق على صاحبه منه ما لا يعلق على ذي الشبيبة.

و نظير

|  |
| --- |
| صبغ الدجى أبعد عن فاحشة |

قولي:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| لا تنكريه فهو أبعد لبسة |  | عن قذف قاذفة و قرف قروف‏ |
|  |  |  |

و نظير قولي‏

|  |
| --- |
| و لم يزل صبغ الدجى متهما |

قولي:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و معيرى شيب العذار و ما درى‏ |  | أن الشباب مطية للفاسق‏ |
|  |  |  |

و لي من قصيدة أولها

|  |
| --- |
| ليس للقليب في السلو نصيب‏ |

: و لقد قلت للمليحة و الرأس بصبغ المشيب ظلما خضيب‏

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| لا تريه مجانبا للتصابى‏ |  | ليس بدعا صبابة و مشيب‏ |
|  |  |  |

ص: 255

و لي من قصيدة أولها

|  |
| --- |
| بلغنا ليلة السهب‏ |

:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و لما رأت الحسناء |  | في رأسي كالشهب‏ |
| و بيضا كالظبي البيض‏ |  | و ما يصلحن للضرب‏ |
| و حادت عن مقر |  | كان فيه بقر السرب‏ |
| تجنبت بلا جرم‏ |  | و عوقبت بلا ذنب‏ |
| و عاتبت و لكن‏ |  | قلما ينفعني عتبى‏ |
|  |  |  |

انما قلت: «و ما يصلحن للضرب» لئلا يفهم من تشبيهي للطاقات البيض الشيب بالظبي البيض التماثل من كل جهة، فاستثنيت أنهن لا يصلحن للضرب كما تصلح السيوف لذلك، و إذا كان المقصد ذم الشيب ثم شبه من بعض الوجوه بما له فضل في نفسه، فمن الواجب أن يستثنى ما لا يشبه فيه من الفضيلة ليخلص القول للذم. و هذا إذا تؤمل كان له موقع لطيف من البلاغة. و لعمري ان الشعر موضوع على الاختصار و الحذف و الإشارة.

و لو قلت «و بيضا كالظبي البيض» لما فهم الا التشبيه في اللون دون غيره سنة إذا أمكن التحقيق و استيفاء الأغراض من غير أن يلحق الكلام هجنة فهو أولى.

و لي من قطعة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| ليس المشيب بذنب‏ |  | فلا تعديه ذنبا |
| غصبت شرخ شبابي‏ |  | بالليل و الصبح غصبا |
| و شب شيب عذاري‏ |  | كما اشتهى الدهر شبا |
| ان كنت بدلت لونا |  | فما تبدلت حبا |
| أو كنت بوعدت جسما |  | فما تباعدت قلبا |
|  |  |  |

ص: 256

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و كلما شاب رأسي‏ |  | نما غرامى و شبا |
|  |  |  |

و لي من قصيدة أولها

|  |
| --- |
| كنت من أسماء ما كان علن‏ |

:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| راعك يا أسماء منى بارق‏ |  | أضاء ما بين العذار و الذقن‏ |
| لا تنفري منه و لا تستنكرى‏ |  | فهو صباح طالما كان دجن‏ |
| ثاو نأى إذ رحل الدهر به‏ |  | و اي ثاو في الليالي ما ظعن‏ |
| ان كان أحيا الحلم فينا و الحجى‏ |  | فإنه غال المراح و الارن‏ |
| كم كع مملوء الإهاب من صبي‏ |  | عن العلى و احتلها الهم اليفن‏ |
|  |  |  |

لست أرى تهجين هذه الأبيات بوصف ربما قصر عن مدى حقها، فكم مرسوم بالعدول عن حقه و ممدوح بالاعراض عن مدحه.

فأما كع فمعناه عجز، يقولون: كع عن كذا إذا نكل عنه و عجز. و الإهاب:

الجلد. و اليفن: الشيخ الهرم الضعيف.

و لي من قطعة مفردة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| صدت أسيماء عن شيبى فقلت لها |  | لا تنفري فبياض الشيب معهود |
| عمر الشباب قصير لا بقاء له‏ |  | و العمر في الشيب يا أسماء ممدود |
| قالت طردت عن اللذات قاطبة |  | فقلت انى عن الفحشاء مطرود |
| ما صدني شيب رأسي عن تقى و على‏ |  | لكنني عن قذى الأخلاق مصدود |
| لو لا بياض الضحى ما نيل مفتقد |  | ما لم ينل مطلب يبغى و مقصود |
| ما عادل الصبح ليل لا ضياء به‏ |  | و لا استوت في الليالي البيض و السود |
|  |  |  |

ص: 257

المعهود: المألوف لا ينفر منه. و الشيب معتاد في من كبر و أسن و انما ينفر مما خالف العادة.

و البيت الثاني نظير قول الشاعر:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و الشيب ان يظهر فان وراءه‏ |  | عمرا يكون خلاله متنفس‏ |
|  |  |  |

لأن العمر في البياض أطول منه في السواد.

و على البيت الثالث سؤال: كيف يكون الشيب طاردا عن الفحشاء خاصة و من شأنه أن يصد عن كل لذة و متعة حسنة كانت أو قبيحة.

و الجواب: اننى أردت أنه يصدني عن الفحشاء بوعظه و زجره لا باعجازه و منعه و اني قادر متمكن من مباح اللذات، و البيت الرابع يقوى هذا المعنى.

و البيت الخامس و السادس من حسن ما فضل به البياض الذي هو لون المشيب على السواد.

و لي و هي قطعة مفردة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| نبت عينا أمامة عن مشيبي‏ |  | و عدت شيب رأسي من ذنوبي‏ |
| و قالت لو سترت الشيب عنى‏ |  | فكم أخفى التستر من عيوبي‏ |
| فقلت لها أجل صريح ودى‏ |  | و إخلاصي عن الشعر الخضيب‏ |
| و ما لك يا امام مع الليالي‏ |  | إذا طاولن بد من مشيب‏ |
| و ما تدليس شيب الرأس إلا |  | كتدليس الوداد على الحبيب‏ |
| فلا تلحى عليه فذاك داء |  | عياء ضل عن حيل الطبيب‏ |
| و ان بعيد شيبك و هو آت‏ |  | نظير بياض مفرقي القريب‏ |
|  |  |  |

ص: 258

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و ان تأبى فقومي ميزى لي‏ |  | نصيبك فيه يوما من نصيبي‏ |
|  |  |  |

معنى البيت الثاني اننى خالص المودة صريح المحبة، فلا أدنس ذلك بتزوير الشعر بالخضاب و تشبيهه بالشباب. و قد أفصحت عن هذا البيت الذي أوله‏

|  |
| --- |
| و ما تدليس شب الرأس‏ |

و ابن الرومي جعل من خضب للغواني معاقبا بغشهن في وده، فقال:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| قل للمسود حين شيب هكذا |  | غش الغواني في الهوى اياكا |
| كذب الغواني في سواد عذاره‏ |  | و كذبنه في ودهن كذاكا |
|  |  |  |

و معنى البيت الذي أوله‏

|  |
| --- |
| و ان بعيد شيبك و هو آت‏ |

اننا سواء في الشيب و انما هو واقع بي و متوقع فيك، و كل آت قريب.

و البيت الثالث معناه: انك ان اثبت أننا في إشكال و أمثال فعرفينى الفرق بيني و بينك فيه، و أي أمان لك مما نزل بي و حل عندي. و هذا من لطيف التسلية عن الشيب و الاحتيال في دفع احزانه و همومه و الاحتجاج على من عابه من النساء و ذمه و قبحه.

و لي من قطعة مفردة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| أمن شعر في الرأس بدل لونه‏ |  | تبدلت ودا يا اسيماء عن ودى‏ |
| فان يك هذا الهجر منك أو الفلي‏ |  | فليس بياض الرأس يا اسم من عندي‏ |
| تصدين عمدا و الهوى أنت كله‏ |  | و ما كان شيبى لو تأملت من عمدي‏ |
| و ليس لمن جازته ستون حجة |  | من الشيب ان لم يرده الموت من بد |
| و لا لوم يوما من تغير صبغة |  | إذا لم يكن ذاك التغير في عهدي‏ |
|  |  |  |

ص: 259

و لي و هي قطعة مفردة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| يقولون لي لم أنت للشيب كاره‏ |  | فقلت طريق الموت عند مشيبي‏ |
| قربت الردى لما تجلل مفرقي‏ |  | و كنت بعيدا منه غير قريب‏ |
| و كنت رطيب الغصن قبل حلوله‏ |  | و غصني مذ شيبت غير رطيب‏ |
| و لم يك الا عن مشيب ذوائبى‏ |  | جفاء خليلي و ازورار حبيبي‏ |
| و ما كنت ذا عيب فقد صرت بعده‏ |  | تخط بأيدي الغانيات عيوبي‏ |
| فليس بكائي للشباب و انما |  | بكائي على عمري مضى و نحيبي‏ |
|  |  |  |

البيت الذي أوله «و ما كنت ذا عيب» يحتمل أن يكون المراد به اننى بعد المشيب بلا عيب على الحقيقة كما كنت غير أن الغانيات يتجر من علي بعد الشيب فيضفن الي عيوبا ليس في. و يحتمل أن يراد أيضا أن عيوبي كانت مستورة مغفورة في ظل الشباب، فلما قلص عني و انحسر أظهرت و أعلنت، لأن الشافع في زال و العاذر لي حال. و يمضى هذا المعنى كثيرا.

و لي و هي قطعة مفردة قلتها في ذم الشيب:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| بياضك يا لون المشيب سواد |  | و سقمك سقم لا يكاد يعاد |
| و قد صرت مكروها على الشيب بعد ما |  | عمرت و ما عند المشيب أراد |
| فلي من قلوب الغانيات ملالة |  | و لي من صلاح الغانيات فساد |
| و ما لي نصيب بينهن و ليس لي‏ |  | إذا هن زودن الأحبة زاد |
| و ما الشيب الا توأم الموت للفتى‏ |  | و عيش امرئ بعد المشيب جهاد |
|  |  |  |

ص: 260

و لي في الاعتذار عن الشيب و التسلية عنه، و هي قطعة مفردة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| تقول لي إنما الستون مقطعة |  | بين الرجال و وصل الخرد الغيد |
| و ما استوى يفن ولت نضارته‏ |  | في الغانيات بغصن ناضر العود |
| فقلت ما الشيب الا لبسة لبست‏ |  | ما أثرت لي في بخل و لا جود |
| و لا وفاء و لا غدر و لا كلف‏ |  | و لا ملال و لا إنجاز موعود |
| ان الحفاظ و بيضى فيه لامعة |  | خير من الغدر لو جربت في سودى‏ |
|  |  |  |

و إذا كنا قد استوفينا غرضنا الذي قصدناه فالواجب قطع الكتاب هاهنا فقد طال و ربما أمل الطويل.

و لعل معنتا يطعن فيما أوردناه في أثناء كلامنا من نظائر الشعر بأنا ما استوفيناه و لا استقصيناه و يذكر نظائر لم نذكرها أو يعيب بعدولنا عما عدلنا حمله عن ذكر نظائره.

و الجواب عن ذلك: ان كتابنا هذا ما وضعناه لذكر النظائر، و انما كان الغرض فيه ما تضمنته خطبة الكتاب و قد استوفى، و ما مضى من ذكر نظائر فإنه اتفق عرضا، و لو قصدنا هذا الفن لاستوفيناه بحسب ما يحضرنا و ينتهي اليه علمنا، فان نظائر الشعر لا تحصى كثرة، و من تعاطى ذكرها و اعتمده فما عليه الا الاجتهاد و إيراد ما يناله حفظه أو يده و تصفحه.

و اللَّه تعالى المأمول المرجو للسداد و الرشاد، هاديا الى سننهما و دالا على محجتهما، و هو حسبنا اللَّه و نعم الوكيل. و صلواته على محمد و آله الطاهرين، و الحمد للَّه وحده.

ص: 261

الزيادة في كتاب الشيب و الشباب‏

قد كنا أشرنا إلى أنه متى اتفق في جملة ما ننظمه بعد عمل هذا الكتاب شي‏ء يتضمن وصف الشيب ضممناه اليه و ألحقناه به، و نحن لذلك فاعلون:

و لي قصيدة أولها

|  |
| --- |
| توق ديار الحي فهي المقاتل‏ |

:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و أين الهوى منى و قد شحط الصبي‏ |  | و فارق فودي الشباب المزايل‏ |
| و قد قلصت عني ذيول شبيبتى‏ |  | و في الرأس شيب كالثغامة شامل‏ |
| و لي من دموعي غدوة و عشية |  | لبين الشباب الغض طل و وابل‏ |
| و كيف يزيل الشيب أو يرجع الصبي‏ |  | وجيب قلوب أو دموع هو أمل‏ |
|  |  |  |

و لي و هي قطعة مفردة و فيها ذم الشيب:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| قد كان لي غلس لا فجر يمزجه‏ |  | فألان فجرى بلا شي‏ء من الغلس‏ |
|  |  |  |

ص: 262

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| قالوا تسلى فشيبات الصبي قبس‏ |  | فقلت ذاك و لكن شر ما قبس‏ |
| و زارني لم أرد منه زيارته‏ |  | شيب و لم يغن أعواني و لا حرسى‏ |
| يضي‏ء بعد سواد في مطالعة |  | لفاغر من ردى الأيام مفترس‏ |
| طوى قناتي و اغتالت اظافره‏ |  | تحضى ورد الى تقويمه شوسى‏ |
| و صد عنى قلوب البيض نافرة |  | و ساقني اليوم من نطق الى خرس‏ |
| ان كان شيبي بقاء قبله دنس‏ |  | فقد رضيت بذاك الملبس الدنس‏ |
| و غالطونى و قالوا الشيب مطهرة |  | و ما السواد به شي‏ء من النجس‏ |
| و العمر في الشيب ممتد كما زعموا |  | لكنه لم يدع شيئا سوى النفس‏ |
|  |  |  |

معنى البيت الأول انه كان مشبه بالغلس و هو الشباب لا يمزجه شي‏ء من المشبه بالفجر و هو الشيب، فانعكس ذلك و صار بياضي بغير سواد.

و معنى البيت الثاني: أنهم إذا أسلوا عن المشيب و عزوا عن مضرته بأنه يشبه بالقبس الذي المنفعة به ظاهرة، فمن أحسن جواب عن هذه التسلية أن يصدقوا في شبهه به هيثة و صبغة و مخالفته له في الفائدة و العائدة، و قرب شي‏ء يوافقه ظاهرا و يخالفه باطنا. و القبس أيضا الذي شبه الشيب به قد يستضر به في حال كما ينتفع به في أخرى. و قولي‏

|  |
| --- |
| و لكن شر ما قبس‏ |

كاف في الجواب.

و انما قلت «ذاك» و لم أقل ذاكم و الخطاب لجماعة استقلالا للفظة الجمع في هذا الموضع و استخفاف خطاب الواحد.

و قد يجوز أن يقل المخاطب بالجواب على بعض من خاطبه دون بعض، إما لتقدمه و وجاهته أو لفضل علمه و فرط فطنته. و في الكلام الفصيح لهذا نظائر كثيرة يطول ذكرها، فان استحسن أو استخف راو أن يقول ذاكم مكان ذاك فليروه كذلك، فلا فرق بين الأمرين.

ص: 263

و أما البيت الثالث فمعناه ان الأعوان و الحراس من شأنهم أن يدفعوا زيارة من تكره زيارته و تجتوى مقاربته، و الشيب من بين الزائرين الوافدين لا يغني في دفعه و منعه أعوان و لا حراس.

و معنى البيت الرابع نظير قولي و قد تقدم:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و لاح بمفرقى قبس منير |  | يدل على مقاتلي المنونا |
|  |  |  |

و قول أخي رضي اللَّه عنه و قد تقدم أيضا:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| تعشو الى ضوء المشيب فتهتدى‏ |  | و تضل في ليل الشباب الغابر |
|  |  |  |

و قول ابن الرومي:

|  |
| --- |
| فلما أضاء الشيب شخصي رمانيا |

و معنى قولي في البيت الخامس «طوى قناتي» انه حنى قامتي، فان الكبر يفعل ذلك.

و البحض: اللحم، و لا شبهة في أن الكبر يعترق اللحم من الجسد.

فأما الشوس فهو رفع الرأس تكبرا و تجبرا، يقال رجل أشوس و رجال شوس، فأردت أن الشيب يمنع من التكبر و يقعد عن التجبر و يورث الخشوع و الاستكانة و الخضوع.

و قولي في البيت السادس‏

|  |
| --- |
| و ساقني اليوم من نطق الى خرس‏ |

يجوز أن يكون المراد به انني أكل عن الحجة و أعجز عن استيفاء الخطاب لضعف الكبر و عجز الهرم، فكأنني خرست بعد نطق.

و يجوز أن يراد به أيضا انني أمسك عن الكلام و أسكت عن الجواب مع قدرة عليهما باسترذال كلامي و استضعاف خطابي، فإن الكبر لا يؤتمر له و لا يصغى اليه.

ص: 264

و البيت السابع مكشوف المعنى، و كذلك الثامن.

فأما البيت الأخير فإن غاية ما يمدح به الشيب و يفضل له ان يقال: ان العمر فيه ممتد يزيد على العمر في الشباب، فكأنني سلمت هذا الذي تدعي به الفضيلة و المزية و قلت: إذا كان المشيب لم يدع شيئا سوى النفس الدال على وجود الحياة مجردة من كل انتفاع و التذاذ و بلوغ ارب و وطر، فأي فائدة في طول عمر بلا منفعة و لا لذة و لا متعة، و انما يراد تطاول العمر لزيادة الانتفاع و طول الاستمتاع.

و لي في مثل ذلك و هي قطعة مفردة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| لا تنظري اليوم يا سلمى الي فما |  | أبق المشيب بوجهي نضرة البشر |
| جنى علي فقولي كيف أصنع في‏ |  | جان إذا كان يجنى غير معتذر |
| عرا فأعرى من الأقطار قاطبة |  | قهرا و ألبسني ما ليس من وطرى‏ |
| و قد حذرت و لكن رب مقترب‏ |  | لم انج منه و ان حاذرت بالحذر |
| فان شكوت الى قوم مساكنهم‏ |  | ظل السلامة ردوني الى القدر |
| كوني كما شئت في طول و في قصر |  | فليس أيام شيب الرأس من عمرى‏ |
| فقل لمن ظل يسلي عن مصيبته‏ |  | لا سلوة لي عن سمعي و عن بصري‏ |
| شر العقوبة يا سلمى على رجل‏ |  | عقوبة من صروف الدهر في الشعر |
| ان كان طال له عمر فشيبه‏ |  | فكل طول عداه الفضل كالقصر |
| يلين منه و يرخي من معاجمه‏ |  | كرها و لو كان منحوتا من الحجر |
| فان تكن وخطات الشيب في شعري‏ |  | بيضا فكم من بياض ليس للغرر |
| ما كل إشراقه للصبح في غلس‏ |  | و ليس كل ضياء من سنا القمر |
|  |  |  |

معنى قولي‏

|  |
| --- |
| و كل طول عداه الفضل كالقصر |

أن طول الزمان انما يحمد

ص: 265

و يطلب إذا جلب نفعا و أثمر فائدة، و إذا كان بالضد من ذلك فهو كالقصير من الزمان في عدم الانتفاع بطوله.

و معنى‏

|  |
| --- |
| فكم من بياض ليس للغرر |

أي لا تعزوني عن المشيب ببياض لونه و إشراقه فليس كل بياض محمودا و ان كان بياض الغرر ممدوحا.

و معنى البيت الثاني هو هذا بعينه و مؤكدا للأول و موضحا عنه.

و لي و هي قطعة مفردة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| قالت مشيبك فجر و الشباب إذا |  | زرناك ظلمة ليل فيه مستتر |
| فقلت من كان هجري الدهر عادته‏ |  | ما ان له بضياء الشيب معتذر |
| لا تسخطيه بهذا الشيب مصدوق‏ |  | على عيوب بضد الشيب تستتر |
| ترين منى وضوء الشيب يفضحني‏ |  | ما زاغ عنه و رأسي اسود نضر |
|  |  |  |

معنى البيت الأول كأنه غريب. و الجواب عن اعتذار المتمحل للهجر صحيح، لأن من كان لا يلم بزيارة و لا يهم بلقاء سواء عليه ضياء أظهره أو سواد ستره.

و البيتان الأخيران بليغان في المعنى المقصود بهما.

و تقريب الشيب من قلوب من يطلب العيوب و يؤثر الظهور على الغيوب بأنه يظهر مكتومها و يبرز مستورها، من ألطف المكايد و أغمضها.

و لي و هي قطعة مفردة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| نضوت ثياب اللهو عنى فقلصت‏ |  | و شيبني قبل المشيب هموم‏ |
| و قد كنت في ظل الشباب بنعمة |  | و أي نعيم للرجال يدوم‏ |
|  |  |  |

ص: 266

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و قد علم الأقوام ان لم يغالطوا |  | بأن صحيحا في المشيب سقيم‏ |
| و ان غنيا في الهوى و نزيله‏ |  | المشيب فقير الراحتين عديم‏ |
|  |  |  |

معنى قولي‏

|  |
| --- |
| و شيبنى قبل المشيب هموم‏ |

قبل أوان المشيب و ابانه و الوقت الذي جرت العادة بنزوله فيه، و لا يجوز حمل الكلام الا على ذلك في حكم الضرورة، لأن ما شيب من الهموم فالمشيب لا محالة معه، فكيف يكون قبله لو لا الحذف الذي أشرنا اليه.

و لي قطعة و هي مفردة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| صد عنى و أعرضا |  | إذ رأى الرأس ابيضا |
| و نضا عنى الغضاضة |  | و اللهو ما نضا |
| و استرد الزمان منى‏ |  | ما كان اقرضا |
| و رماني بشيب رأسي‏ |  | ظلما و اغرضا |
| و استحال الطبيب لي‏ |  | من سقامي فأمرضا |
| و محب عهدته‏ |  | صار بالشيب مبغضا |
| كان يرضى و لم يدع‏ |  | شيب رأسي له رضى‏ |
| قال لي مفصحا |  | و ما كان الا معرضا |
| اين شرخ الشباب‏ |  | قلت خباء تقوضا |
| أو منام وافى الصباح‏ |  | إلينا و قد مضى‏ |
|  |  |  |

و لي و هي قطعة مفردة

ص: 267

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| صد عني كارها قربى‏ |  | و قد كان حبيبا |
| و رأى في الفاحم الجعد |  | من الرأس مشيبا |
| كشهاب غابت الشهب‏ |  | و يأبى أن يغيبا |
| أو كنار تخمد النار |  | و يزداد لهيبا |
| كنت عريانا بلا عيب‏ |  | فأهدى لي العيوبا |
| قلت ما أذنبت‏ |  | بالشيب إليكم فأتوبا |
| هو داء حل جسمي‏ |  | لم أجد منه طبيبا |
| لم تجد ذنبا |  | و لكنك لفقت ذنوبا |
|  |  |  |

يحتمل البيت الخامس الذي أوله‏

|  |
| --- |
| كنت عريانا بلا عيب‏ |

وجوها من التأويل:

أولها- ان يراد: أننى كنت بلا عيب فصار لي من الشيب نفسه عيب، لأن النساء يعبن به و ينفرن عنه.

و ثانيها- ان يكون المراد: ان الشباب كان ساترا لعيوب كان في مغفورة لي لأجله، فلما نزل الشيب اذيعت في و بقيت علي.

و ثالثها- أنه لم يكن في عيب فلما نزل الشيب تمحلت لي عيوب و علقت علي و نسبت الي، فان ذا الشيب ابدا معيب بين النساء متجرم عليه.

و لي و هي قطعة مفردة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| لا تطلبي مني الشباب فما |  | عندي شباب و الشيب قد وفدا |
| اين شبابي و قد انفت على‏ |  | الستين سنا و جزتها عددا |
| فمن بغى عندي البشاشة و اللهو |  | و بعض النشاط ما وجدا |
|  |  |  |

ص: 268

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و قد مضى من يدي و فارقني‏ |  | ما لا أراه براجع ابدا |
|  |  |  |

و لي و هي قطعة مفردة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| صدت و ما كان الذي صدها |  | الا طلوع الشعر الأشهب‏ |
| زار و كم من زائر للفتى‏ |  | حل بواديه و لم يطلب‏ |
| ركبته كرها و من ذا الذي‏ |  | أركبه الدهر فلم يركب‏ |
| كأنه نار لباغي القرى‏ |  | أضرمها القوم على مرقب‏ |
| أو كوكب لاح على أفقه‏ |  | أو بارق يلمع في غيهب‏ |
| لحمي و قد أصبحت جارا له‏ |  | زادي و دمعي وحده مشربي‏ |
| و اننى فيه و من اجله‏ |  | معاقب القلب و لم أذنب‏ |
| و ليس لي حظ و ان كنت من‏ |  | أهل الهوى في قنص الربرب‏ |
| و ما رأينا قبله زائرا |  | جاء إلينا ثم لم يذهب‏ |
|  |  |  |

معنى البيت الذي أوله‏

|  |
| --- |
| لحمي و قد أصبحت جارا له‏ |

ان صاحب الشيب إذا كان على الأكثر ينقص لحمه و يهزل جسمه و يعترق الشيب أعضاءه، فكان ذا الشيب يتزود لحمه فهو يفنى على الأيام.

و يحتمل وجها آخر، و هو: ان لذي الشيب حسرة على شبابه و حزنا على حلول مشيبة، فيعض كفه و أنامله كما يفعل المغيظ المهموم، و جعل ذلك الغيظ تزودا و اقتياتا على سبيل المجاز.

و البيت الأخير معناه: ان من شأن كل زائر لغيره أن يجوز انصرافه عنه و مفارقته له و ذلك المزور حي باق، الا الشيب فإنه إذا زار لم يذهب الا بذهاب الحياة و فقدها.

ص: 269

و لي و هي قطعة مفردة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| لا تسألني عن المشيب فمذ |  | جلل رأسي كرها جفاني الغرام‏ |
| ليس للهو و الصبابة و اللذات‏ |  | في أربع المشيب مقام‏ |
| ما جنى الشيب في المفارق الا |  | عنت الغانيات و الأيام‏ |
| هو نقص عند الحسان كما |  | ان شبابا مكان شيب تمام‏ |
| و سقام و ما استوت لك في‏ |  | نيل أمانيك صحة و سقام‏ |
| و متى رمت عرجة عنه قالت‏ |  | لي التجاريب رمت ما لا يرام‏ |
|  |  |  |

و لي و هي قطعة مفردة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| تقول لي و مآقيها مطفحة |  | من ذا ابان على صبغ الدجى قبسا |
| من ذا الذي غل من فوديك لونهما |  | و سل حسنك في ما سل أو خلسا |
| ما لي أراك و نور البدر منكسف‏ |  | في وجنتيك و خط فيهما طمسا |
| كأنما أنت ربع طل ساكنه‏ |  | و منزل عطل من اهله درسا |
| ما ضر شيئا و قد وافى بمنظرة |  | تقذى النواظر لو أبطأ أو احتبسا |
| أما علمت بأنا معشر جزع‏ |  | نقلي الصباح و نهوى دونه الغلسا |
| فقلت ما كنت من شي‏ء يصيب به‏ |  | ربى و ان ساء منى القلب محترسا |
| و ما الشبيبة الا لبسة نزعت‏ |  | بدلت منها فلا تستنكرى اللبسا |
| و في كل الذي تهوين من جلد |  | فما أبالي أقام الشيب أم جلسا |
| لا تطلبي اللهو منى و المشيب على‏ |  | رأسي فان قعود اللهو قد شمسا |
| و لا ترومى الذي عودت من ملق‏ |  | و كل ما لان قبلي الغداة قسا |
|  |  |  |

ص: 270

و لي من قطعة مفردة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| قلت لمسود له شعره‏ |  | هل لك في المبيض من شعري‏ |
| خذه و ان لم ترضه صاحبا |  | مع الذي بقي من عمرى‏ |
| فقال لي يا بعد ما بيننا |  | و نازح أمرك من أمري‏ |
| عمرت ستين و نيفها |  | و نيفت سني على عشر |
| ليس لداء بك من حيلة |  | فاجرع ملاء اكؤس الصبر |
|  |  |  |

ان قيل: كيف تسمح نفس صاحب الشيب بأن يسأل في نقله عنه مع سلب ما بقي من عمره و انما يكره الشيب لأنه نذير الموت و بشير بمفارقة الحياة؟

فالجواب: ان أحد ما يكره له الشيب ما ذكرني السؤال و الأكثر الأظهر في سبب كراهية المشيب نفور الغواني منه و صدودهن عنه و تعييرهن به، و ان صاحبه فاقد اللذات ضعيف الشهوات متكدر الحياة، و من كان بهذه الصفة تمنى أن يفارقه الشيب بمفارقة الحياة ليستريح من أدوائه التي لا علاج منها و لا دواء لها.

و لي و هي قطعة مفردة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| لوت وجهها عن شيب رأسي و انما |  | لوت عن بياض زاهر لونه غضا |
| و لو أنصفت ما أعرضت عن شبيهها |  | و لا أبدلته من محبته بغضا |
|  |  |  |

نفور الإنسان لا يكون عما يماثله و يجانسه بل عما يضاده و يخالفه، و البيض من النساء يوافق لونهن لون المشيب، فكيف نفرن عنه و بعدن منه مع المشاكلة لو لا انعكاس العادة في الشيب.

ص: 271

و لي من جملة قطعة مفردة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و رابك منى قبل أن تتبينى‏ |  | بأن ليس لي أمر عليه مشيب‏ |
| و عاقبتني ظلما و كم من معاقب‏ |  | و ليس له عند الحسان ذنوب‏ |
| و ليس عجيبا شيب رأسي و انما |  | صدودك عن ذاك المشيب عجيب‏ |
| هبيه نهارا بعد ليل و روضة |  | تضاحك فيها النور و هي قطوب‏ |
| و لا تطلبي شرخ الشباب و قد مضى‏ |  | فذلك شي‏ء ما أراه يؤوب‏ |
|  |  |  |

أما وصف ما لم يظهر زهره و نوره من الروض بالقطوب فمن واقع التشبيه و غريبه، لأنه إذا شبه ما أزهر منه و نور بالضاحك جاز أن يسمى ما استمر على اخضراره و اسوداده بأنه قاطب، لفقد النور المشبه بالضحك منه.

و لي و هي قطعة مفردة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| تلوم و قد لاحت طوالع شيبتي‏ |  | و ما كنت منها قبل ذاك مفندا |
| فحسبك من لومي و الا فبعضه‏ |  | فما أبيض إلا بعض ما كان اسودا |
| و لا تلزمينى اليوم عيبا بصبغة |  | ستكسينها اما بقيت لها غدا |
| و لو خلدت لي حالة مع تولع‏ |  | الليالي بأحوالى لكنت المخلدا |
| و لو لم أشب أو تنتقصني مدة |  | لكنت على الأيام نسرا و فرقدا |
| و ان المشيب فدية من حفيرة |  | أبيت بها صفرا من الناس مفردا |
| أوسد بالصفاح لا من كرامة |  | و اني غنى وسطها ان اوسدا |
| فلا تنفري يا نفس يوما من‏ |  | فما أنت إلا في طريق إلى الردى‏ |
|  |  |  |

البيت الثاني لطيف المعنى، لأن من لام و فند و عنف على شيب لا صنع للشائب‏

ص: 272

في نزوله و لا حيلة له في دفع حلوله يجب أن يستوقف عن لومة ان أنصف، فان أبى الا الظلم فلا أقل من أن يقتصر على بعض اللوام و لا ينتهي إلى غايته، لأن الشعر الذي عنف ببياضه انما أبيض بعضه و لم يسر ذلك الى كله، فسبب اللوم إذا لم ينته إلى الغاية فاللوم لا يجب أن ينتهي إليها.

و لي و هي قطعة مفردة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| تضاحكت لما رأيت المشيب‏ |  | و لم أر في ذاك ما يضحك‏ |
| و ما زال دفع مشيب العذار |  | لا يستطاع و لا يملك‏ |
| و قال لي الدهر لما بقيت‏ |  | اما المشيب أو المهلك‏ |
| فقولي و أنت تعيبينني‏ |  | لأي طريقهما اسلك‏ |
|  |  |  |

اللطف ما هون به نزول الشيب، و أقواه شبهة انه فداء المنية و بدل من الهلكة و قد تقدم في شعري نظائر لذلك كثيرة من استقرأها وجدها.

و لي من جملة قطعة مفردة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| يا اسم ان صبابتي‏ |  | بك لو أويت لها طويله‏ |
| و أخذتني بذنوب شيب لم‏ |  | تكن لي فيه حيله‏ |
| نزلت شواتى خطة |  | منه احاذرها نزيله‏ |
| و قضى الشباب و ليته‏ |  | لما قضى لم يقض غيلة |
| كان الشباب وسيلتي‏ |  | فالآن ما لي من وسيلة |
|  |  |  |

ص: 273

و لي و هي قطعة مفردة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| تقاسم الليل و الإصباح بينهما |  | عمرى فمن حاصد طورا و مزدرعى‏ |
| اعطى نهاري و ليلى شبه صبغهما |  | فنسج أيدي الدجى ثم الضحى خلعى‏ |
| لليل سودى و للصبح المنير إذا |  | أجلاه شيبى فلومي فيه أو قدعى‏ |
| فنوبة الليل قد ولت كما نزلت‏ |  | فأصبح من هذا المشيب معى‏ |
|  |  |  |

هذه الأبيات متضمنة لمعنى غريب، لأن هذا القسم و التوزيع على الليل و النهار من الشيب و الشباب شبههما و نظيرهما ما وجدته الى الان على هذا الترتيب في شي‏ء من الشعر المأثور.

و لي و هي قطعة مفردة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| إن عاقب الشيب السواد بمفرقى‏ |  | فالليل يتلوه الصباح الواضح‏ |
| من اخطأته و قد رمت قوس الردى‏ |  | يبيض منه مفارق و مسانح‏ |
| لو كان لليل البهيم فضيلة |  | لم تدن منه مقابس و مصابح‏ |
| البيض للعينين وجه ضاحك‏ |  | و السود للعينين وجه كالح‏ |
| و أشد من جدع الجياد إذا جرت‏ |  | جريا و اصبرهن نهد فارح‏ |
| و البزل تغتال الطريق سليمة |  | و على الطريق من البكار طلائح‏ |
|  |  |  |

قد جمعت هذه الأبيات من الاعتذار للشيب و التسلية عنه من غريب بديع غير مبتذل و بين معروف معهود، كأنه لحسن موقعه و عذوبة لفظه غير معروف و لا معهود و التأمل لذلك حكم عدل فيه. فمعنى البيت الثالث هو الذي ليس بمطروق.

و أدل دليل على أن السواد البهيم ليس بفضيلة للاستضاءة فيه بالمقابس و المصابيح و هذا تعلل و تمحل و ان كان من مليح ما تمحل، لأن الليل لا تتم الأغراض فيه الا

ص: 274

بالمصابيح ليهتدى بها في سواده و الا فالأوطار فيه غير مبلوغة، و ليس هذا في سواد الشباب و بياض الشيب، و من ذم بياض الشعر لم يذممه لأنه فضل البياض على السواد على كل حال، فينتقض عليه ذلك بمصابيح الليل. و انما ذمه لأن الأوطار التي تنال بالشباب المحمودة كلها تفقد معه، فكان المذموم هو فقد سواد تدرك به الأغراض و تنال معه الأوطار دون ما ليس هذه صفته. و هذا التحقيق مطرح في الشعر، و يكفى الشاعر إذا عيب ببياض شعره و فضل سواده على بياضه أن يعتذر في ذلك بما ذكرناه في البيت.

فأما البيت الرابع فمعناه أيضا كالبديع الغريب، و يشبهه ما مضى من قولي‏

|  |
| --- |
| تضاحك فيها النور و هي قطوب‏ |

فان القطوب كالكلوح.

و لي و هي قطعة مفردة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| تصدين عني للمشيب كأننى‏ |  | صرفت شبابي أو دعوت مشيبي‏ |
| و كيف سلوي عن حبيب إذا مضى‏ |  | فلا متعة لي بعده بحبيب‏ |
| كأني ربع بعده غير آهل‏ |  | و واد جفاه القطر غير خصيب‏ |
| فلا تندبى عندي الشباب فإنما |  | بكائي عليه وحده و نحيبي‏ |
|  |  |  |

و لي و هي قطعة مفردة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| أمن بعد ستين جاوزتها |  | تعجب أسماء من شيبتي‏ |
| و أعجب من ذاك لو ما كبرت‏ |  | و لم ينزل الشيب في لمتى‏ |
| فان كنت تأبين شيب العذار |  | فكم خيب المرء من منبت‏ |
|  |  |  |

ص: 275

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و ان أنت يوما تخيرت لي‏ |  | فشيبى أصلح من ميتتي‏ |
| فلا تغضبى من صنيع الزمان‏ |  | فما لك شي‏ء سوى الغضبة |
|  |  |  |

معنى قولي‏

|  |
| --- |
| فما لك شي‏ء سوى الغضبة |

ان الغضب لا يفيد شيئا و لا تحصلين فيه الا على مجرد الغضب من غير فائدة.

فأما قولي‏

|  |
| --- |
| فشيبى أصلح من ميتتي‏ |

فقد تقدمت نظائره.

و لي و هي قطعة مفردة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| جزعت امامة من مشيب‏ |  | الرأس إذ سفهت امامه‏ |
| و تنكرت بعد الصدود |  | و قد ألم بنا لمامه‏ |
| و استعبرت لما رأت‏ |  | في لمتى منه ابتسامه‏ |
| و رأت على ظلم المفارق‏ |  | من توضحه علامة |
| مثل الثغامة لونها |  | لكنها غير الثغامه‏ |
| و تظلمت منه على‏ |  | ان ليس تنفعها الظلامة |
| و لقد أقول لها و كم‏ |  | من قائل أمن الملامة |
| لا تنكري بدد المشيب‏ |  | فإنه ثمر السلامة |
|  |  |  |

من بليغ القول و مختصره وصف الشباب بأنه ثمر السلامة و هذا انتهاء ما خرج وصف المشيب من نظمي الى سلخ ذي الحجة من سنة احدى و عشرين و أربعمائة، و ان تراخى الأجل و ترامى المهل و اتفق فما يخرج من الشعر شي‏ء من وصف الشيب ضممناه الى ما تقدم. و اللَّه ولي التوفيق في كل قول و عمل و هو حسبنا و نعم الوكيل، و صلى اللَّه على سيدنا محمد و آله و صحبه أجمعين.

ص: 277

(57) (مسألة في معجزات الأنبياء عليهم السلام)

ص: 279

[[119]](#footnote-119)

بسم اللَّه الرّحمن الرّحيم‏

[بعض عقائد أسلاف المجبرة و المشبهة]

مسألة:

من كلام قاضي القضاة عبد الجبارين أحمد في أن المجبرة و المشبهة أن يمكنهم الاستدلال على النبوة.

قد اخترت في وقتنا هذا على التزام أشياء كان سلفهم يمتنعون من التزامها، و أطلقوا ألفاظا كانوا يأبون إطلاقها. بل صار ما كان مشايخنا يرومون إلزامهم إياه أول ما يفتون به، و استغنوا عن الكلام في البدل و عن كثير من العبارات التي كانوا يحايلون بها[[120]](#footnote-120) و ان كان لا محصول لها.

و مروا على جواز تكليف العاجز ما عجز عنه، و مطالبة الأعمى بالتمييز بين الألوان، و الزمن بصعود الأجبال‏[[121]](#footnote-121)، و تعذيب الأسود [على سواده‏][[122]](#footnote-122). و الزمن‏

ص: 280

على زمانته، تكلف الممنوع صعود السماء، و المشي على الماء، و رد الفائت و احياء الميت، و الجمع بين المتضادين‏[[123]](#footnote-123)، و جعل المحدث و القديم محدثا و تعذيبه إذ هو لم يفعل ذلك.

و أجازوا في العقل أن يرسل اللَّه تعالى الى عباده رسلا يدعون الى عبادة غير اللَّه و الكفر، و أن يحسن ذلك منه و من الفاعل له عند أمره‏[[124]](#footnote-124)، و أن يرد القيامة اثنان فيعذب أحدهما لأنه وحد اللَّه و يعذب الأخر لأنه ألحد.

و أنكروا ألا يكون للحسن و القبيح في العقل حقيقة أصلا.

و بلغني أن فيهم من التزم أنه ليس في أفعال اللَّه تعالى ما هو حسن، لأنهم لما عقلوا قبح القبيح بنهي اللَّه عنه- و اللَّه تعالى ليس بمنهي لم يصح منه شي‏ء- لزوال علة القبيح من أفعاله.

قيل لهم: فكذلك فقولوا انه ليس في أفعاله حسن، إذ علة الحسن فينا، و هي الأمر زائلة[[125]](#footnote-125) عن أفعاله.

و اتصل بنا أنهم مروا على ذلك فخالفوا نص القرآن و الإجماع، و خرجوا عن سائر الأديان، و لم يحجموا عن شي‏ء، و ان ظهر أمره الا لخوف عاجل ضرره، و ألا يقبل العامة منهم، و ألا يعاديهم‏[[126]](#footnote-126) السلطان عليه من جواز ظهور العجز على تكذيب‏[[127]](#footnote-127) المدعي للنبوة. فأما من يدعي الإلهية لنفسه فقد أجازوا ذلك.

و سئلت أن أصرف طرفا من العناية إلى شرح هذا الفصل، و أن أذكر من‏

ص: 281

ذلك طرفا مما أرتئيه‏[[128]](#footnote-128) على أقصى ما في مللهم إن شاء اللَّه، و به القوة.

[وجه عدم إظهار المعجزات على أيدي غير الأنبياء] يقال لهم: إذا أجزتم أن يصد اللَّه تعالى العباد عن الدين و يستفسد المكلفين و يخلق الضلال في قلوبهم و الجحد في ألسنتهم، فلم لا يجوز أن تظهر المعجزات على المقتولين ليغتر بذلك المكلفون فيصدقوهم فيما هم فيه كاذبون؟

فان قالوا: لا يجوز، لأن المعجز لنفسه أو لكونه معجزا دال على صدق الصادق و نبوة النبي، فليس يجوز أن ينقلب عما هو عليه، و الا يخرج‏[[129]](#footnote-129) من أن يكون دليلا على أن فاعله قادر.

قيل لهم: و لم زعمتم ذلك، و ما وجه دلالة المعجز على صدق من ظهر عليه و من أي وجه أشبه ما ذكرتموه؟

فان قالوا: بينوا أنتم وجه دلالة ما ذكرناه على ما زعمتم أنه دليل عليه.

بينا وجه ذلك و أوضحناه و نهجنا طريقه، ثم عدنا إلى المطالبة بوجه دلالة ما سألناهم عنه على المسامحة دون المضايقة.

فإن قالوا: لأنا رأينا دعاء كل منكذب في ذلك يسمع و العلم عند مسألته لا يقع فعلمنا أن من ظهر على يديه لا بد من أن يكون مباينا لغيره من المتخرصين، إذ لو كان كهم لوجب أن تقع عند كل داع و مسألة كل سائل.

يقال لهم: ما أنكرتم أن يكون الغرض في وقوعه دعوى بعضهم دون بعض هو الاستفساد و التلبيس و لظنوا ما قلتم انكم عملتموهم، فصح أن يكون غواية

ص: 282

و تلبيسا. و لو ظهر على يدي كل كاذب و صح لكل مدع لجرت العادة به، و لا يتم الغرض.

[لا يجوز كذب الرسول في اخباره‏] استدلال آخر:

ان قالوا: لو جاز أن يظهر المعجز على يدي الكذابين لم يجز أن يظهر على [يدي‏][[130]](#footnote-130) أحد من الصادقين، و لوجب أن يكون من ظهر عليه كاذبا في جميع ما يخبر به. كما أنه لما دل عندنا و عندكم على صدق الأنبياء لم يجز أن يقع منهم كذب، و في علمنا يصد من ظهر على يديه في كثير مما يخبر به، دليل على أن المعجز دليل الصدق لا الكذب.

يقال لهم: ان لم تمسكتم أن يكون دلالة على كذب الكاذب و انما سميناكم تلبيسا[[131]](#footnote-131) و اضلالا، و ما كان كذلك فليس يجب أن يجري على طريقة واحدة.

و إذا كان هذا الزامنا سقط ما تعلقتم به.

و أيضا: فإن العلم ليس هو تصديق لمن ظهر عليه في كل ما يخبر به، و انما هو تصديق له فيما أخبر به من النبوة لنفسه و بحمله الرسالة عن ربه، و إذا كان كذلك ثبت أنه لم يظهر قط الا تصد لمن كذب في هذا المعنى، فأما صدقه في غير ذلك فلا تعلق له بالمعجز.

و انما قلنا نحن أن الرسول عليه السلام لا يجوز أن يكذب في شي‏ء من أخباره لأن في كونه في غير ما أداه عن اللَّه تعالى [يكون‏][[132]](#footnote-132) اتهاما له و تنفرا عنه، و ليس‏

ص: 283

يجوز أن يرسل اللَّه تعالى من يكون كذلك، كما لا يجوز أن يفعل شي‏ء من ضروب الاستفساد. و هذه طريقته المستمرة على أصولكم، فالمطابقة بحالها.

فان قالوا: ليس يخلو المعجز من أن يكون دليلا على الصدق و الكذب، فان كان دليلا على الصدق فهو ما قلنا، و ان كان دليلا على الكذب لزم فيه ما ألزمنا.

قيل لهم: ما أنكرتم ألا يكون دليلا على أحدهما و أن يكون الغرض فيه هو التبيين على ما بينا فهل من فضل. و ما أنكرتم من أن يكون تصديقا لكاذب مخصوص و هو المدعي للنبوة فلا يوجد الا كذلك، فهل من شي‏ء تدفعون به ما طولبتم‏[[133]](#footnote-133) به، و لن تجدوا ذلك أبدا.

[استحالة القبيح على القديم تعالى‏] دليل آخر لهم:

ان قالوا: ان المعجز تصديق لم نظهر عليه، فكما لا يجوز أن يصدق اللَّه تعالى أحدا- بأن يخبر بأنه صادق و هو كاذب- فكذلك لا يجوز أن يصدق لما يجري مجرى القول من الفعل.

يقال للنجارية منهم: المسألة عليكم في البابين واحدة، فلم لا يجوز ذلك.

و يقال للكلابية: نحن قلوبكم ذلك، فبم تتفضلون.

فان قالوا: قد ثبت أن اللَّه تعالى صادق لنفسه أو أن الصدق من صفات ذاته، فليس يجوز عليه الكذب في شي‏ء من أخباره، كما انه إذا كان عالما لنفسه لم يجز أن يجهل شيئا من معلوماته.

قيل لهم: هاهنا سلمنا لكم هذا الذي لا سبيل لكم اليه، و سنبين لكم بطلان‏

ص: 284

دعواكم له فيما بعد، و لكن كيف بناء ما سلمناكم عنه على ما سلمناه لكم، و ذلك أن الكذب ثم يمتنع وقوعه من القديم تعالى لقبحه، فلا يجوز أن يقع منه ما ضاهاه في القبح. و انما استحال عليه لأنه موصوف بضده لنفسه.

و ليس هذا المعنى موجودا فيما سألناكم عنه، لأن المعجز فعل من أفعال اللَّه تعالى، فما الجامع بينهما. فلا يجدون شيئا.

[عدم جواز إضلال اللَّه تعالى عن الدين‏] دليل آخر لهم:

ان قالوا: لو جاز أن يظهر اللَّه المعجز على [أيدي‏][[134]](#footnote-134) الكذابين لكان لا سبيل لنا على الفصل بين الصادق [و الكاذب‏][[135]](#footnote-135) و النبي و المتنبي من جهة الدليل، و لكان القديم تعالى غير موصوف بالقدرة، على أن يدلنا على الفصل بينهما. و هذا تعجيز له، و قد دليل الدليل على أن القدرة من صفات ذاته، فما أدى‏[[136]](#footnote-136) الى خلاف ما دل الدليل عليه فهو باطل.

قل لهم: فقولكم أداكم اليه، و ذلك أن كذب الكاذب إذا كان لا يخرج القديم من أن يكون قادرا على ما كان قادرا عليه و لم يكن قبح الفعل يؤمننا من وقوعه منه تعالى على قولكم، فما أنكرتم من أنه لا سبيل لنا و لا للقديم تعالى الى الفصل بين الصادق من جهة الدليل لا ترون أن من خالفكم في إجازة الضلال عن الدين على اللَّه تعالى لقبح ذلك. كيف يمكنه أن يستدل بظهور المعجز على صدق من ظهر عليه و أنكم مختصون بتعذر ذلك عليكم على أصولكم. فهذا القول بمقتضى أصولكم‏

ص: 285

وقوع على مذاهبكم، فان كان قولكم صحيحا فهو صحيح فلا تأبوه‏[[137]](#footnote-137)، و ان كان باطلا فقولكم الذي أدى اليه باطل.

أ رأيتم ان لو جعلنا ابتداء السؤال عن هذه فقلنا لكم: لو جاز أن يضل اللَّه عن الدين يفعل غير ذلك من ضروب القبيح فما الدليل على أنه موصوف بالقدرة على الفصل‏[[138]](#footnote-138) بين الصادق و الكاذب من جهة الدليل. فما كان يكون جوابكم عن هذا؟

فان قالوا: إذا ثبت أن القدرة من صفات ذاته، و كان هذا وجها يمكن الفصل فيه و طريقا يمكن سلوكه و يطرق منه الى الفرق بين النبي و المتنبي، وجب أن يكون القديم موصوفا بالقدرة. على أن يفرق لنا بينهما و لما كان ذلك تعجيزا.

قيل لهم: و لم زعمتم أن هذا وجه يمكن الفصل منه على تلك الأصول. و ما الفرق‏[[139]](#footnote-139) بينكم و بين من قال: انه لو كانت العقول لا تدل على أن القبيح لا يجوز على اللَّه تعالى و ان الإضلال عن الدين مانع منه‏[[140]](#footnote-140) جائز في حكمه. لكان العقل مقتضيا أنه لا سبيل الى الفصل بين الصادق و الكاذب من جهة الدليل، و كان ذلك في قسم المحال الذي لا تصح القدر عليه و لا العجز عنه.

[تقسيم خاطئ في المعلومات‏] ثم يقال لهم: ليس في المعلومات ما لا يصح أن يعلم من وجه و يصح أن يعلم من غيره.

و لا يجب أن يقال: ان القديم لو لم يكن موصوفا بالقدرة- على أن تعلمناه‏

ص: 286

من ذلك الوجه- لاقتضى ذلك تعجيزه و إخراجه عن منعه هو عليها لنفسه. و هذا كالعلم بما كان و يكون و سائر ما يجري به مجرى العلم بالغيب، فإنه لا يصح أن فعله بالأدلة العقلية.

و لا يوصف تعالى بالقدرة على أن ينعت لنا دليلا على وجوده عقليا و كونه أو يجعل الأجسام دلالة عليه كما يكون دلالة على اللَّه تعالى. و ان جاز أن يعلمنا ذلك عند الإدراك و الخبر المتواتر و يضطرنا الى وجود ذلك ابتداء.

و كذلك ما تنكرون أن يكون تعذر وقوع العلم لنا من جهة الدليل بالفصل بين الصادق و الكاذب لا يوجب تعجيزه تعالى لإيصال‏[[141]](#footnote-141) القدرة عنه عما يجوز القدرة عليه.

و يقال لهم: أ ليس ما جرت العادة به من نحو طلوع الشمس و غروبها و نحو ذلك، لا يصح أن يكون دليلا على نبوة أحد من الأنبياء، و لا يوصف القديم بالقدرة على أن يجعل دليلا على صدق أحد منهم و هو على ما هو عليه الان.

فإذا قالوا: بلى.

قيل لهم: فما أنكرتم ألا يكون في العقل دليل على الفصل بين الصادق و الكاذب، و ان كان ذلك ممكنا من غير جهة الدليل العقلي.

فإن قالوا: ان ما جرت به العادة قد كان ممكنا أن يجعله دليلا بأن لا تجري العادة به، فيكون حدوثه على ما يحدث عليه الان نقضا لعادة أخرى، فيستدل به على صدق من ظهر عليه.

قيل لهم: أ فحين جرت له العادة و ذلك هذا المعنى عنه‏[[142]](#footnote-142)، أوجب ذلك خروج القديم عن صفة قد كان عليها لنفسه أو حدث وصفه بالقدرة على أن يجعله دليلا،

ص: 287

و العجز انما يصح القدرة عليه.

قيل لهم: فكذلك ما كان في الأصل مستحيلا أن يعلم بالأدلة العقلية لم يجز أن يقال: انه يقدر عليه أو يعجز عنه، و يعاد عليهم ما ذكرناه من العلم بالكائنات الغائبات.

[نفي الإضلال ليس من التعجيز في الفعل‏] ثم يقال لهم: بالفصل بينكم و بين من قال انه لو لم يجز أن يظهر اللَّه المعجزات على النبيين لم يكن القديم تعالى موصوفا بالقدرة على أن يضل الناس عن الدين هذا الضرب من الضلال و أن يلبس عليهم هذا النوع من التلبيس، و قد ثبت أن القدرة من صفات ذاته و التلبيس من صفات فعله. و هذا وجه يمكن أن يضل منه عن الدين، فلو لم يصح أن يفعله لكان ذلك تعجيزا له.

فان قالوا: لا يكون ذلك تعجيزا، لأنه قادر على أن يضلهم بغير هذا الضرب من الإضلال.

قلنا لهم: فقولوا أيضا بما ألزمناكموه و لا يكون يعجز اللَّه تعالى، لأنه قادر أن يعلمهم الصادق من الكاذب من جهة الدليل، بأن يضطرهم الى ذلك. و هذا هدم لهذا المذهب و قبض لألسنتهم عن الشغب.

فان قالوا: هو قادر على ذلك لكن لا يفعله لئلا يخرج بفعله إياه عن صفة[[143]](#footnote-143) هو عليها لنفسه.

قيل لهم: ان خروج الشي‏ء عن صفة هو عليها لنفسه لا يكون مقدورا، و ان كان مثل هذا يجوز أن يكون مقدورا فما أنكرتم أن يكون قد فعله، فخرج عن‏

ص: 288

تلك الصفة. و هذا ما أردنا الزامكموه من أقبح الوجوه.

فان قيل: أ لستم تجيزون وقوع ما علم اللَّه تعالى أنه لا يكون و ان كان مما لو كان لكان حسنا لم يمنع أن يعلموا أنه لا يقع، و ان وقوع مثله جائزا مما هو حسن، فما أنكرتم أن يكون وقوع هذا الضرب من الإضلال غير جائز. و أن يصح أن يعلم أنه لا يقع و ان جاز وقوع غيره من الإضلال، و أن يكون المانع من هذين أن أحدهما مؤد إلى تجهيل اللَّه و الأخر إلى تعجيزه. تعالى اللَّه عن ذلك علوا كبيرا.

قيل لهم: انا لم نمتنع من اجازة كون ما علم اللَّه أنه لا يكون، إذا أردنا بالجواز معنى الشك من حيث ذكرتم، لكن متى علمنا أن اللَّه تعالى عالم بأن شيئا لا يكون فنحن عالمون بأنه لا يكون، لأنه لا يجوز أن نعلم أن عالما من العالمين قد علم كون شي‏ء أو أنه مما لا يكون و نحن شاكون أو جاهلون بكونه أو أنه مما لا يكون، لأن العالم بأن العالم عالم لا بد من أن يكون عالما بأن معلومة على ما علمه عليه. و لهذا نظائر من مدلول الدليل و مخبر الحال [..][[144]](#footnote-144).

و نحو ذلك مما سألتم عنه انما أمنا من وقوعه علمنا بأنه لا يقع، و سؤالكم مبني على ذلك و الا بطل و اضمحل.

و ما ألزمنا يكون فإنما ادعيتم أنه مؤد لكم الى القول بما لا تلزمونه من تعجيز اللَّه تعالى، فأريناكم أنه ان كانت أقوالكم‏[[145]](#footnote-145) صحيحة فإنه لا يؤدي الى ذلك بل يؤدي الى حال القدرة على ما لا يصح أن يكون مقدورا، و ذكرنا له نظائر من خاص قولكم و مما نتفق فيه معكم مما يستحيل وصف القديم تعالى بالقدرة عليه، و لم يوجب ذلك تعجيزا له و لا إخراجه عن صفات ذاتية. و إذا كان هكذا فليس بين‏

ص: 289

ما ألزمناكموه و بين ما سألتم عنه سبب.

[معنى الضلال و الهدى و الحسن و القبح‏] ثم يقال لهم: انا نسألكم عن ضلال فرضنا في نفس المسألة أنه مما علم أنه لا نفع، كما سألتم عن هدى فرضتم في نفس المسألة أنه لا يقع. و انما سألناكم عن ضلال موقوف على الدليل و في جواز وقوعه.

و الشك في كونه يتكلم معكم: فليس يخلو من أن يكون مما يصح وصف القديم تعالى بالقدرة على إيجاده على الوجه الذي سألناكم عنه أولا يصح ذلك بل يستحيل، فان كان مما يستحيل وصفه بالقدرة عليه فليس يلزمكم إذا لم تصفوه بالقدرة عليه تعجيز اللَّه تعالى، فلا تلزموا أنفسكم ذلك كما يلزمكم، و لا يلزمنا أيضا تعجيز اللَّه تعالى متى لم نصفه بالقدرة على ما يستحيل أن يكون مقدورا من الجمع بين المتضادات و سائر المحالات.

و ان كان مما يصح وصف القديم بالقدرة عليه فما الذي آمن من وقوعه، فان الحال عندنا يختلف في مقدورات القديم و يتفق عندكم، و ذلك أن سنخ القبيح يؤمننا من وقوعه منه تعالى لأدلتنا المشهورة في ذلك، و ما ليس بقبيح فلا سبيل لنا الى الامتناع من تجويزه. و لا يؤمنا من وقوعه الا الخبر الصدق إذا ورد بنفي وقوعه.

و جميع مقدورات القديم عندكم بمنزلة الحسن من مقدوراته عندنا، لأن قبح القبيح لا يعجز عن فعله، بل لا يصح منه شي‏ء. و على قولكم فلا أمان لكم من وقوع شي‏ء من ذلك الا من جهة الخبر.

فإذا كنا انما نكلمكم في الطريق التي منها يعلم صحة الخبر، فقد انسدت عليكم‏

ص: 290

الطريق التي تؤمن من وقوع ما سألناكم عنه. و هذا كما ترى يوجب عليكم الانسلاخ من جميع الأديان و الشرائع و الشك في سائر الرسل صلوات اللَّه عليهم. و لم يجدوا عن ذلك مذهبا الا بترك قولهم.

[وصف القديم تعالى بما لا يوصف‏] ثم يقال لهم: أ يوصف القديم تعالى بالقدرة على ان يظهر المعجزات على [أيدي‏][[146]](#footnote-146) الكذابين.

فان قالوا: لا يوصف بالقدرة على ذلك.

قيل لهم: فهل يقتضي ذلك تعجيزه تعالى و خروجه عن صفة من صفات ذاته.

فان قالوا: لا.

قيل لهم: فلم تنفروا من شي‏ء أحلتم وصفه بالقدرة على وجه دون وجه، و ذلك أن كذب هذا الكافر هو الذي أحال وصف القديم تعالى بالقدرة على إظهار المعجز على يده و لو صدق لم يستحل ذلك. فإذا جاز أن يوصف على شي‏ء و على بعض الوجوه دون بعض، فلم لا يجوز أن يوصف بالقدرة على الفصل بين الصادق و الكاذب من وجه دون وجه. و هذا الاضطرار دون الاكتساب.

و ان قالوا: ان القديم تعالى موصوف على إظهار المعجز على [أيدي‏][[147]](#footnote-147) الكذابين.

قيل لهم: فما الذي يؤمن من فعله.

فان قالوا: لو فعله يخرج من أن يوصف بالقدرة على الفصل بين الصادق‏

ص: 291

و الكاذب من جهة الدليل.

قيل لهم: فكأنه يقدر أن يخرج نفسه من أن يكون قادرا على ما يصح وصفه بالقدرة عليه.

فان قالوا: نعم.

قيل لهم: فما يؤمنكم أن يفعل ذلك، فان خرج من أن يكون قادرا، لأن خروجه عن كونه قادرا لو كان أمرا مستحيلا لما صح أن يكون مقدورا لقادر، كما أنه لو جعل محدثا و المحدث قديما لما كان مستحيلا، لم يصح أن يتعلق بقدرة قادرا[[148]](#footnote-148).

فان قالوا: لا نقول بأنه لو فعل لخرج من أن يكون قادرا على ما يصح وصفه بالقدرة عليه، لكن لو فعله لاستحال وصفه بالقدرة على الفصل بين الصادق و الكاذب من طريق الدليل.

قيل لهم: لا ضير، فما تنكرون أن يفعله و ان استحال ذلك بعد فعله، فإن منزلة هذا يكون بمنزلة نفس الشي‏ء أنه متى أوجده فصار موجودا باقيا استحال وصفه‏[[149]](#footnote-149) بالقدرة على إيجاده. و إذا كان هذا هكذا فما الذي يؤمنكم من وقوعه، فلا يجدون سعيا فضلا عن جهة.

[نقل كلام للشيخ المفيد] و قد ألزمهم الشيخ أبو عبد اللَّه في أصل هذا الكلام، فقال: ما الفصل بينكم و بين من قال: و لو جاز أن يضل اللَّه عن الدين لكنا لا نأمن أن يكون جميع ما فعله‏

ص: 292

ضلالا و لو لم يصل الى الفرق بين الضلال و الهدى، و لكان القديم تعالى لا يوصف بالقدرة على الفصل بين الضلال و الهدى.

فإن قال منهم قائل: ان ما يفعله القديم تعالى و لم يتعلق لنا به أمر و لا نهي فليس بضلال و لا هدى و ما أمر به و نهي عنه، فليس الأمر و النهي دليلين على كونه هدى و ضلالا بل هما علة كونه كذلك. و ليس المعجز كذلك، لأنه انما يدل على صدق الصادق و ليس هو ما به‏[[150]](#footnote-150) يكون الصادق صادقا، و إذا كان هكذا لم يكن هذا الإلزام نظيرا لما قلناه.

فان نقلتم الكلام الى أن الهدى و الضلال و الهدى لم يكن ضلالا و هدي إلا بالأمر و النهي. أخرجتم هذه المسألة إلى شي‏ء آخر.

يقال لهم: أ ليس ما أمر اللَّه تعالى من الاعتقادات و الاخبار عن المحرمات و ما فعله من ذلك فينا، لا يدل فعله له و أمره به على أن معتقد الاعتقاد و مخبر الخبر على ما هما به لا يمتنع أن يكون الاعتقاد جهلا و الخبر كذبا، و لا يكون فعله و أمره دليلين على أن مخبر الخبر الذي أمر بفعله و معتقد الاعتقاد الذي تولى فعله أو أمر به على ما هو عليه، و لا يوصف بالقدرة على أن يدل على حق ذلك من باطله.

فإذا قالوا: بلى.

قيل لهم: و لم يخرج بهذا عندكم عن صفة هو عليها في ذاته و لا أوجب صفة نقص له، فما أنكرتم أنه لا يمكن أن يجعل المعجز دليلا على صدق من ظهر عليه، و لا يوجب ذلك تعجيزا له و لا خروجه عن صفة من صفات ذاته. فقد بان صحة ما ألزمهم إياه بطريق الكلام فيه.

فان قالوا: أنهم أيضا يقولون: انه لا سبيل الى ابتداء الاستدلال على أن اللَّه‏

ص: 293

حكيم لا يفعل القبيح بأمره أو بفعله إياه قبل الأدلة العقلية التي هي تدل على أن القبيح لا يجوز عليه، فكيف أنكرتم مثل هذا علينا؟

قيل له: بمثل ما قلنا طلبناك، و ذلك أنه لما كان ابتداء الاستدلال بذلك غير ممكن أحلناه و قلنا: ان القديم تعالى لا يجوز أن يوجب الاستدلال به، و لا أن يجعله دليلا على ما لا يمكن أن يستدل به علينا.

فان كنا قد بينا أن الاستدلال بالمعجز على سياق يحب أن يكون كذلك، فلا نقول: انه لو لم يكن الفصل به بين الصادق و الكاذب لأدى ذلك الى تعجيز اللَّه تعالى، إذ المحال لا يصح القدرة عليه و لا العجز عنه، كما قلنا نحن فيما ذكرته عنا. فقد بان أنه لا متعلق لهم بشي‏ء من الرسل على وجه لا سبب. نعوذ باللّه من الحيرة في الدين.

[معجزية القرآن الكريم‏] فأما القرآن فإنه يعلم أنه كلام اللَّه تعالى أو حكاية لكلامه أو إفهام لكلامه- على ما يطلقه بعضهم- بخبر الرسول صلى اللَّه عليه و آله. و ذلك أنه لا يمتنع أن يخلق اللَّه تعالى القدرة على نظمه و العلم بكيفية تأليفه و وصفه على الوجه الذي لكونه عليه يكون بليغا فصيحا قدرا من الفصاحة و البلاغة لم تجر العادة بمثله في بعض البشر، أما من جاء به أو في ملك من الملائكة أو لجني من الجن و نحو ذلك.

و إذا كان هذا سابقا في قدرة اللَّه تعالى و لم يكن قبح ذلك و كونه استفسادا مانعا من وقوعه من اللَّه تعالى و كنا قد بينا أن العلم بصدق الرسول متعذر على أصولهم. فلا طريق لهم الى العلم بأنه كلام اللَّه تعالى عينا أو حكاية أو إفهاما.

فان قالوا: قد علمنا أنه لم يكن من كلام رسول اللَّه صلى اللَّه عليه و آله لعلمنا

ص: 294

بمقدار كلامه عليه السلام في الفصاحة و البلاغة، لما تأدى إلينا من خطبه و محاوراته في المواضع التي كان يقصد فيها إلى إيراد فصيح الكلام و يتعمل لذلك و يجتهد فيه، فوجدنا ذلك اجمع ناقصا عن رتبة القرآن في الفصاحة و البلاغة مقدارا لم تجر العادة بوقوع مثله بين كلام البشر، فأمننا ذلك من أن يكون من كلامه.

قيل لهم: ما أنكرتم من أن يكون القديم تعالى هو الذي يقدره و يخلق فيه العلم بالفصاحة متى عزم و ان يحتر من‏[[151]](#footnote-151) عليه و يدعي الرسالة منه، و ينزع ذلك منه عند مخاطباته و خطبه تلبيسا و اضلالا و غرابة و استفسادا. و إذا كان هكذا فلم لا يكون من كلامه.

ثم لم لا يجوز أن يكون من كلام غير البشر كالجن و الملائكة، فإنكم لا تقفون على قدر فصاحة أولئك و بلاغتهم و بأي منظوم الكلام و منثوره لهم.

و يقال للنجارية منهم: لم تدفعون أن يكون في اخبار القرآن و ان كان كلام اللَّه تعالى ما هو كذب و كان فيها ما هو صدق، لأن الكلام فعل من أفعاله. فكما لا يمتنع أن يكون في أفعاله الجور و العدل و الحسن و القبيح لم يجز أن يكون فيها الكذب و الصدق و الباطل و الحق. فلا تجدون شيئا سوى ما تقدم و قد نقضناه.

[مناقشة الكلابية في كلام اللَّه تعالى‏] و قد يتوهم الكلابية أنها تعتصم من هذا الإلزام بقولها: انه تعالى صادق و الصدوق من صفات ذاته، فليس يجوز أن يوصف بهذا للصدق. و يستدلون بأنه صادق بأن يقولوا: ان القرآن قد تضمن ما لا يشك في أنه كالخبر عن الليل و النهار و السماء و الأرض و نحو ذلك، فإذا حصل صادقا في شي‏ء لم يجز أن يكون كاذبا

ص: 295

في غيره، لأن الصدق من صفات ذاته.

فيقال لهم: أ ليس قد ثبت أنه صادق في بعض ما يصح أن يكون صادقا عنه دون بعض، و لا يجوز أن يكون عالما ببعض ما يصح ان يكون عالما به و لا قادرا على بعض ما يصح أن يكون قادرا عليه دون بعض.

فان قالوا: بلى.

قيل لهم: فما أنكرتم أن كان يكون كاذبا في بعض ما يصح أن يكون صادقا عنه و ان لم يجب أن يكون جاهلا ببعض ما يصح أن يكون عالما به و لا قادرا على بعض ما يصح أن يكون قادرا عليه.

فإذا قالوا: هو صادق في جميع ما يصح أن يكون صادقا عنه الا انه لم يحك ذلك لنا أو لم يفهمناه.

يقال لهم: خبرونا عن هذه الحكاية و الأفهام أ ليسا من صفات فعله و لا من صفات ذاته.

فإذا قالوا: بلى.

قيل لهم: أ هي في نفسها كلام و اخبار.

فإن قالوا: لا.

قيل: فكيف تعلمون أن اللَّه تعالى قد صدق في شي‏ء، و ما يعني ذلك و ما سمعتم كلامه و انما تعلمون عقلا أنه لم يزل متكلما انتفى الخرس و السكوت عنه على ما يدعون ذلك الخرس و السكوت قد ينتفيان بالكذب كما ينتفيان بالصدق و بغير ذلك من ضروب الكلام. فلم قلتم انه صادق و لم تسمعوا كلاما صدقا و لا كذبا، و ما يدريكم لعله كاذب لنفسه أو الكذب من صفات ذاته.

فان قالوا: هذه الحكاية نفسها كلام.

ص: 296

قيل لهم: و من المتكلم بها.

فان قالوا: القديم تعالى.

قيل لهم: يجوز أن يوصف بأنه متكلم من وجهين: من صفات ذاته، و من صفات فعله.

فان قالوا: نعم.

قيل لهم: فما أنكرتم أن يكون صادقا من صفات ذاته كاذبا من صفات فعله.

فان قالوا: لو لزمنا هذا للزمكم ان يكون عالما لنفسه جاهلا بجهل محدث.

قيل لهم: لو قلنا ان أحدنا ان يكون عالما بعلم يفعله مع كونه عالما لنفسه للزمنا ما ألزمناكم، لكنا نجيز ذلك‏[[152]](#footnote-152) و أنتم قد أجزتموه في الكلام، فما الفصل؟

فان قالوا: ان المتكلم بهذه الحكاية غير اللَّه.

قيل لهم: فما أنكرتم ان ذلك الغير هو الكاذب دون اللَّه، فلم قلتم أن يكون القديم صادقا لذاته يوجب أن يكون ذلك الغير صادقا في كلامه.

فإذا قالوا: لأنه حكاية لكلامه‏[[153]](#footnote-153) بخبر الحاكي أو بأن سمعتم كلام اللَّه، فان كنتم سمعتم كلام اللَّه تعالى و ليس هو هذا، فأسمعونا إياه و عرفونا اين هو و ممن سمعتموه، و ان كنتم انما سمعتم كلام الحاكي و إضافته إياه الى اللَّه فلم زعمتم أن ذلك الحاكي قد صدق على قوله ان هذا المسموع منه حكاية كلام اللَّه. فلا يجدون في ذلك شغبا.

ثم يقال لهم: ان الحكاية للكلام انما يكون بإيراد مثله أو بذكر معانيه،

ص: 297

و المحدث لا يكون مثل القديم، فإذا هو المسموع‏[[154]](#footnote-154) انما هو خبر عن كلام اللَّه، فما أنكرتم أن يكون كذبا ممن وقع من قديم أو محدث، و أن يكون كون القديم تعالى صادقا لنفسه لا يمنع من أن يكون هذه كذبا.

فان قالوا: ليست بكلام أصلا.

قيل لهم: فقد زال الشغل عنها بها، لم زعمتم أن اللَّه صادق أو قد صدق في شي‏ء من كلامه. و هذا مما لا حيلة لهم فيه تعالى.

ثم يقال لهم: كيف تعلمون أن الخبر عن السماء و الأرض و عما زعمتم أنه صدق لا شك فيه من اخبار القرآن خبرا عما تناوله اللفظ حتى قضيتم أنه صدق، و الصدق لا يكون صدقا حتى يكون خبرا حتى يعرف قصد المخبر به الى المخبر عنه، و الألغاز و التعمية قد تعور[[155]](#footnote-155) في الكلام، و هما باب من التلبيس و الإضلال.

فلم لا يجوز أن تكون ألفاظ القرآن كلها خارجة عن تلك الوجوه، فلا يكون فيها شي‏ء قصد به الخبر عما تتأوله اللفظ. و هذا أيضا لا حيلة لهم فيه.

ثم يقال لهم: خبرونا عن الرسول نفسه كيف يعلم أن القرآن كلام اللَّه أو حكاية لكلامه، و ليس يأبى‏[[156]](#footnote-156) أن يكون الملك قد ادعى إرساله به، إذ لا يأبى أن يكون قادرا على أمثاله. و ليس يمكنه حجة من عقل، فمنع بها من اجازة التلبيس على اللَّه تعالى و التمكين من ذلك.

و عصمة الملائكة إنما يعلم سمعا، و تجويز خلقهم على ما ورد السمع يعلم عقلا فكيف يعلم أنه رسول اللَّه؟

ص: 298

بل كيف لا يجوز أن يكون اللَّه هو الذي أمر بالتكذيب عليه، و مما ذا تعلمون أن مطيع اللَّه مؤد لرسالته دون أن يكون متمردا عليه، و قد قلتم ان التلبيس يجوز على اللَّه. و هذا أيضا مما لا حيلة لهم فيه.

فان قالوا: الرسول يعلم صحة ما أخبر به الملك اضطرارا، و كذلك نحن نعلم أن الرسول إلينا صادق اضطرارا.

قيل لهم: أ فيصح أن يعلم ذلك استدلالا.

فان قالوا: نعم. طولبوا بالحجة و ليس الى ذلك طريق. فان قالوا: لا.

قيل لهم: قد صرتم الى ما كنتم تمتنعون منه من أنه لا يوصف القديم بالقدرة على أن يدل على صدق الصادق.

و الفرق بين النبي و المتنبي من أصح الوجوه، و إذا صح‏[[157]](#footnote-157) هذا فما أنكرتم أن يكون المنتظر في هذا هو وقوع العلم الضروري بصدق الرسول، فأما العلم بوجوده و عدمه فيستبان.

فان قالوا: هو كذلك.

قيل لهم: فظهوره الان على الكاذبين أجور ما يكون إذا كان لا معتبر به و ان يوجب اللَّه علينا تصديق من لا علم له.

فان مروا على ذلك قيل لهم: فليس لهم للرسل بمعجزة حجة، و انما يدعى على ضمائر الناس أنهم يعلمون صدقه و يقولون: انا لا نعلم سياق ذلك، و لا يمتنع أن يكون من المتنبي الذي يعارضه معجز يحتج به، و هو خال من ذلك لا يدلي بحجة.

ص: 299

و هذا خروج من جميع الأديان و الملل، و لا مذهب لكم عنه الا بترك مذهبكم.

و ليس لذكر الإجماع في هذا مدخل، و لا يتعلق به من يفهم شيئا، لأن الإجماع إنما يعلم سمعا لقول الرسول، لو لا ذلك لم يكن إجماع المسلمين أولى بالصحة مما اجمع عليه غيرهم من طريق الرأي و دخول الشبهة.

ص: 301

(58) (مسألة في نكاح المتعة)

ص: 303

بسم اللَّه الرّحمن الرّحيم‏ مسألة خرجت في محرم سنة سبع و عشرين و أربعمائة، قال الشريف المرتضى رحمه اللَّه:

[دحض أدلة القائلين بفساد المتعة]

استدل بعضهم على [فساد] نكاح المتعة بأنه نكاح لا يصح دخول الطلاق فيه، فوجب الحكم بفساده قياسا على كل الأنكحة الفاسدة.

فيقال للمستدل بذلك: هذه طريقة قياسية، و قد دللنا في مواضع من كتبنا على أن القياس في أحكام الشريعة غير صحيح. و إذا سلم استظهارا صحة القياس جاز أن يقال لمن تعلق في ذلك: دل على صحة هذه العلة و ان الحكم في الأصل متعلق بها.

فإذا قال: ما اعتاد الفقهاء المطالبة بذلك، و انما تقع الدلالة على صحة علة الأصل عند المعارضة.

قلنا: ما امتنع محصل من أصحاب القياس من المطالبة بصحة العلة في الأصل،

ص: 304

و انما لجئوا الى المناقضة إذا أمكنت و المعارضة، لأن بالمعارضة يخرج الكلام في صحة العلة و بأي شي‏ء تعلق حكم الأصل، و الا فلو طولب المحتج بالطريقة القياسية- بأن يدل على صحة علته- لما قدر على دفع ذلك.

فان استدل على صحتها بالاطراد و الانعكاس. فليس ذلك بحجة في صحتها، و قد نص محصلو أصحاب القياس على أن الطرد و العكس لا يدل على صحة العلة و انما يدل على صحتها بيان تأثيرها في الحكم الذي علقت. و هيهات أن يبين صاحب هذه الطريقة تأثير إمكان الطلاق في صحة العقد.

[جواز انفصال بعض الاحكام عن بعض‏] ثم يقال له: إمكان الطلاق حكم من أحكام النكاح، كما أن التوارث من الزوجين حكم من أحكامه. و ليس يجب إذا تعذر في بعض الأنكحة بعض أحكام النكاح أن يحكم بفساد العقد. أ لا ترى أن نكاح الذمية عندكم صحيح و التوارث لا يثبت فيه، و هو حكم من أحكام النكاح، و ليس يجب أن يقضى بفساد هذا العقد من حيث تعذر فيه هذا الحكم المخصوص.

فلو استدل مستدل على أن نكاح الذمية فاسد، بأنه لا توارث فيه، و قاسه على الأنكحة الفاسدة. أ لستم انما كنتم تفزعون الى مثل ما ذكرناه، من أنه غير ممتنع أن يعرض في بعض الأنكحة ما يمنع من حكم ثابت و في غيره.

فإذا قلتم: المعنى الذي عرض في نكاح الذمية يمنع من التوارث معقول، و هو اختلاف الملة.

قلنا: أ ليس هذا المانع من التوارث- و هو من أحكام النكاح كالطلاق- لا يمنع من صحة هذا النكاح.

ص: 305

و بعد، فالمانع من دخول الطلاق في نكاح المتعة أيضا مفهوم، و هو أنه نكاح مؤجل إلى وقت بعينه. فلم يحتج الى طلاق، لأن انقضاء المدة في ارتفاع هذا النكاح يجري مجرى الطلاق. فالطلاق انما دخل في النكاح المؤبد لأنه مستمر على الأوقات، فيحتاج الى ما يقطع استمراره و يوجب الفرقة، و ليس كذلك المتعة.

فإن قالوا: لا نسلم أن التوارث حكم الأنكحة على الإطلاق، بل هو نكاح منتفى الملة.

قلنا: و لا نسلم نحن أن إمكان الطلاق من حكم كل نكاح، بل هو من أحكام النكاح المؤبد.

[العلل غير مطردة لكي يقاس عليها] ثم يقال له: ما أنكرت أن يكون المتعة من الأنكحة الفاسدة: ان الطلاق لا يدخلها و لا ما يقوم مقامه في الفرقة، و ليس كذلك نكاح المتعة لأنه لا يدخله الطلاق، فان فيه ما يقوم مقامه في وقوع الفرقة و هو انقضاء المدة.

و بعد، فان موضع هذا القياس فاسد، لأنه يقتضي فساد نوع من أنواع النكاح من حيث فيه شروط باقي أنواعه، و قد علمنا أن البيع بيع موجود حاضر و بيع على جهة السلم، و ليس نجد شروط السلم في بيع الموجود و لا شروط الموجود في السلم، و لم يوجب ذلك فساد البيوع المختلفة. فكذلك الأنكحة المختلفة غير ممتنع اختلاف شروطها و ان عم الجميع الصحة.

على أن هذه العلة لو كانت صحيحة لما اجتمعت‏[[158]](#footnote-158) مع إباحة نكاح المتعة، و قد علمنا بلا خلاف أن نكاح المتعة كان في صدر الإسلام مباحا، و انما ادعى قوم‏

ص: 306

أنه حظر بعد ذلك و نسخت إباحته، فكيف تجتمع علة الحظر مع الإباحة.

و إذا كانت علة حظر هذا النكاح أن الطلاق لا يدخل فيه و كونه مما لا يدخله الطلاق قد كان حاصلا مع الإباحة المتقدمة بلا خلاف، و ذلك دليل واضح على فساد هذه العلة.

و ما يفسد به هذا القياس كثير و في هذا القدر كفاية.

ص: 307

(59) (نقد النيسابوري في تقسيمه للاعراض)

ص: 309

بسم اللَّه الرّحمن الرّحيم‏ مسألة:

قال رضي اللَّه عنه:

تصفحت الأوراق التي عملها أبو رشيد سعيد بن محمد[[159]](#footnote-159) في ذكر أنواع الأعراض و أقسامها و فنون أحكامها، فوجدتها قد أخل بأيام‏[[160]](#footnote-160) كان يحب أن يذكرها كما ذكر ما يجري مجراها، و أخل أيضا في تقسيماته بأقسام و تمثيلاته بأشياء لا بد من ذكرها.

و اني أشير الى ذلك حتى تتكامل بما استدركته و لما تقدمه جميعا ما [لا بد منه‏][[161]](#footnote-161) في هذا الباب بمشيئة اللَّه تعالى و عونه و حسن معونته.

ص: 310

[أقسام الاعراض‏]

الأعراض على ضربين: [ما][[162]](#footnote-162) يوجب أن يختص به حالا، و الأخر لا يوجب حالا و ما يوجب حالا على ضربين: ضرب يوجب حال الحي، و الضرب الأخر يوجب الحال لمحله.

فأما الذي يوجب حالا لحي فأنواع: الاعتقادات، و الإرادات، و الكراهات، و الظنون، و القدرة، و الحياة، و الشهوة و أضدادها، و النظر.

و أما ما يوجب حالا لمحله فهو أنواع الأكوان. و أما ما لا يوجب لحي و لا لمحل فما عدا ما ذكرناه.

و ينقسم ما لا يوجب حالا لمحل و لا حمله الى ضربين: فضرب يوجب لمحله حكما، و ضرب لا يوجب ذلك، و الأول هو التأليف إذا كان التزاما و الاعتقادات، و الثاني- و هو ما لا يوجب حالا و لا حكما- هو: المدركات من الألوان، و الطعوم، و الأرياح، و الحرارة، و البرودة، و الأصوات، و الآلام.

و الأعراض على ضربين: ضرب يصح أن يتعلق بكل حي من قديم و محدث و يوجب له حالا، و الضرب الأخر لا يصح أن يتعلق الا بالمحدث خاصة. و ليس فيها ما يختص بالقديم تعالى، و لا يصح تعلق جنسه و لا نوعه بالمحدث.

فأما ما يتعلق بكل حي من قديم أو محدث فالارادات و الكراهات و ما عداها من التعلقات، لا يصح إذا يوجب حالا الا للمحدث دون القديم.

و الأعراض على ضربين: ضرب لا يصح خلو الجواهر من نوعه، و ضرب يصح خلوها و تعريها من أجناسه و أنواعه.

ص: 311

فالأول هو نوع الأكوان، لأن الجواهر لا يصح مع وجودها أن تعرى من نوع الكون، لأن الجوهر مع تحيزه لا بد من اختصاصه بالجهة و لا يكون فيها ألا يكون.

و الضرب الثاني هو ما عدا نوع الأكوان، لأنه يصح أن تعرى الجواهر من كل ما عدا الأكوان من المعاني.

الإعراض على ضربين: ضرب يدل على حدوث الأجسام و الجواهر، و الضرب الأخر لا يدل على ذلك. فالضرب الأول هو الأكوان لأنها المختصة، فان الجواهر لا تخلو من نوعها. و الثاني ما عدا الأكوان، لأنه إذا جاز خلو الجواهر منها فلم تدل على حدوثها و ان كانت هذه المعاني محدثة لتقدم الجوهر لها خالية منها.

و الأعراض على ضروب ثلاثة: ضرب لا يكون الا حسنا أو لا قبح فيه، و الضرب الأول العلوم و النظر عند أبي هاشم، فإنه يذهب الى أن العلم و النظر لا يكونان الا حسنين، و عند أبي علي أنه قد يجوز أن يكونا قبيحين، بأن يكونا مفسدة.

و الضرب الثاني: الجهل، و الظلم، و الكذب، و ارادة القبيح، و كراهة الحسن، و الأمر بالقبيح و النهي عن الحسن، و تكليف ما لا يطاق. و هذا الضرب كثير و انما ذكرنا الأصول.

و هذا الضرب على ضربين: أحدهما لا يمكن على حال من الأحوال ألا يكون قبيحا، و الثاني يمكن على بعض الوجوه ألا يكون قبيحا.

فمثال الأول الجهل المتعلق باللّه تعالى، كاعتقاد أنه جسم أو محدث. و من مسلة[[163]](#footnote-163) ما يعلق بالجهل بما لا يجوز تغير حاله و خروجه على صفته، كاعتقاد أن‏

ص: 312

السواد متحيز و ان الجوهر له ضد غيره من الأجناس.

و يجوز أن يلحق بهذا الضرب ارادة الجهل الذي ذكرناه أولا و الأمر به، لأنه كما لا يجوز تغير المراد عن قبحه لا يجوز قبح الإرادة المتعلقة به.

و مثال الضرب الثاني- و هو ما لا يمكن على بعض الوجوه ألا يكون قبيحا- الجهل المتعلق بما يجوز تغير حاله و الظلم و الكذب و باقي القبائح التي عددناها.

و انما قلنا ان الجهل المتعلق بما يجوز أن لا يكون قبيحا و لا جهلا، لأنه إذا اعتقد أن زيدا في الدار في حالة مخصوصة و لم يكن فيها في تلك الحال فاعتقاده جهل، الا أنه كان يمكن ألا يكون جهلا، بأن يكون زيد في الدار في تلك الحال.

و الضرر الذي هو ظلم كان يمكن أن يكون عدلا، بأن يقع على خلاف ذلك الوجه، و قد يكون أيضا من جنسه ما ليس بظلم. و كذلك الكذب فيه الوجهان اللذان ذكرناهما معا.

و أما الضرب الثالث فهو باقي الإعراض، لأن الحسن و القبح يمكن أن يدخل في الجميع على البدل.

و ما يقبح من أعراض على ضربين: أحدهما يختص بوجه قبح لا يكون لغيره و ان جاز أن يقبح للوجه الذي يعمه و يعم غيره. و الضرب الأخر إنما يقبح لوجه مشاركة فيه كل القبائح.

فمثال الأول الألم إذا كان كذبا و ارادة القبيح و كراهة الحسن، لأن الظلم وجه قبيح يختص به و لا يشاركه في هذا الوجه سواه. و كذلك الكذب و ارادة القبيح و كراهة الحسن.

و انما قلنا انه يجوز مع هذا الاختصاص أن يشارك باقي القبائح في وجه القبيح لأنه يجوز أن يعرض الظلم أو الكذب أو إرادة القبيح أو كراهة الحسن أن يكون‏

ص: 313

مفسدة أو عبثا، فيقبح لذلك.

فأما مثال الضرب الثاني مما يقبح لوجه مشترك فهو سائر الأعراض، لأنه لا شي‏ء منها الا و قد يجوز أن تعرض فيه المفسدة أو يكون عبثا، فيقبح لذلك.

و اعلم انه لا يمكن أن تجتمع وجوه القبح كلها في عرض واحد حتى يكون عبثا ظلما كذبا ارادة بقبيح كراهة لحسن مفسدة عبثا لنا في هذه الوجه، و أكثر ما يجتمع فيه من وجوه القبح أن يكون العرض مثلا ظلما كذبا و يتفق أن يكون مفسدة و عبثا. و كذلك القول في الكذب و ارادة القبيح و كراهة الحسن إذا اتفق في كل كل واحد منها المفسدة و العيب، فاعلم ذلك.

[إخلال النيسابوري في تقسيم الاعراض‏] فأما الذي أخل بذكره في خلال تقسيمه، فإنه لما قسم الأعراض في تماثل و اختلاف و تضاد ذكر في قسمة التماثل الذي لا اختلاف فيه و لا تضاد التأليف و الحياة و القيمة[[164]](#footnote-164) و الألم، و أخل بذكر الحرارة و البرودة و الرطوب و اليبوسة. و هذه أجناس تجري مجرى ما ذكره في أنها متماثلة لا مختلف فيها و لا متضاد.

و لما ذكر قسم ما هو متماثل و متضاد و لا يدخله المختلف الذي ليس بمتضاد ذكر الألوان و الطعوم و الأرياح و أخل بذكر الأصوات، و هي عند أبي هاشم متماثلة و متضادة بغير مختلف ليس بمتضاد.

فان اعتذر باعتذار هو أن الأصوات غير متضادة، فقد كان يجب أن يذكرها في باب المتماثل و المختلف مع الاعتمادات و الإرادات و الكراهات و الشهوة و البقاء و النظر، و لا هاهنا ذكرها و لا هناك. فان [كان‏][[165]](#footnote-165) متوقفا في القطع بتضاد

ص: 314

[[166]](#footnote-166)

المختلف منها فقد كان يجب أن يذكر توقفه، و أنها مع التوقف اما أن تكون داخلة في المختلف الذي ليس بمتضاد مع الاعتمادات و الإرادات و مع الذي هي مختلفة كالألوان و الأكوان، و هذا إخلال.

و لما ذكر أقسام الأعراض المتعلقات و كيفيات تعلقه ذا أخل بقسمة من ضروب تعلقها كان ينبغي أن يذكرها، و هي: ان المتعلقات على ضربين: ضرب متعلق بغير واحد تفصيلا من غير تجاوز له كالاعتقادات و الظن و الإرادة و الكراهة و النظر، و الضرب الآخر يتعلق بما لا يتناهى كالشهوة و النفار و القدرة فيما يتعلق به من الأجناس أو الجنس الواحد في المحال و الأوقات، لأنها انما يتعلق بالواحد من غير تعدله‏[[167]](#footnote-167) إذا كان الجنس و المحل و الوقت واحدا.

و أخل بقسمة أخرى في المتعلقات، لأنها على ضربين: أحدهما متعلق بمتعلقه على الجملة و التفصيل، و هو الاعتقادات أو الإرادات أو الكراهات. و الضرب الثاني لا يتعلق الا على طريق سبيل التفصيل، و هو القدر و الشهوات و النفار.

و لما ذكر كيفية تولد الأسباب المولدة و على النظر و الاعتماد و الكون أخل بقسمة في هذه المولدات كان يجب ذكرها، و هي أن يقال: ان الأسباب المولودة على ضربين: ضرب تولد في الثاني، و الضرب الأخر تولد في حاله. فمثال الأول النظر و الاعتماد، و مثال الثاني الأكوان.

و لما ذكر قسمة ما يدرك من الأعراض و أن فيها ما يكفي في إدراكه محل الحياة و فيها ما يحتاج إلى بنية زائدة، أخل لما ذكر أقسام ما لا يكفي في إدراكه محل الحياة بالاراييح، فإنه ذكر الألوان و الطعوم و ترك ذكر الأراييح.

و أخل أيضا بقسمة في كيفية إدراك هذه المدركات واجب ذكرها هي: ان هذه‏

ص: 315

الأعراض المدركات على ضروب: منها ما يدرك بمحله، و منها ما يدرك في محله و منها ما يدرك محله من غير إدراك محله و لا انتقاله إلى حاسة الإدراك. فالأول هو الألم، و الثاني هو اللون و الحرارة و البرودة و الأصوات و الطعوم و الأراييح، و الثالث هو الألوان.

ص: 317

(60) (مسائل شتى)

ص: 319

بسم اللَّه الرّحمن الرّحيم‏ (1)

[صيغة البيع‏]

مسألة خرجت في محرم سنة سبع و عشرين و أربعمائة، قال الشريف المرتضى رحمه اللَّه:

عد الشافعي أن رجلا إذا قال لغيره «بعني كذا» فقال «بعتك» كان ذلك إيجابا و قبولا و انعقد البيع، و قال في النكاح بمثل ذلك. و يحتاج عنده في البيع إذا كان «بعتك» أن يقول «اشتريت» حتى يكون قبولا صحيحا.

و الذي يقوى في نفسي أن النكاح كالبيع في افتقاره الى صريح القبول، فإذا قال له «زوجني» فقال له الولي «زوجتك» لا بد من أن يقول «قد قبلت هذا العقد». و كذلك إذا قال له في البيع «بعني» فقال «قد بعتك» لا بد من أن يقول المبتاع «قد اشتريت» حتى يكون قبولا.

و الدليل على صحة ما ذهبنا اليه أن قوله «زوجني» أو «بعني» أمر و سؤال على حسب الحال في رتبة القائل و المقول له، فإذا قال له «بعتك» أو «زوجتك»

ص: 320

لا بد له من قبول صريح، و ليس في قوله «بعني» أو «زوجني» ما ينبئ عن القبول، لأن الأمر لا يفهم منه ذلك. أ لا ترى أنه لو قال له «أ تبيعني» أو قال «أ تزوجني» قال الأخر «بعتك» فإن أحدا لا يقول ان ذلك يغني عن القبول، فكذلك إذا قال «بعني» أو «زوجني».

فإن قيل: انما لم يغن «أ تبيعني» عن القبول لأنه استفهام لا يدل على إرادة الأمر للمأمور به، فقام مقام القبول دون الاستفهام.

قلنا: الأمر و ان دل على الإرادة و لم يدل الاستفهام عليها فليس بقبول صريح.

أ لا ترى أنه لو قال مصرحا «أنا مريد للنكاح أو البيع» لم يكن ذلك قبولا، فإذا كان التصريح بكونه مريدا لا يغني عن لفظ القبول فأجدر أن لا يغني عن لفظ القبول الأمر الذي يدل على الإرادة.

و انما ضاق الكلام على أبي حنيفة في هذه المسألة مع الشافعي، لأن الشافعي يحمل البيع على النكاح و لم يختلفا في النكاح. و نحن نسوي بين الأمرين في أنه لا بد من قبول صريح فيهما، فليس يتوجه كلام الشافعي علينا.

فان قال الناصر لأبي حنيفة: ان العادة بالسوم في البيع جارية، فإذا قال له «بعني» فإنما هو مستام، فإذا قال «بعتك» يحتاج الى قبول مجدد. و ليس كذلك النكاح، لأن العادة لم تجر فيه بالمساومة بقوله «زوجنيها» عن أن يقول «تزوجت».

قلنا: الخطبة في النكاح كالسوم في البيع، و قد جرت العادة بأن يخطب الرجل و يعرض نفسه في عقد النكاح على غيره كما جرى في البيع بالمساومة، فلا يجب أن يجعل قوله «بعني» و لا «زوجني» مفهوما منه القبول في الموضعين و لا بد من قبول صريح.

و الذي يكشف عن صحة ما ذكرناه أنه لو قال له «ابتع مني هذا الثوب»

ص: 321

فقال «قد ابتعته» لا يكون قوله «ابتع مني» إيجابا حتى يقول «قد بعتك»، فكذلك لا يكون قوله «بعني» قبولا حتى يقول «اشتريت»، و كذلك القول في النكاح.

و العلة الجامعة بين الأمرين أن الإيجاب غير مفهوم من لفظ الأمر، و كذلك القبول لا يفهم من لفظ الأمر فلذا اعتبروا الإرادة و ان قوله «بعني» يدل على الإرادة و مع هذا فلم يغن ذلك عن لفظ الإيجاب الصريح.

(2)

[ألفاظ الطلاق‏]

مسألة خرجت في شهر ربيع الأخر سنة سبع و عشرين و أربعمائة، قال رضي اللَّه عنه:

أن اعتمد بعض أصحابنا في أن الطلاق الثلاث بلفظ واحد، غير أن من قال «أنت طالق ثلاثا» [كان‏][[168]](#footnote-168) مبدعا مخالفا لسنة الطلاق، فيجب أن لا يقع طلاقه كما لا يقع طلاق البدعة إذا كان في حيض أو طهر فيه جماع و ما جرى مجرى ذلك.

الجواب:

ان تلفظه بالطلاق و قوله «أنت طالق» و الشروط متكاملة ليس بدعة، و انما أبدع إذا أتبع ذلك بقوله «ثلاثا»، و قوله «ثلاثا» ملغى لا حكم له، و الطلاق واقع بقوله «أنت طالق» مع تكامل الشروط، كما لو قال «أنت طالق» و شتمها و لعنها لكان مبدعا بذلك و طلاقه واقع لا محالة.

و ليس كذلك الطلاق في الحيض، لأنه منتهى عن التلفظ بالطلاق في وقت‏

ص: 322

الحيض، و النهي بظاهره يقتضي الفساد في الشريعة و لا تتعلق به أحكام الصحة.

و مما يوضح ذلك: أنه لو قال لها «أنت طالق» ثم اتبع ذلك في المجلس أو بعده بقوله «و أنت طالق» لكان عندنا مبدعا و طلاقه واقعا لا محالة، بإدخاله الطلاق على الطلاق من غير مراجعة بينهما.

و مع هذا فلا يقدر أحد من أصحابنا على أن يقول: ان تطليقة واحدة ما وقعت بقوله الأول «أنت طالق» و ان اتبع ذلك لما هو مبدع فيه من التلفظ ثانيا بالطلاق فكذلك لا يمنع قوله «ثلاثا» الذي هو مبدع من التلفظ به من أن يكون قوله «أنت طالق» الذي لم يكن مبدعا واقعا.

(3)

[استمرار الصوم مع قصد المنافي له‏]

مسألة، قال رضي اللَّه عنه:

كنت أمليت قديما مسألة أنظر منهما[[169]](#footnote-169) أن من عزم في نهار[[170]](#footnote-170) شهر رمضان على أكل و شرب أو جماع يفسد بهذا العزم صومه، و نظرت ذلك بغاية الممكن و قويته، ثم رجعت عنه في كتاب الصوم من المصباح و أفتيت فيه بأن العازم على شي‏ء مما ذكرناه في نهار شهر رمضان بعد تقدم نيته و انعقاد صومه لا يفطر به، و هو الظاهر الذي تقتضيه الأصول، و هو مذهب جميع الفقهاء.

و الذي يدل عليه: أن الصوم بعد انعقاده بحصول النية في ابتدائه، و انما يفسد بما ينافي الصوم من أكل أو شرب أو جماع، و لا منافاة بين الصوم و بين عزيمة

ص: 323

الأكل و الشرب.

فإذا قيل: عزيمة الأكل و ان لم تناف‏[[171]](#footnote-171) الصوم فمتى تنافي نية الصوم التي لا بد للصوم منها و لا يكون صوما الا بها، لأن نية الصوم إذا كانت عند الفقهاء كلهم هي العزيمة على الكف عن هذه المفطرات و على ما حددتموه في المصباح هي العزيمة على توطين النفس على الكف إذا صادفت هذه العزيمة نية الصوم التي لا بد للصوم منها أفسدت الصوم.

قلنا: عزيمة الأكل لا شبهة في أنها تنافي عزيمة الكف عنها، لكنها لا تنافي حكم عزيمة الصوم و نيته و حكم النية نفسها، لأن النية إذا وقعت في ابتداء الصوم استمر حكمها في باقي اليوم و ان لم تكن مقارنة لجميع أجزائه و أثرت فيه بطوله.

و عندنا ان هذه النية- زيادة على تلك- مؤثرة في كون جميع أيام الشهر صوما و ان لم تكن مقارنة للجميع.

و قد قلنا كلنا ان استمرار حكم النية في جميع زمان الصوم ثابت و ان لم تكن مقارنة لجميع أجزائه، و لهذا جوزنا و جوز جميع الفقهاء أن يعزب عن النية و لا يجددها و يكون صائما مع النوم و الإغماء. و نحن نعلم أن منافاة عزيمة الأكل لعزيمة الكف و كذلك منافاة النوم و الإغماء لها.

أ لا ترى أنه لا يجوز أن تكون النية عارية عنه في ابتداء الصوم و يكون مع ذلك صائما، و كذلك لا يجوز أن يكون في ابتداء الدخول في الصوم نائما أو مغمى عليه، و لم يجب أن ينقطع استمرار حكم النية بتجدد عزوب النية و لا يتجدد نوم أو إغماء مع منافاة ذلك لنية الصوم لو تقدم و قاربها. كذلك لا يجب إذا تقدم منه‏

ص: 324

الصوم بالنية الواقعة في ابتدائه ثم عزم في خلال النهار على أكل أو غيره من المفطرات لا يجب أن يكون مفسدا لصومه، لأن حكم الصوم مستمر.

و هذه العزيمة لا تضاد بينها و بين استمرار حكم الصوم و ان كانت لو وقعت في الابتداء لخرجت عن الانعقاد. و انما كان في هذا المذهب شبهة على الصائم تجديد النية في جميع أيام الصوم و أجزاء الصوم، و إذا كانت لا خلاف بين الفقهاء و أن تجديد هذه النية غير واجب لم يبق شهرة في أن العزيمة عن الأكل في خلال النهار مع انعقاد الصوم لا يؤثر في فساد الصوم، إذ لا منافاة بين هذه العزيمة و بين الصوم و استمرار حكمه، و انما يفسد الصوم بعد ثبوته و استمرار حكمه لما نافاه من أكل أو شرب أو جماع أو غير ذلك مما اختلف الناس فيه.

و على هذا الذي قررناه لا يكون من أحرم إحراما صحيحا بنية و حصلت في ابتداء إحرامه عزم في خلال إحرامه على ما ينافي الإحرام من جماع أو غيره مفسدا لإحرامه، بل حكم إحرامه مستمر لا يفسده الا فعل ما نافى الإحرام دون العزم على ذلك. و هذا لا خلاف فيه.

و كذلك من أحرم بالصلاة ثم عزم على شي‏ء أو التفات أو على شي‏ء من نواقض الصلاة لم يفسدها للعلة التي ذكرناها.

و كيف يكون العزم مفسدا كما يفسده الفعل المعزوم عليه الشرعي، و قد علمنا أنه ليس في الشريعة عزم له مثل حكم المعزوم عليه الشرعي البتة.

أ لا ترى [أن‏][[172]](#footnote-172) من عزم على الصلاة لا يجوز أن يكون له حكم‏[[173]](#footnote-173) مثل حكم فعل الصلاة الشرعي، و كذلك من عزم على الوضوء.

ص: 325

و انما اشترطنا الحكم الشرعي، لأن العزم في الثواب و استحقاق المدح حكم المعزوم عليه، و كذلك العزم على القبيح مستحق عليه الذم كما يستحق على الفعل القبيح، و ان وقع اختلاف في تساويه أو قصور العزم في ذلك عن المعزوم عليه.

و مما يدل على صحة ما اخترناه أنه لو كان عزيمة الأكل و ما أشبهه من المفطرات يفسد الصوم لوجب أن يذكرها أصحابنا في جملة ما عددوه من المفطرات المفسدات للصوم التي رووها عن أئمتهم عليهم السلام و أجمعوا عليها بتوقيفهم حتى ميزوا ما يفطر و يوجب الكفارة و بين ما يوجب القضاء من غير كفارة، و لم يذكر أحد منهم على اختلاف تصانيفهم و رواياتهم أن العزم على بعض هذه المفطرات يفسد الصوم، و لا أوجبوا فيه قضاء و لا كفارة، لو كان العزم على الجماع جاريا مجرى الجماع لوجب أن يذكروه في جملة المفطرات و يوجبوا فيه إذا كان متعمدا القضاء و الكفارة كما أوجبوا متناوله من ذلك.

فان قيل: فما قولكم في من نوى عند ابتداء طهارته بالماء ازالة الحدث ثم أراد أن يطهر رأسه أو رجليه غير هذه النية فنوى بما يفعل النظافة و ما يجري مجراها مما يخالف ازالة الحدث.

قلنا: إذا كانت نية الطهارة لا يجب إذا وقعت النية في ابتدائها أن تجدد حتى يقارن جميع أجزائها، بل كان وقوعها في الابتداء يقتضي كون الغسل و المسح طهارة، فالواجب أن نقول: متى غير النية لم يؤثر هذا التغيير في استمرار حكم النية الأولى. كما أنه لو عزم أن يحدث حدثا ينقض الوضوء و لم يفعله لا يجب أن يكون ناقضا لحكم الطهارة و لم يجر العزم على الحدث في الطهارة مجرى المعزوم نفسه.

و هذا الذي شبه مسألة الصوم و انا فرضنا من عزم على الفطر في خلال النهار و قلنا انه بهذا العزم لا يفسد صومه.

ص: 326

و أيضا فإنه يمكن أن يفصل بين الوضوء و بين الصوم: بأن الصوم لا يتبعض و لا يكون بعض النهار صوما و بعضه غير صوم و ما أفسد شيئا منه أفسد جميعه.

و كذلك القول في الإحرام بالحج و الدخول في الصلاة و الوضوء يمكن فيه التبعيض و أن يكون بعضه صحيحا و بعضه فاسدا.

فلو قلنا انه إذا نوى ازالة الحدث و غسل وجهه ثم بدا له فنوى النظافة بما يفعله من غسل يديه أو غسل بدنه تكون هذه النية للنظافة لا لإزالة الحدث و لا تعمل فيه النية الأولى لجاز، و لكنا نقول له أعد غسل يديك ناويا للطهارة و ازالة الحدث و لا نأمره بإعادة تطهير وجهه بل البناء عليه. و هذا لا يمكن مثله في الصوم و لا في الإحرام و لا في الصلاة.

فإن قيل: و أكثر ما يقتضيه ما بينتموه أن يكون الصوم جائزا بقاء حكمه مع نية الفطر في خلال النهار، فمن أين لكم القطع على أن هذه النية غير مفسدة على كل حال؟

قلنا: كلامنا الذي بيناه و أوضحناه يقتضي وجوب بقاء حكم الصوم طول النهار و ان‏[[174]](#footnote-174) وقعت في ابتدائه، و نية الأكل غير منافية لحكم الصوم و انما هي منافية لابتداء نية الصوم كما قلنا في عزوب النية و الجنون و الإغماء، و إذا كان حكم نية الصوم مستمرا و العزم على الأكل لا ينافي هذا الحكم على ما ذكرناه قطعنا على أنه غير مفطر، لأن القطع على المفطر انما يكون بما هو مناف للصوم من أكل أو شرب أو جماع، و العزيمة خارجة عن ذلك.

و أنت إذا تأملت في كلامنا هذا عرفت فيه حل كل شبهة تضمنتها تلك المسألة التي كنا أمليناها و نصرنا فيها أن العزم مفطر، فلا معنى لأفرادها بالنقض.

و قد مضى في تلك المسألة الفرق بين تلك الصلاة و بين الإحرام و الصوم،

ص: 327

و لا فرق بين الجميع، فمن قال ان العزم على ما يفسد الصوم يبطل الصوم يلزمه مثل ذلك في الصلاة، و من قال انه لا يبطله يلزمه أن يقول مثل ذلك في الصلاة و الإحرام.

و مضى في تلك المسألة أن من فرق بنية دخوله في الصلاة العزم على المشي أو الكلام فيها تنعقد صلاته. و هذا غير صحيح، لأنه يعني الصلاة في الشريعة تتضمن أفعالا و تروكا، و الأفعال كالركوع و السجود و القراءة و التروك كالكف عن الكلام و الالتفات و المشي و ما أشبه ذلك، فكيف يجوز أن يكون عازما في ابتداء الصلاة على أن يتكلم أو يمشي و تنعقد صلاته، و من جملة معاني الصلاة أن لا يتكلم.

و لو جاز هذا جاز أن تنعقد صلاته مع عزمه في افتتاحها العزيمة على حدث من بول أو غيره، لأن الحدث و ان أبطل الصلاة فالعزيمة عليه لا تبطلها، لأنه لا منافاة بينه و بينها، و بين عزمه على المشي منافاة لنية الصلاة من الوجه الذي ذكرناه.

(4)

[اضافة الأولاد إلى الجد إضافة حقيقية]

مسألة:

ما تقول في رجل من ولد أبي طالب تزوج امرأة حسنية فرزقا مولودا فخرجت قسمة رسم مخرجها ان تفض على ولد فاطمة عليها السلام هل يستحق به هذا المولود من الحسنية أو الحسينية سهما لولادته من مولاتنا فاطمة صلوات اللَّه عليها بما تقدم من قيام الدلالة من كتاب اللَّه تعالى أن ولد البنت ولد الجد على الحقيقة، تفتينا في ذلك مأجورا.

ص: 328

الجواب:

ولد البنت يضافون الى جدهم إلى أمهم إضافة حقيقية، فمن وصى بمال لولد فاطمة عليها السلام كان عاما في أولاد بنيها و أولاد بنتها، و الاسم يتناول الجميع تناولا حقيقيا.

(5)

[تحديد نسبة الأولاد إلى الإباء]

مسألة:

ما تقول في من وقف على ولده و ولد ولده ذكورهم و إناثهم بالسوية بينهم أبدا ما تناسلوا، فتزوجت احدى بناته برجل من غير الواقف فرزق ولدا، فهل يستحق من الوقف ما يستحق أولاد الرجل لصلبه بالدلالة القائمة من كتاب اللَّه تعالى أن ولد البنت ولد الصلب حقيقة لا مجازا، أفتنا في ذلك.

الجواب:

إذا أطلق الواقف القول بأن الوقف على ولده دخل فيهم ولد الأنثى البنت كدخول ولد الذكر، لأن الاسم يتناول الجميع على سبيل الحقيقة. اللهم الا أن يستثنى اللفظ و يخصصه بما يخرج منه ولد البنت، و الا فالإطلاق يقتضي ما تقدم ذكره.

(6)

[الفرق بين نجس العين و نجس الحكم‏]

مسألة:

سئل رضي اللَّه عنه عن معنى قول القائل: هذا نجس العين و هذا نجس الحكم‏

ص: 329

يبين ذلك. و هذا وقع نجس الحكم في الماء منجس أم لا؟

فأجاب بأن قال:

الأعيان لا تكون نجسة، لأنها عبارة عن الأجسام، و هي جواهر متركبة، و هي مماثلة. فلو نجس بعضها تنجس سائرها، و كان لا فرق بين الخنزير و بين غيره من الحيوان في النجاسة، و قد علم خلاف ذلك. و التنجيس حكم شرعي، و لا يقال نجس العين الا على وجه المجاز دون الحقيقة.

و الذي يدور بين الفقهاء في قولهم «نجس العين» و «نجس الحكم» محمول على ضرب من تعارفهم، و هو أن كل ما حكم بنجاسته في حال الحياة و حال الموت و لم يتغير أجزاء هذا الوصف عليه قالوا «نجس العين» كالخنزير، و ما اختلف حاله فحكم عليه في بعض الأحوال بالطهارة و بعض الأحيان بالنجاسة قالوا «نجس الحكم».

أ لا ترى أن ما تقع عليه الذكاة كالشاة و غيرها يحكم بطهارته حيا و بنجاسته إذا مات، و الكافر يحكم بنجاسته في حال كفره و بطهارته عند إسلامه، فأجروا على ما اختلف حاله بأنه نجس الحكم و على ما لزمته صفة النجاسة في جميع الأحوال بأنه نجس العين.

و قد علمنا أن الجنب يجري عليه الوصف بأنه غير طاهر، و معلوم أن نجاسته حكمية. و أمثال هذا يتسع و المذكور منه فيه كفاية.

(7)

[تنجس البئر ثم غور مائها]

مسألة:

بئر سقطت فيها نجاسة و غار ماؤها حتى لم يبق منه فيها شي‏ء قبل التعرض‏

ص: 330

لنزحها ثم ظهر فيها الماء بعد الجفاف، ما حكم ذلك الماء الذي ظهر فيها من نجاسة أو طهارة؟

الجواب:

انني لست أعرف في هذه المسألة نصا، و الذي توجبه الأصول أن يقال: ان الماء الذي ظهر في البئر بعد الجفاف على أصل الطهارة و غير محكوم بنجاسة.

و الوجه في ذلك: أن الماء الذي حكمنا بنجاسته من أجل مخالطته لسنا نعلم أ هو الماء الذي ألان في البئر بعد جفافها و الا انه العائد[[175]](#footnote-175) إليها، لأنه جائز أن يكون ذلك الماء الظاهر في البئر انما هو من مواد لها وجهات انضب إليها، و إذا لم يقطع على نجاسة هذا الماء فهو على أصل الطهارة.

و ليس لأحد أن يقول: ظهور الماء عقيب الجفاف أمارة على أن العائد هو الماء الأول المحكوم بنجاسته. و ذلك أن ما ذكر[[176]](#footnote-176) ليس بأمارة على عود الماء النجس، لأن جواز ظهور الماء بعد جفاف البئر من مواد ينضب إليها و اتصلت بها كتجويز ظهور الماء بعود الماء الأول إليها، و لا ترجيح لإحدى الجهتين على الأخر، فلا أمارة في ظهوره على أنه هو الماء الأول، و لم يبق في أيدينا الا التجويز بنجاسة كل ما يجوز أن يكون خالطته بنجاسة.

فإن قيل: هذه بئر تعلق عليها الحكم بوجوب النزح فيجب أن ينزح على كل حال.

قلنا: يعنى وجب نزح البئر لا نزاح البئر نفسها، لأن نزحها نفسها لا يمكن و انما يتعلق النزح بما فيها، و إذا وجب نزح ماء بئر لأجل نجاسة ثم فقد ذلك الماء

ص: 331

فقد زال الحكم بوجوب النزح عن هذه البثر.

و ليس لأحد أن يقول: أن أرض البئر و جوانبها التي أصابها الماء النجس تنجس، فإذا تجدد عليها ماء جديد يحكم بنجاسته. لأن هذا يقتضي غسل البئر بعد نزح مائها، و هذا لا يقوله محصل.

[8]

[استحقاق مدح الباري على الأوصاف‏]

مسألة خرجت في صفر سنة سبع و عشرين و أربعمائة، قال رحمه اللَّه:

اعلم أنه لا يجب أن يوحش من المذهب فقد الذاهب اليه و العابر عليه، بل ينبغي أن لا يوحش عنه الا ما لا دلالة يعضده و لا حجة تعمده.

و لما فكرت فيما يمضي كثيرا في الكتب من أن القديم تعالى يستحق المدح عليه أنه تعالى لا يفعل القبيح، و رأيت أن إطلاق ذلك غير تفصيل و ترتيب غير صحيح على موجب الأصول الممهدة.

و الذي يجب أن يقال: انه تعالى من حيث أنه لم يفعل القبيح لا يستحق المدح التابع للأفعال لكنه يستحق المدح بذلك من حيث كان تعالى على صفات تقتضي إلا يختار فعل القبيح، كما يستحق تعالى المدح بكونه قديما و عالما و حيا و قادرا، و ان كان هذا المدح الذي يستحقه ليس هو كالمدح المستحق على الأفعال.

و الذي يدل على ما ذكرناه: أنه جل و عز لا يختار القبيح، اما لثبوت الصارف عنه، و هو كونه تعالى عالما بقبحه و أنه غني عنه، أو من حيث أنه لا داعي إلى فعله، على اختلاف عبارة الشيوخ عن ذلك، فجرى مجرى من لا يختار القبيح منا بالإلجاء الى أن لا يفعله في أنه لا يستحق مدحا. أ لا ترى أن أحدا لا يستحق المدح‏

ص: 332

بألا يقتل نفسه و ولده و يتلف أمواله، لأن ذلك مما لا يجوز وقوعه منه للصارف القوي عنه.

و ليس لهم أن يفرقوا بين الأمرين بالإلجاء و يقولون: ان أحدنا ملجأ الى أن [لا][[177]](#footnote-177) يقتل نفسه و يتلف ماله للمضرة التي تلحقه بذلك، و القديم تعالى غير ملجأ الى أن لا يفعل القبيح.

لأن المضار التي بها يكون الإلجاء لا تجوز عليه، و ذلك أن المعول على المعاني دون العبارات، و انما كان أحدنا ملجأ الى أن [لا] يقتل نفسه لثبوت الصارف القوي عن ذلك و انه ممن لا يجوز أن يختاره و حاله هذه.

و هذه حال القديم تعالى في كونه غير فاعل، لأن ذلك انما اعتبر استعماله في من ألجأه غيره و حمله اما على أن يفعل أو على أن لا يفعل.

و قولهم في الكتب: أن الإلجاء إذا لم يكن من باب المنع فلا يحصل الا بالمضار الحاضرة. تحكم غير مسلم، لأن الإلجاء في الموضع الذي ذكروه معلوم سقوط المدح فيه، فيحتاج الى أن يعلل بأنه لم يسقط المدح فيه عن الفاعل، و إذا فعلنا ذلك لم نجد علة إلا خلوص الصارف و أنه لا يجوز من العاقل و الحال هذه أن يفعل ما خلص الصارف عن فعله.

و هذا بعينه ثابت في الأفعال القبيحة مع اللَّه تعالى، لأنه جل اسمه لا يجوز البتة أن يختار القبيح، لأن علمه بقبحه و بأنه غني عنه صارف، فلا يجوز معه وقوع القبيح على وجه من الوجوه، فينبغي أن يسقط المدح كما يسقط في الموضع الذي ذكروه.

و ليس بنا حاجة الى المضايقة في تسمية ذلك إلجاء، فلا معنى للخلاف في العبارات.

ص: 333

و كيف يجوز أن نقول: حكم الإلجاء مقصور على المضار الحاصلة. و عندنا ان هاهنا ضربا من الإلجاء بغير المضار، و هو أن يعلم اللَّه تعالى القادر أنه متى رام الفعل منعه منه.

فإذا قالوا: ان الإلجاء إذا لم يكن بالمنع- و هو وجه الذي ذكرتموه- فلا يكون بالمضار.

قلنا: إذا كان الإلجاء فلا يكون بالمضار و قد يكون بالوجه الذي سميتموه، فألا جاز ثلاث و هو الوضع الذي أشرنا إليه، لمساواته في الحكم للوجهين اللذين ذكرتموهما، لأن الوجهين اللذين عنيتم انما كان لهما حكم الإلجاء لخلوه من الصارف و القطع على أن الفعل لا يجوز البتة وقوعه، و هنا ثابت فيما ذكرناه.

فان قالوا: قد ثبت أن أحدنا لو استغنى بحسن عن قبيح- بأن يقدر وصول صاحبه الى درهم يعلم أنه يصل اليه بكل واحد من الصدق و الكذب- فانا نعلم أنه لا يختار و حاله هذه الا الصدق، و مع هذا فإنه يستحق المدح على امتناعه من القبيح مع ثبوت الصارف عنه، و هو الاستغناء بالصدق عنه. فيعلم بذلك أن القديم تعالى يستحق المدح و إذا لم يفعل القبيح، لأن الحالين واحدة.

قلنا: و من الذي يسلم لكم أن أحدنا إذا استغنى بالصدق عن الكذب و حاله ما ذكرتم يستحقه بامتناعه من الكذب مدحا، فدل على ذلك فإنه دعوى منكم، و هيهات أن يتمكنوا من الدلالة عليه.

و لو جاز أن يستحق مدحا و حاله هذه على امتناعه من القبيح لجاز أن يستحق المدح على امتناعه من القبيح مع الإلجاء، فأي فرق بين الأمرين و الصوارف ثابتة و الدواعي مرتفعة، و القطع على أنه لا يجوز أن يفعل القبيح و حاله هذه حاصل على أن أحدنا لو استحق المدح في هذا الموضع- و ان القول أيضا الأصح‏

ص: 334

أنه لا يجوز أن يستحقه- بينه و بين القديم تعالى [..][[178]](#footnote-178) منفعة في الكذب و داع اليه على كل حال، و ان [..][[179]](#footnote-179) فيما يصل اليه بهما من النفع، و القديم تعالى لا حاجة له و لا منفعة تتعلق بكل واحد من [..] أحدهما قبيح صارف خالص من فعله و استحقاق المدح مع ذلك بعينه‏[[180]](#footnote-180).

فان قالوا: فيجب على هذا أن لا يمدح من لا يفعل القبائح حتى يعلم من حاله أنه امتنع مع الحاجة إليها و أنه ليس بمستغن عنها.

قلنا: كذلك، و من الذي يقول ان كل ممتنع من القبيح لا لقبحه بل لغير ذلك لا يستحق مدحا، فنحن لا نمدح الممتنع من القبيح الا بعد أن نعلم أنه امتنع منه لقبحه. و كذلك لا قدح إلا إذا علمنا له اليه داعيا و لا لمدحه مع خلوه من الصوارف عنه.

فان قالوا: فيجب [..] يستحق المدح من فعل الواجب.

قلنا: أما الضرب من المدح الذي يستحق على الأفعال فيجب أن لا يستحقه تعالى على فعل الواجب، لأنه لا داعي له إلى الإخلال به كما قلناه في فعل القبيح لكنه يستحق على ذلك الضرب الأخر من المدح الذي تقدمت الإشارة إليه كما يستحق هذا القبيح بأن لا يفعل القبيح.

فان قيل: فكيف قولكم في استحقاقه تعالى المدح على الإحسان و التفضل.

قلنا: يجب أن يستحق بذلك المدح المستحق بمثله على الأفعال، لأن الإحسان مما يجوز- و هو على ما هو عليه- أن يفعله و أن لا يفعله، و ليس اليه داع موجب لا بد معه من فعله و لا عن الامتناع منه صارف خالص لا بد من ارتفاعه معه، و الدواعي‏

ص: 335

و الصوارف مترددة، و الدواعي إليه كونه إحسانا و الصارف كونه غير واجب على الفاعل، فإذا اختار فعله فلا بد من استحقاق المدح.

فان قالوا: فيجب مع امتناع‏[[181]](#footnote-181) أحدنا من القبيح الذي يستغنى عنه بالحسن أن يستحق الضرب الأخر من المدح الذي قلتم ان القديم تعالى يستحقه على أنه لم يفعل القبيح.

قلنا: لا يجب ذلك، لأن القديم تعالى انما لا يختار القبيح لكونه تعالى على صفات نفسه يقتضي ذلك يستحق بها المدح و التعظيم من كونه تعالى غنيا عالما، و هذا غير ثابت في أحدنا. و انما اتفق لأمر عارض كان يجوز ألا يحصل استغناؤه عن القبيح بالحسن، من غير أن يكون له في نفسه وجه لاستحقاق ضرب من ضروب المدح.

فان قيل: هذا الذي حررتم يخالف كل شي‏ء سطره الشيوخ قديما في هذه المسألة.

قلنا: الذي ذكروه أنه تعالى يستحق المدح بألا يفعل القبيح، و قد قلنا بذلك و دللنا عليه، فما خالفنا ظاهر ما أطلقوه و ان كانوا [..][[182]](#footnote-182) الضرب الأخر من المدح الذي من شأنه أن يسقط عن خلوص الصوارف فقد زلوا في ذلك، و الزلل جائز عليهم لا سيما في هذه المواضع [..][[183]](#footnote-183).

(9)

[المنع من العمل بأخبار الآحاد]

مسألة خرجت في شهر ربيع الأول سنة سبع و عشرين، قال رضي اللَّه عنه:

ص: 336

فيما يجب الاعتماد في فساد العمل بأخبار الآحاد في الشريعة قوله تعالى‏ «وَ لا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ»[[184]](#footnote-184) و قوله تعالى‏ «وَ أَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ»[[185]](#footnote-185)، و كل آية تنهى فيها عن الفعل من غير علم، و هي كثيرة.

و لما كان بخبر الواحد في الشريعة عاملا به الظن من غير علم لصدق الراوي يوجب أن يكون داخلا تحت النهي.

فان قالوا: في العامل بخبر الواحد علم و هذا العلم بصواب العلم بقوله و حسنه و ان لم يكن عالما بصدقه فلم يجب العلم من العمل‏[[186]](#footnote-186)، و انما نهى تعالى عن العمل الذي لا يستند إلى شي‏ء من العلم.

قلنا: اللَّه تعالى نهى عن اتباع ما ليس لنا به علم، [و لو علمنا][[187]](#footnote-187) بخبر الواحد فقد قفونا ما ليس له علم، لأنا لا ندري أصدق هو أم كذب، و العلم بصواب العمل عنده هو علم به، و أقوى العلوم به العلم بصدقه، و ليس ذلك بموجود في العمل بخبر الواحد، فيجب أن يكون النهي متناوله.

فان قيل: نهينا[[188]](#footnote-188) عن أن نقتفي ما ليس لنا به علم، و نحن إذا عملنا بخبر الواحد فإنما اقتفينا بخبر قول الرسول صلى اللَّه عليه و آله الذي يعبدنا بالعمل به و الدليل الدال على ذلك و لم نتبع قول الخبر الواحد.

قلنا: ما اقتفينا الا بقول الخبر الواحد و لا عملنا الا على قوله، لأن عملنا مطابقا لما أخبرنا به مطابقة يقتضي تعلقها به. و انما الدليل في الجملة عند من ذهب‏

ص: 337

الى هذا المذهب الى وجوب العمل بخبر الواحد العدل و على طريق التفصيل انما نعمل بقول من أخبرنا بتحليل شي‏ء بعينه أو تحريمه.

و بعد، فلو سلمنا أنا مقتفون قول النبي صلى اللَّه عليه و آله لكان لا بد من كوننا مقتفين أيضا قول المخبر لنا بالتحليل أو التحريم. أ لا ترى أن قوله عليه السلام لو انفرد عن خبر المخبر[[189]](#footnote-189).

فان قيل: هذا سيبطل بالشهادات، و قيم المتلفات، و جهة القبلة، و مسائل لا تحصى.

قلنا: أخرجنا هذه المواضع كلها من ظاهر الآية بدليل و بقي موضع الخلاف متناولا حكمه للظاهر.

و يمكن أيضا أن يستدل على أن الظن عند خبر الواحد في الشريعة لا يجوز العمل عنده، و كذلك في القياس الشرعي، بأن اللَّه تعالى ينهى في الكتاب عن اتباع الظن و العمل به، و ظاهر ذلك يقتضي العمل به و لا عنده في موضع من المواضع، و لما دلت الأدلة الظاهرة على العمل عند الظنون في مواضع من الشريعة خصصنا ذلك بتناوله النهي و بقيت مسائل الخلاف يتناولها الظاهر و لا نخرجها منه الا بدليل، و لا دليل يوجب إخراجها.

(10)

[الجسم لم يكن كائنا بالفاعل‏]

مسألة خرجت في ربيع الأول سنة سبع و عشرين و أربعمائة، دليل لم نسبق عليه على أن الجسم لم يكن كائنا بالفاعل‏[[190]](#footnote-190) قال، رحمه اللَّه:

ص: 338

الذي يدل على ذلك: أنه لو كان الجسم كائنا بالفاعل لوجب أن يكون التأثير[[191]](#footnote-191) في هذه الصفة من صفات الفاعل لا يجوز أن يؤثر في كون الجسم على صفة، و لا يخلو من أن تكون تلك الصفة المؤثرة هي كون الفاعل قادرا أو كونه مريدا أو كارها، كما تحصل هاتين الصفتين مؤثرتين في كون الخبر و الأمر على ما هما عليه.

و لا يجوز أن يؤثر في كون الجسم كائنا في المحاذيات كون الفاعل مريدا أو كارها أو صفة من صفاته غير كونه قادرا، لأنه قد يعرض‏[[192]](#footnote-192) في هذه الصفات كلها و يجعل الجسم كائنا و متحركا و ساكنا. أ لا ترى أن النائم و الساهي قد يخلوان‏[[193]](#footnote-193) من الإرادة و الكراهة و العلوم و مع هذا يجعلان الأجسام مستقلة في المحاذيات.

فثبت أن التأثير بكونه قادرا، و كونه قادرا صفة مؤثرة في الأحداث، فيجب أن لا يؤثر سواه. أ لا ترى أن كونه قادرا لا يؤثر في كون الفعل محكما و لا في كون الصوت خبرا و أمرا.

و حيث‏[[194]](#footnote-194) كانت هذه كلها أحوالا زائدة على الأحداث فيجب أن يؤثر كونه قادرا في كون الجسم كائنا لما ذكرناه.

(11)

[النظر قبل الدلالة]

مسألة، قال رضي اللَّه عنه:

ص: 339

اعلم أن عادة الشيوخ جرت إذا ذكروا في كتبهم أن من الواجبات النظر في طريق معرفة اللَّه تعالى أن يبتدءوا بالدلالة على أن كون النظر أولا قبل الدلالة على وجوبه. و الظاهر يقتضي العكس فيما فعلوه.

و ليس يجوز أن يكون الوجه في ذلك أن كون النظر لا سابقا و كونه واجبا صفتان له، و أنت بالخيار في تقديم كل واحدة على الأخرى. و ذلك أن كونه أول الواجبات يتضمن دعوى وجوبه و أوليته، و ليس يمكن أن يعلم أنه أول الواجبات فوجب لذلك تقديم الكلام في أوليته، لانفصال الوجوب من الأولية و تعلق الأولية بالوجوب.

و لما فكرت في جهة العذر في ذلك لم أجد إلا ما أنا ذاكره، و هو:

أن الدلالة على وجوب النظر مبنية على وجوب معرفة اللَّه تعالى، و معرفة اللَّه تعالى مبنية على أن اللطف في فعل الواجبات العقلية، و هو العلم باستحقاق الثواب و العقاب على الطاعات و القبائح لا يتم إلا بمعرفة اللَّه تعالى، و مبني على أن اللطف واجب على اللَّه تعالى إذا كان من فعله، و إذا كان من فعلنا فواجب علينا، فصار العلم بوجوب النظر في معرفة اللَّه تعالى لا يتم الا بعد معارف كثيرة طويلة لا يمكن أن يدل عليه عاجلا من غير حوالة على ما يطول من أصول كثيرة، و أخروا الكلام في وجوبه لما ذكرناه من تعلقه لما لا يمكن الكلام في هذا الموضع. و اللَّه أعلم.

[12]

[التاء في كلمة «الذات» ليست للتأنيث‏]

مسألة:

سئل رضي اللَّه عنه عن التاء في قولنا «ذات القديم تعالى» [و] في قولهم‏

ص: 340

«صفات الذات» و «ذات الباري»، فقيل: هل التاء في «ذات» للتأنيث كقولنا «جاءتني امرأة ذات جمال» أو هي من نفس الكلمة كالتاء في قولنا «بات».

فأجاب فقال:

الجواب و باللّه التوفيق:

ان صفات التأنيث لا تجوز عليه تعالى، لأنها تقتضي النقص عن كمال التقصير، و لا يجوز عليه تعالى ما يقتضي نقصا و يبقى كمالا.

و ليس يعترض على هذا الذي ذكرناه قولهم «علامة» و «نسابة»، لأن الهاء هاهنا ليست للتأنيث و انما هي للتأكيد و قوة الصفة.

و قولنا «ذات» لا يقتضي تأنيثا، و التاء في اللفظ ليست للتأنيث بل هي من نفس الكلمة، و لم يدل على ذلك الا أنه يستعمل في القديم تعالى منزه عن التأنيث.

و يدل على قولنا «ذات» ليست التاء الداخلة فيه للتأنيث: أنه وصف يجري [على‏] الذكر و الأنثى و جميع الموجودات و يجري على المعدومات كلها عند أكثر المتكلمين، فلو كان للتأنيث لما جرى على الذكر و لاختصت به المؤنثات، و لما جرى أيضا على الأعراض و ما يوصف به على الحقيقة بتأنيث و لا تذكير.

فوضح بذلك أنه لا يختص التأنيث و انما هو عبارة عن نفس الشي‏ء و عينه، فنقول: ذات يخالف الذوات كما نقول عين يخالف الأعيان.

و انما نعني بقولنا «امرأة [ذات‏] جمال» فالتاء للتأنيث لا محالة، لأنها تختلف في المذكر و المؤنث، فتقول «جاءني رجل ذو جمال و امرأة ذات جمال»، فلو لم تكن للتأنيث لما اختلف مع التذكير و لا تخالف المذكر و المؤنث في الوصف بأنه ذات على ما بيناه. فاللّه أعلم بالصواب.

ص: 341

[13]

[منع كون الصفة بالفاعل‏]

مسألة:

استدل من منع من كون الصفة بالفاعل، بأن قال: لو كانت بالفاعل لكان متى قدر على جعل الذات على صفة يكون عليها بالفاعل. أ لا ترى أن [من‏] قدر منا على جعل الصوت خبرا فهو قادر على أن يجعله أمرا و نهيا و خبرا عن كل مخبر عنه من حيث كانت هذه الصفات أجمع بالفاعل. فلو كان الجسم مستقلا بالفاعل لكان كونه أسود و أبيض بالفاعل، لأن الطريق واحد.

و هذا الدليل معترض، بأن يقال: ما أنكرتم أن يكون انتقاله بالفاعل و كونه أسود و أبيض بمعنى، لأن الصفات التي تجوز على الذات ينقسم استنادها: فتارة تستند الى الفاعل، فما الذي يمنع عن استناد الانتقال الى الفاعل و السواد و البياض إلى العلة. و إذا كنا نجوز ذلك يمكن القطع على أن السواد إذا كان لعلة كان الانتقال كذلك.

و ليس يعصم من هذا السؤال قولهم: ان الصفتين إذا كانت كيفية استحقاقهما واحدة لم يجز أن يكونا مستحقين من وجهين مختلفين، فلما كان الجسم يستحق كونه أسود يستحق كونه منتقلا في باب الصحة و الجواز و الشروط، وجب متى كانت هذه الصفة بالفاعل أن تكون الأخرى كذلك.

و ان كانت لمعنى فكذلك، لأن الاشتراك في كيفية الاستحقاق- و هو حصول الصفة على وجه الجواز- انما يدل على أن الصفة ليست للنفس، فإذا انتفى بالاشتراك في هذه الكيفية كون الصفة مستندة الى النفس، و انقسم بعد ذلك بما يمكن استناد الصفة اليه: فتارة يكون بالفاعل، و أخرى بالعلة.

ص: 342

فمتى علمنا بالدليل أن العلة أثر بها قطعنا بذلك، و متى دل على أن الفاعل أثر بها حكمنا به، و متى جوزنا في البعض أن يكون الفاعل هو المؤثر و البعض العلة وجب التوقف و ترك القطع.

و هذه حالنا في انتقال الجسم و كونه أسود، لجواز أن يستند الانتقال الى الفاعل و السواد الى المعنى. فلا سبيل بالاعتبار الذي اعتبر على أن يقطع على أن الانتقال لا يجوز استناده الى الفاعل من غير توسط معنى.

[14]

[الدليل على أن الجوهر ليس بمحدث‏]

مسألة:

و مما استدلوا بها على أن الجوهر لا يكون محدثا، بمعنى أن ذلك لو وجب فيه لكان المعنى الذي يحتاج إليه في حدوثه يفتقر الى معنى، لمشاركته له في العلة التي احتاج اليه من أجلها، و هي حدوثه مع جواز ألا يحدث. و ذلك يؤدي الى إثبات ما لا نهاية له من إثبات الحوادث، و هو مستحيل.

و هذا الدليل يعترض بمثل المسألة الأولى، لأنه يمتنع أن يكون حدوث بعض المحدثات لعلة حدوث البعض الأخر بالفاعل.

و قولهم: انهما إذا اشتركا في كيفية الاستحقاق لم يجز أن يقتضي أحدهما أمرا و الأخر سواه. باطل، لأن المشاركة في كيفية الاستحقاق جواز الحدوث يمنع من استناد الصفة إلى النفس، و إذا بطل استنادها الى النفس لم يمتنع انقساما يستند اليه، فيكون في بعض الذوات بالفاعل و في بعض بالعلة.

و هذا أمر متلبس لا سبيل إلى العلة، بل الشك في ذلك و التجويز هو الواجب‏

ص: 343

الى أن يدل دليل.

(15)

[إبطال قول «ان الشي‏ء شي‏ء لنفسه»]

مسألة:

لا يجوز أن يقال ان الشي‏ء شي‏ء لنفسه. لأن ذكر المعلوم بأنه شي‏ء ليس بصفة لاشتراك الموجود و المعدوم و الأجناس المختلفة في إجراء هذا الاسم عليها.

فان قيل: فلما تصفون الموجود بأنه موجود لنفسه و اجراء ذلك في القديم تعالى.

قيل له: لأن الوجود صفة، فجاز أن يستند الى النفس.

فان قيل: فما تقولون في العرض.

قيل: اجراء هذا الاسم على ما ليس بصفة و ان كان غير قولنا عرض أنه الذي لا؟؟؟[[195]](#footnote-195) له كلية الأجسام، و هذا الحكم فليس بصفة.

(16)

[النسبة بين الافعال و ما هو لطف منها]

مسألة:

أن يسأل سائل عن وجه المناسبة بين الأفعال في العقل و بين ما هو لطف فيها من الشرعيات.

ص: 344

فالجواب: انا إذا علمنا كون هذه الأفعال- أعني الشرعيات- واجبة علمنا أن لها وجها[[196]](#footnote-196) و مناسبة بين ما هي لطف و ان لم يتعين لنا وجه المناسبة، غير أنهم قد بينوا ما يمكن أن يكون وجها على طريق الاستظهار [..][[197]](#footnote-197) و قالوا:

انه يمكن أن يكون الوجه أن في الشرعيات من ذكر اللَّه تعالى و الرجوع اليه و التمسك بطاعته و توطين النفس عليها، مثل الذي يجب على المكلف في التكليف العقلي أن يفعله، فإذا عزم على هذا الفعل و وطن نفسه على الاستكثار و سارع الى مثله في العقليات.

و الوجه الثاني في هذه الأفعال من تحمل المشقة على وجوه مخصوصة مثل ما في تلك الأفعال.

و هذا يسقط استبعاد من يستبعد كونها تصلح في العقليات، و قالوا: انا لا نقطع على أنها مصلحة لأي وجه من هذين الوجهين. و انما أوردنا ليزيل ما يتوهم و يستبعد من المناسبة.

و بينوا: إن الطريقة في ذلك كالطريقة في الآلام و الغموم و المعالجات، و ذلك أن من نزلت به الآلام فتلف لها و طلب التخلص منها بالمكاره و العلاج و احتمى من الملاق‏[[198]](#footnote-198) طلبا للسلامة منها يكون أقرب الى مفارقة المعاصي و فعل الطاعات و تحمل المشقة فيها، ليتخلص من العقاب الدائم و يستحق الثواب الدائم.

ثم لم يجز أن يعرف التفصيل في ذلك، و لا أن يقطع على أن هذا هو الوجه دون غيره. و بينوا ذلك أيضا بأن الإنسان إذا قارف ذنبا وجب عليه التوبة منه، قد

ص: 345

حصل ليزيل من نفسه العقاب.

و لا فرق بين أن يعرف عين الفعل و بين أن لا يعرفه، في أن وجه وجوب التوبة قد حصل له و قد تمكن من تلافي ما كان منه، فكذلك القول في المصالح، لأنها انما تجب لما يتضمن من إزالة المضرة و اجتناب المنفعة على ما بين.

[17]

[دور العقل و السمع في النوافل‏]

مسألة:

إذا قلنا: ان النوافل انما يتعلقها لذلك السمع، و هو استحقاق الثواب عليها و ان تركها لا يستحق العقاب عليه، فلا بد من بيان أن السمع هو الكاشف عن ذلك و أن العقل لا مدخل له فيه.

و ذلك أنه قد تقرر كونها لما فيها من المشقة قبيحة، فلو لم يكن فيها بعض وجوه المصالح لعرضنا لاعتقاد يجري مجرى الجهل، لأنه كان يجب لو لا البيان أن نعتقدها قبيحة منا و من حقها أن تكون حسنة.

و الوجه الذي ذكر في حسنها: أنها مسهلة للفرائض، فكأن المكلف إذا مرن على فعلها و اعتادها يكون اقدامه على الواجب أسهل و على النفار من فعله أبعد، فيكون وجها مقويا داعيا الى فعل الفرائض.

و على هذا ورد الشرع في أن يأمر الصبي بالصلاة في حال و يضربه على فعله في حال، لكي يعتاد و يمرن عليها.

فإذا كان ما يتقدم التكليف يؤثر هذا التأثير، فإن تأثر[[199]](#footnote-199) النوافل على هذه الحد

ص: 346

في حال التكليف أقرب.

و هذه الطريقة متعارفة، لأن من يتحمل المشقة فيما لا يجب عليه يكون الواجب عليه أسهل عنده و أقرب الى فعله.

و قد قيل: ان النوافل مسهلة لأمثالها من العقليات من الإحسان و التفضل، و اعتبر قائل ذلك أنها لو كانت مقربة الى فعل الواجبات الشرعية لوجبت كما وجبت الشرعيات لتقربها من الواجبات العقلية. و في هذا نظر.

(18)

[الدليل على أن الجواهر مدركة]

مسألة:

استدل على أن الجواهر مدركة: بأن النبي صلى اللَّه عليه و آله لو خبر بأن زيدا في الدار و كون جسم مخصوص فيها، ثم أدركناه على حد ما أخبر به تقوى العلم بذلك، فلو لا أن الإدراك تناوله لما وجب قوة العلم لما كان متناول الخبر و الإدراك واحدا، إذ لو كان مختلفا لما أوجب ذلك.

(19)

[دفع شبهة للبراهمة في بعث الأنبياء]

شبهة للبراهمة:

قالوا: لو حسنت البعثة لكان من يبعثه اللَّه تعالى لأداء الرسالة يقطع على أنه سيبقى حتى يؤديها، لأنه متى لم يقطع على ذلك جوز ألا يكون تعالى مزيحا لعلة المبعوث إليهم في مصالحهم. و قطعه على البقاء مفسدة، لأنه إغراء بالمعاصي على‏

ص: 347

ما يقولون بمثله في سائر المكلفين و كما يذكرونه في تعريف الصغائر و تعريف غفران الكبائر. و هذا يجوز أن يكون بعثة الرسول لا تنفك من القبيح، فإذا ثبت أنه لا يجوز أن يستصلح المبعوث إليهم باستفساد المبعوث فيجب قبح البعثة.

الجواب:

ان الرسول فيما كلفه من أداء الرسالة بمنزلته في سائر ما كلفه في أنه يعلم أنه سيبقى بشرط، و هذا السؤال لأنه إذا جوز في سائر ما كلف لأنه قد علم بحكم النقل أن تكليفه على شريطة، و إذا لم يقطع على حصولها جوز أن لا يكون مكلفا و ان كان يعلم أن تلك الشريطة متى ثبتت كان مكلفا.

و ليس كذلك حال أداء الرسالة، لأنه قد يعلم أن البعثة بها أرادها الى المبعوث إليهم، فمتى لم يمكن من الا[[200]](#footnote-200) لم يزح علة المبعوث إليهم في المصالح، فيعلم لعقله؟ أنه يمكن من التأدية محصل من ذلك الإغراء.

فيقال له: و ان علم في الرسالة أنها مصلحة للغير و أنه متى لم يعلمها ذلك الغير لم يكن مزاح العلة فإنه يجوز متى لم يكن من الا[[201]](#footnote-201) ان يؤمر بها غيره فيزاح علته، لأن الذي يعلمه بالعقل أنه لا بد من إزاحة علة المكلف ثم لا يعلم أن ذلك يكون [..][[202]](#footnote-202) قبل غيره، كما لا يعلم أنه يكون بالمشافهة دون الخبر و شكه في [..][[203]](#footnote-203) لا نمنع من حصول اليقين من له و لا يؤدي الى فساد.

فان قيل: فيجب على هذا الجواب أن لا يعلم الرسول أنه قد حمل الرسالة لا محالة.

قيل: هو يعلم ذلك و انما يشك هل كلف [..][[204]](#footnote-204) في الأحوال المتراخية أم لا، مع علمه بأنه قد كلف لا محالة ان بقي على شرائطه.

ص: 348

فإن قيل: انما حمل الرسالة حتى يؤدي، فيجب أن يقطع ثبوت الأول.

قيل له: ان من سلك هذه الطريقة يقول: انما حملها لكي يؤدي ان بقي على صفات المكلف، و لا يطلق الا ما أوردت إطلاقا، كما يقول في رد الوديعة عند المطالبة انه مكلف ذلك ان بقي متمكنا، و ان لم يتمكن لم يجب الا أن يكون مكلفا في الأول على الشرط الذي ذكرناه.

فان قيل: الغرض فيما يفعله من مقدمات الوديعة وصولها الى [..][[205]](#footnote-205)، فالغرض بتحمل الرسالة العزم على تأديتها الى من بعث الرسول اليه.

جواب آخر:

إذا قلنا انه يعلم [..][[206]](#footnote-206) الرسالة فلا يجب بذلك الإغراء، لأن الإغراء يختلف باختلاف المكلفين، فمن علم من [..][[207]](#footnote-207) على الطاعة لكونه معصوما و العلم بحاله في إيثاره التمسك بما يلزمه فعله بذلك لا يكون [..][[208]](#footnote-208) من حاله خلاف ذلك يكون إغراء في حقه، فتختلف أحوال المكلفين بحسب المعلوم من أحوالهم، فلا يجب [..][[209]](#footnote-209) قدروه من الفساد.

و لمن حكم بأن في المعاصي صغائر أن يفرق بين العلم بصغير المعصية و العلم [..][[210]](#footnote-210) أن يقول: العلم بصغير المعصية يقتضي أن لا يستضر بفعلها ضررا يعتقد بمثله مع ما له فيها من الشهوة، فيكون ذلك إغراء. و كذلك القول في تعريف القرآن.

و ليس كذلك إذا علم أنه سيبقى يجوز معه ألا يختار التوبة، فالمخالفة قائمة من الاقدام على المعاصي، فلذلك جاز أن تختلف أحوال المكلفين فيه.

ص: 349

و انما يصير الاعلام بالتبعية إغراء إذا انضافه الى العلم بأنه مأمور[[211]](#footnote-211) لا محالة و ان أقدم على المعاصي.

و يمكن أن يقال: انه يأمن ألا يستكثر من الطاعات فتفوته المنافع العظيمة و الخوف من فوات المنفعة كالخوف من فوات المضرة.

و وجدت عبد الجبار بن أحمد قد ذكر في هذا فضلا في المعنى، و هو أن قال:

ان الرسول يقطع على أنه سيبقى الى أن يؤدي الرسالة التي حملها، ثم بعد يعود حاله الى أنه في كل وقت مستقبل يجوز أن يبقى و أن يقطع تكليفه، و كذلك كانت أحوال الأنبياء تنتهي الى هذه الطريقة. و ذلك يزيل ما نذكره من الإغراء، لأن الوجل و الخوف انما يزولان عنه متى علم انتهاء[[212]](#footnote-212) تكليفه، فأما إذا لم يعلم فالخوف قائم.

و هذا الجواب يعترض، بأن يقال: إنما ألزمت الإغراء في الحال التي يقطع فيها المكلف على أنه سيبقى لا محالة، و هي الحال التي يعلم فيها بقاؤه إلى حين الأداء. فأما بعد هذه الى الحال فلا قطع للنبي عليه السلام على البقية و الإغراء ليس بحاصل، فإذا علم انتهاء تكليفه عادت الحال إلى الإغراء. فيعلم أن هذا الجواب ليس بصحيح.

(20)

[معنى النفع في الضرر]

مسألة:

قال رضي اللَّه عنه:

ص: 350

ان الألم يحسن إذا لم يكن ظلما و لا عبثا و لا مفسدة، و ان حد الظلم ما يعرى عن نفع يوفى عليه و دفع ضرر يزيد عليه.

و من رأيت هذا مضروبا و الظاهر أنه ذو استحقاق و زيد فيه و لا كان على وجه المدافعة فإن ذكر القصد و الحد، فقيل الألم المقصود متى يعرى من الوجوه الثلاثة كان ظلما لم يدخل المدافعة، لأن الألم فيها غير مقصود و لو قصد لكان قبيحا و ظلما.

و لا بد من بيان وجه قولهم: نفع في الضرر تجري الألم.

و الظاهر أن الظن يقوم مقام العلم في هذه الوجوه‏[[213]](#footnote-213) كلها للاستحقاق، فان الخلاف بين أبي علي و أبي هاشم: فذهب أبو هاشم الى أن الظن فيه أيضا يقوم مقام العلم، و استدل بأنا نذم العاصي إذا غاب عنا و ان جوزنا أن يكون قد تاب لظن العلم، و قال أبو علي في هذا الموضع: و انما يحسن الظن مشروطا لا مطلقا.

و قول أبي علي كأنه أقوى، و يجب أن يراد به الوجوه التي يقصد بالألم، فيحسن عليها أن يفعل للاعتبار، و معنى الاعتبار أن يفعل المؤلم عنده اما طاعة أو ممتنع أو من معصية.

و هذا الوجه كان [..][[214]](#footnote-214) من هذه الوجوه، لأن اللَّه تعالى إذا فعل الألم للاختبار [..] الحاصل عليه، بل العوض كالمانع و الأصل الاعتبار، فبالعوض يخرج من أن يكون عبثا.

و هذا الوجه خاصة لا يصح الا من القديم تعالى خاصة دون غيره من العباد، لأنه جل اسمه المكلف لهم، فازاحة[[215]](#footnote-215) علتهم بالإطلاق واجبة عليه و غيره من العباد

ص: 351

و ليس بمكلف لغيره فيلزمه الطاعة. فصار هذا الوجه خاصة يختص بالقديم تعالى من الوجوه المشتركة بيننا و بين القديم تعالى.

فعلم الألم بوجه الاستحقاق، فان اللَّه تعالى يعاقب العصاة و يؤلمهم لهذا الوجه كما يرم العاصي‏[[216]](#footnote-216) و ان عمه ذلك [..][[217]](#footnote-217) لهذا الوجه، فصار هذا الوجه مشتركا و الأول خاصا به تعالى. فأما باقي الوجوه التي ذكرناها فنختص نحن بها دونه، فلا يصح دخول شي‏ء منها فيما يدخله تعالى من الآلام.

أما الظن فيستحيل عليه تعالى لأنه عالم لنفسه.

و أما فعل الألم لدفع الضرر فإنما يحسن منا إذا كنا لا نتمكن من دفعه الا به، و لهذا لا يحسن أن يخرج الغريق من الغمرة بأن يكسر يده إلا إذا لم يتمكن من إخراجه إلا كذلك، فان تمكنا من إخراجه بغير كسر يده فأخرجناه كا [..][[218]](#footnote-218) من يده ضمنا كسر يده. و لما كان القديم تعالى قادرا على دفع كل ضرر قل أم كثر من غير أن يفعل شيئا من الآلام ارتفع هذا الوجه أيضا من جملة أفعاله.

و أما فعل الآلام فلا يحسن إلا إذا كان لا يوصل الى النفع الا به، و لهذا لا يحسن منا أن نتعب نفوسنا في طلب الأرباح و نحن نقدر على الوصول إليها من غير ألم و لا تعب. و لما كان القديم تعالى قادرا على إيصال [..][[219]](#footnote-219) يريد إيصاله من المنافع من غير مقدمة ألم لم يحسن منه أن يؤلم لإيصال النفع. فلذا قلنا: ان الاعتبار هو المقصود و النفع تابع.

فصار المحصل من هذه الجملة التي ذكرناها أن الوجوه التي يقع عليها الألم فيخرج من أن يكون ظلما فيها مشتركة بين القديم تعالى و بيننا و هو الاستحقاق فقط، و منها ما يختصه تعالى و هو الاعتبار، و منها ما يختصنا و هو باقي الوجوه من فعله‏

ص: 352

لرفع الضرر أو للنفع.

و إذا كان غير مقصود فعلى سهل المدافعة، لأن هذا الوجه أيضا لا يليق بالقديم تعالى، لأنه قادر على دفع كل ألم يقصده الظاهر من غير فعل شي‏ء من الآلام، و لأنه تعالى لا يصح أن يقع منه ألم غير ألم، و الآلام في المدافعة لا تكون مقصودة.

و تأمل هذه الجملة، فإن فيها فوائد كثيرة لا تمضي‏[[220]](#footnote-220) في الكتب و ما بسطناها في الذخيرة بحسن التوفيق.

و اعلم أن هذه الوجوه التي ذكرناها تنقسم: فمنها ما إذا حصل تكامل منه بحصوله حسن إلا [..][[221]](#footnote-221) في حسنه إلى غيره، و منها ما لا يتكامل بذلك الوجه حسنه بل يقف كمال حسنه على غيره.

فمثال الوجه الأول الاستحقاق، فإنه يحسن لكونه مستحقا من غير زيادة عليه، و كذلك يحسن الألم لدفع ما هو أعظم منه و يتكامل بذلك حسنه، و كذلك إذا وقع غير مقصود على وجه [..][[222]](#footnote-222) فإنه يحسن هذا الوجه و يتكامل به حسنه.

و مثال القسم الثاني الاعتبار، فان الاعتبار لا يتكامل حسنه و انما [..][[223]](#footnote-223) من أن يكون عبثا، و النفع الزائد يخرج من أن يكون ظلما.

و مثال هذا الوجه من الألم أيضا النفع، فإنه ينقسم، فان فعلناه يضرنا، نظرنا فان كان ممكنا أن نوصل ذلك الغير الى النفع من غير ألم قبح الألم لكونه عبثا و ان كان فيه نفع. مثاله: ان استأجر الأجير بالأجرة الوافرة التي يرضى بها لاستيفاء الماء من نهر الى آخر، فإنه يكون عبثا و ان لم يكن ظلما، و لا بد فيه من عوض زائد على إيصال النفع.

ص: 353

و أما القسم الثالث- و هو ما تفعله نفوسنا من الألم- فيتكامل حسنه بالنفع الزائد من غير زيادة عليه، و من شرطه أن يكون ذلك النفع لا يحصل الا بتقديم هذا الألم. و مثاله: إتعاب اما معلوما و اما مظنونا.

و كل وجه من هذه الوجوه التي ذكرنا أن [..][[224]](#footnote-224) شي‏ء عوض فيه المفسدة قبح لأجلها، لأن المفسدة متى عرضه غيرت وجوب الواجبات كلها و صارت [..][[225]](#footnote-225) فأولى أن يكون الألم كذلك في الوجوه التي يحسن عليه الألم.

و إذا قيل: و إذا كانت المفسدة تغير وجوب الواجبات فما الذي يؤمنكم أن يكون رد الوديعة أو قضاء الدين مفسدة في بعض الأوقات.

فالجواب عن ذلك: انه لو كان شي‏ء مفسدة في بعض الأوقات لوجب على اللَّه تعالى أن يبينه لنا و يميزه، فلما لم يفعل ذلك علمنا أن جميع الأوقات متساوية في وجوب ذلك كله. و هذا بين.

(21)

[معنى قول النبي «من أجبا فقد أربى»]

مسألة:

الإجباء في اللغة العربية هو بيع الزرع‏[[226]](#footnote-226) قبل أن يبدو صلاحه، يقال: أجبا الرجل يجبى إجباء فعل ذلك.

فمعنى ما روي عن النبي صلى اللَّه عليه و آله و سلم من قوله «من أجبا فقد أربى»: أن من باع الزرع قبل أن يبدو صلاحه- و قد نهى عن ذلك و حظر عليه-

ص: 354

يجري مجرى من أربى، لأنه فاعل المعصية محظور عليه، و ان لم يكن بيع ما لم يبدو صلاحه ربي في الحقيقة و لا معناه معناه غير أنه جار مجراه في الحظر و المعصية، و جار مجرى قول القائل «من زنى فقد سرق»، أي هو عاص مخالف للَّه تعالى، كما أن ذاك هذه حاله‏[[227]](#footnote-227).

(22)

[اللفظة الدالة على الاستغراق‏]

مسألة:

ان سأل سائل فقال: إذا لم يكن عندكم في لغة العرب لفظة هو حقيقة في الاستغراق، فمن أي وجه علم تناول الوعيد بالخلود كافة على جهة التأبيد.

فإن قلتم: انما علم ذلك من قصد النبي صلى اللَّه عليه و آله ضرورة.

قيل لكم: و النبي من أي وجه علم ذلك.

فان قلتم: اضطره الملك الى ذلك.

قيل لكم: و الملك من أين علم ذلك، و مع كونه مكلفا لا يصح أن يضطره اللَّه سبحانه الى قصده.

الجواب:

انا انما قلنا في المحاورة و أنه لا لفظ موضوع فيها لذلك، إذا كان هذا غير ممتنع أن يكون في لغة الملائكة لفظ موضوع للاستغراق يفهمون به مراد الحكيم سبحانه في الخطاب، و إذا صح ذلك و خاطبهم اللَّه بذلك صح أن يضطر الملك النبي «ص» الى مراد اللَّه تعالى منه في الاستغراق.

ص: 355

و يمكن أيضا أن يغني اللَّه تعالى بعض ملائكته بالحسن عن القبيح و يضطره الى علم مراده باستغراق كافة الكفار في تأييد العقاب و تناوله سائر الأوقات، و يضطر ذلك الملك غيره من الملائكة، و يضطر من اضطره النبي صلى اللَّه عليه و آله الى ذلك.[[228]](#footnote-228)

1. في الأصل« قالوا» و صححناه بقرينة ما سيأتي. [↑](#footnote-ref-1)
2. كذا في الأصل. [↑](#footnote-ref-2)
3. كذا في الأصل. [↑](#footnote-ref-3)
4. سورة النور: 43. [↑](#footnote-ref-4)
5. انظر: بحار الأنوار 59- 378. [↑](#footnote-ref-5)
6. كذا في النسخة، و لعل الصحيح: يحدث. [↑](#footnote-ref-6)
7. في الأصل« من تصادقهما». [↑](#footnote-ref-7)
8. زيادة منا لاستقامة الكلام. [↑](#footnote-ref-8)
9. كذا في النسخة. [↑](#footnote-ref-9)
10. بياض في الأصل. [↑](#footnote-ref-10)
11. في الأصل« مخالف». [↑](#footnote-ref-11)
12. كذا في النسخة. [↑](#footnote-ref-12)
13. في الأصل« فاعلا». [↑](#footnote-ref-13)
14. كذا في النسخة. [↑](#footnote-ref-14)
15. كذا في النسخة. [↑](#footnote-ref-15)
16. في الأصل« آل محمد». [↑](#footnote-ref-16)
17. في الأصل« و لا متولدة». [↑](#footnote-ref-17)
18. اختلط هنا بقية جواب المسألة الثانية عشر و صدر السؤال من المسألة الثالثة عشر، كما يظهر عند إمعان النظر في العبارة. [↑](#footnote-ref-18)
19. في الأصل« منها». [↑](#footnote-ref-19)
20. في الأصل« فما الملزوم». [↑](#footnote-ref-20)
21. بياض في النسخة. [↑](#footnote-ref-21)
22. بياض في النسخة. [↑](#footnote-ref-22)
23. الزيادة منا لاستقامة الكلام. [↑](#footnote-ref-23)
24. بياض في النسخة. [↑](#footnote-ref-24)
25. بياضات في النسخة. [↑](#footnote-ref-25)
26. بياضات في النسخة. [↑](#footnote-ref-26)
27. لقد تمثل جبرئيل للنبي صلّى اللَّه عليه و آله و سلم في صورة دحية بن خليفة الكلبي في مواقع عديدة. أنظر: سفينة البحار 1- 441، الإصابة 2- 161، أسد الغابة 2- 130. [↑](#footnote-ref-27)
28. في الأصل: ان الباري تعالى أمن حجاب. [↑](#footnote-ref-28)
29. في الأصل« لا شكيك». [↑](#footnote-ref-29)
30. في الأصل« يسميه». [↑](#footnote-ref-30)
31. في الأصل« يقدر». [↑](#footnote-ref-31)
32. في الأصل: فحمك هم. [↑](#footnote-ref-32)
33. في الأصل: أن يصور. [↑](#footnote-ref-33)
34. انظر حول جبرئيل: بحار الأنوار 59- 248- 265. و لم نجد الحديث المزمع إليه في الكتاب. [↑](#footnote-ref-34)
35. في الأصل« لا يفتح». [↑](#footnote-ref-35)
36. الزيادتان منا لاستقامة الكلام. [↑](#footnote-ref-36)
37. في الأصل« أو يجري». [↑](#footnote-ref-37)
38. سورة النساء: 164. [↑](#footnote-ref-38)
39. سورة الشورى: 51. [↑](#footnote-ref-39)
40. الزيادة منا. [↑](#footnote-ref-40)
41. كذا في النسخة. [↑](#footnote-ref-41)
42. انظر وسائل الشيعة 5- 402- 407، ففي أحاديث وردت هذه الجملة« أمانتي أديتها و ميثاقي تعاهدته لتشهد لي بالموافاة». [↑](#footnote-ref-42)
43. في الأصل« و هو الميثاق». [↑](#footnote-ref-43)
44. كذا و العبارة غير مستقيمة. [↑](#footnote-ref-44)
45. كذا. [↑](#footnote-ref-45)
46. سورة الأعراف: 172. [↑](#footnote-ref-46)
47. كذا في النسخة. [↑](#footnote-ref-47)
48. بياض في الأصل. [↑](#footnote-ref-48)
49. في الأصل« أن يحسن». [↑](#footnote-ref-49)
50. في الأصل« في الانتباه». [↑](#footnote-ref-50)
51. في الأصل« و انما المزيلة». [↑](#footnote-ref-51)
52. في الأصل« لفعله». [↑](#footnote-ref-52)
53. الزيادة منا. [↑](#footnote-ref-53)
54. في الأصل« لجميعهم». [↑](#footnote-ref-54)
55. بياض في النسخة. [↑](#footnote-ref-55)
56. كذا. [↑](#footnote-ref-56)
57. سورة نوح: 15. [↑](#footnote-ref-57)
58. سورة الطلاق: 12. و الآية« اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ».

    و لعله قصد هذه الآية فجاءت كلمة« طباقا» عفوا. [↑](#footnote-ref-58)
59. في الأصل« فإن قطع». [↑](#footnote-ref-59)
60. زيادة منا لاستقامة الكلام. [↑](#footnote-ref-60)
61. بياض في النسخة. [↑](#footnote-ref-61)
62. كذا، و لعل الصحيح: اما أن يقوى اللَّه تعالى رؤية البشر. [↑](#footnote-ref-62)
63. كذا. [↑](#footnote-ref-63)
64. وسائل الشيعة 17- 377. [↑](#footnote-ref-64)
65. في الأصل« عن زوجها». [↑](#footnote-ref-65)
66. في الأصل« ان النكاح». [↑](#footnote-ref-66)
67. سورة النساء: 3. [↑](#footnote-ref-67)
68. في الأصل« و ليس ارتفاع الدم». [↑](#footnote-ref-68)
69. في بعض النسخ« ظويلع» و هو لهجة بعض المناطق العربية. [↑](#footnote-ref-69)
70. سورة الشعراء: 94. [↑](#footnote-ref-70)
71. هذا على نسخة« سنحة» بالنون و الحاء المهملة، و أما على نسخة« سخة» بالسين المفتوحة و تشديد الخاء المعجمة فهو مائة في رمال عبد اللَّه بن كلاب، أو« سخنة» بضم السين و سكون الخاء المعجمة و نون فهو بلدة في برية الشام يسكنها قوم من العرب. أنظر: معجم البلدان 3- 196. [↑](#footnote-ref-71)
72. في الهامش: قوله« أقامه مقامه فأجرى عليه اسمه» لعل الشاعر البليغ المجمع على بلاغته، أراد أن هؤلاء الغواني المشبب بهن موصوفات بغاية و قوة الحياء، مصونات عن كل خصلة مبتذلة، فإذا غلبهن عجب من شي‏ء لم يدرك منهن ما يدرك من غيرهن من الإعلان بالضحك الذي يسمع للعجب، و انما يدرك منهن التبسم. و هذا غاية المدح فيهن، مفيد معنى الكناية المطلوب. و اللَّه أعلم. [↑](#footnote-ref-72)
73. علم‏الهدى، على بن الحسين، رسائل الشريف المرتضى، 4جلد، دار القرآن الكريم - قم - ايران، چاپ: 1، 1405 ه.ق. [↑](#footnote-ref-73)
74. في الهامش: قوله« و ما أعلم الى أى شي‏ء ذهب» إذا كان المتنقب يصح إطلاقه على هن المرأة، عمل بالاستعارة: شبه تستره و إخفاءه بالوجه المتنقب بالنقاب، فأطلق عليه، فالأمر ظاهر، و الكثافة في الهن و العظم مما تحمد به المرأة، بل تمدح به حتى قالت الاعرابية:

    ان هني لهن .. ان جلست فوق .. كالارنب الرانى ..

    فلعل السيد الحميري يريد هذا مع أنه ذكر أنها أسيلة الوجه أى الخد و انها ثقيلة الردف.

    أو يقال انه أراد به جثلة الشعر من الرأس .. [↑](#footnote-ref-74)
75. انظر:« عمدة الاخبار في مدينة المختار» 551 للشيخ احمد بن عبد الحميد العباسي. [↑](#footnote-ref-75)
76. انظر تفصيل القصة في تاريخ الطبري 4- 456 فما بعد، مروج الذهب 2- 353. [↑](#footnote-ref-76)
77. سورة الأحزاب: 6. [↑](#footnote-ref-77)
78. انظر شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 2- 78، العقد الفريد 3- 96. و انظر روايات اخرى لما دار بين السيدتين في البدء و التاريخ 2- 109، و في الفائق للزمخشري 1- 190. [↑](#footnote-ref-78)
79. هذا البيت يوجد في بعض نسخ الشرح. [↑](#footnote-ref-79)
80. سورة الأحزاب: 72. [↑](#footnote-ref-80)
81. انظر الأحاديث في ذلك فضائل الخمسة 2- 100 و 103. [↑](#footnote-ref-81)
82. انظر مصادر حديث المنزلة في فضائل الخمسة 1- 347. [↑](#footnote-ref-82)
83. انظر أحاديث رد الشمس في فضائل الخمسة 2- 135. [↑](#footnote-ref-83)
84. سورة البقرة: 74، [↑](#footnote-ref-84)
85. انظر هذه القصة مع تغيير يسير في بعض الخصوصيات بحار الأنوار 41- 260. [↑](#footnote-ref-85)
86. في بعض النسخ« بانية ليس بحيث يلقى عامرا». [↑](#footnote-ref-86)
87. سورة النازعات: 30. [↑](#footnote-ref-87)
88. انظر حديث مولد على عليه السلام بالكعبة فضائل الخمسة 1- 214. [↑](#footnote-ref-88)
89. انظر في ذلك فضائل الخمسة 2- 113 فما بعد. [↑](#footnote-ref-89)
90. تاريخ الطبري 2- 319 فما بعد. [↑](#footnote-ref-90)
91. انظر مسند الامام احمد 1- 331. [↑](#footnote-ref-91)
92. و في الهامش: بادره مبادرة و بدارا و ابتدره و بادر غيره إليه: عاجلة.

    و بدره الأمر و اليه: عجل اليه.

    و استبق و استبقنا البدري، كجمزى: أى مبادرين.

    و البادرة: ما يبدر من حدتك في الغضب من قول أو فعل .. و البديهة. قاموس. [↑](#footnote-ref-92)
93. سورة الإسراء: 64. [↑](#footnote-ref-93)
94. علم‏الهدى، على بن الحسين، رسائل الشريف المرتضى، 4جلد، دار القرآن الكريم - قم - ايران، چاپ: 1، 1405 ه.ق. [↑](#footnote-ref-94)
95. كذا، و لعل الصحيح ان يقول: اللواحق من الفرس. [↑](#footnote-ref-95)
96. لم نعرف مناسبة التعليقة هذه مع البيت المشروح. [↑](#footnote-ref-96)
97. كذا، العبارة غير تامة و الموضوع ناقص [↑](#footnote-ref-97)
98. سورة آل عمران: 169. [↑](#footnote-ref-98)
99. انظر تاج العروس 8- 178، معجم البلدان 5- 441. [↑](#footnote-ref-99)
100. الإرشاد للمفيد ص 46، المناقب لابن شهرآشوب 1- 196. [↑](#footnote-ref-100)
101. في الهامش: الثلاثة الذين قتلوا هم: عتبة، و ولده الوليد، و اخوه شيبة. و أما حمزة فهو قتل في يوم أحد. و لعل الشارح أراد أنه حصل من هند ما ذكر في يوم أحد.

     و اللَّه أعلم. [↑](#footnote-ref-101)
102. سورة المائدة: 67. [↑](#footnote-ref-102)
103. سورة المائدة: 3. [↑](#footnote-ref-103)
104. أو في مصدر يراجع للاطلاع على أسانيد حديث الغدير و مداليل ألفاظه كتاب الغدير في الجزء الأول منه. [↑](#footnote-ref-104)
105. سورة الأحزاب: 6. [↑](#footnote-ref-105)
106. علم‏الهدى، على بن الحسين، رسائل الشريف المرتضى، 4جلد، دار القرآن الكريم - قم - ايران، چاپ: 1، 1405 ه.ق. [↑](#footnote-ref-106)
107. هذا البيت ورد في بعض النسخ. [↑](#footnote-ref-107)
108. سورة آل عمران: 97. [↑](#footnote-ref-108)
109. سورة يوسف: 20. [↑](#footnote-ref-109)
110. سورة البقرة: 203. [↑](#footnote-ref-110)
111. علم‏الهدى، على بن الحسين، رسائل الشريف المرتضى، 4جلد، دار القرآن الكريم - قم - ايران، چاپ: 1، 1405 ه.ق. [↑](#footnote-ref-111)
112. علم‏الهدى، على بن الحسين، رسائل الشريف المرتضى، 4جلد، دار القرآن الكريم - قم - ايران، چاپ: 1، 1405 ه.ق. [↑](#footnote-ref-112)
113. سورة النازعات: 45. [↑](#footnote-ref-113)
114. سورة يس: 11. [↑](#footnote-ref-114)
115. سورة الشورى: 40. [↑](#footnote-ref-115)
116. سورة البقرة: 194. [↑](#footnote-ref-116)
117. سورة الفرقان: 71. [↑](#footnote-ref-117)
118. علم‏الهدى، على بن الحسين، رسائل الشريف المرتضى، 4جلد، دار القرآن الكريم - قم - ايران، چاپ: 1، 1405 ه.ق. [↑](#footnote-ref-118)
119. علم‏الهدى، على بن الحسين، رسائل الشريف المرتضى، 4جلد، دار القرآن الكريم - قم - ايران، چاپ: 1، 1405 ه.ق. [↑](#footnote-ref-119)
120. أى يحولون بتلكم الكلم عن معرفة الحقيقة. [↑](#footnote-ref-120)
121. الزمن: من اصابته الزمانة، و هي العاهة، أو عدم بعض الأعضاء، أو تعطيل القوي. [↑](#footnote-ref-121)
122. زيادة منا لإكمال الجملة. [↑](#footnote-ref-122)
123. في الأصل« بين المتضادان». [↑](#footnote-ref-123)
124. في الأصل« عند أمرد». [↑](#footnote-ref-124)
125. كذا في النسخة. [↑](#footnote-ref-125)
126. في الأصل« تعادهم». [↑](#footnote-ref-126)
127. في الأصل« على الكذب». [↑](#footnote-ref-127)
128. في الأصل« طرقا ماى ارتاه». [↑](#footnote-ref-128)
129. في الأصل« و الا ان يخرج». [↑](#footnote-ref-129)
130. زيادة منا لإتمام الكلام. [↑](#footnote-ref-130)
131. كذا في النسخة. [↑](#footnote-ref-131)
132. الزيادة منا و العبارة غير مستقيمة. [↑](#footnote-ref-132)
133. في الأصل« ما طولتم». [↑](#footnote-ref-133)
134. الزيادة منا لتكميل الكلام. [↑](#footnote-ref-134)
135. الزيادة منا لتكميل الكلام. [↑](#footnote-ref-135)
136. في الأصل« فما أدرى». [↑](#footnote-ref-136)
137. في الأصل« فلا يأتوه». [↑](#footnote-ref-137)
138. في الأصل« على الفعل». [↑](#footnote-ref-138)
139. في الأصل« و أما الفرق». [↑](#footnote-ref-139)
140. كذا في النسخة. [↑](#footnote-ref-140)
141. كذا في النسخة. [↑](#footnote-ref-141)
142. كذا، و العبارة غير مفهومة عندي. [↑](#footnote-ref-142)
143. في الأصل« عن صبغة». [↑](#footnote-ref-143)
144. بياض في النسخة. [↑](#footnote-ref-144)
145. في الأصل« أموالكم». [↑](#footnote-ref-145)
146. زيادة منا. [↑](#footnote-ref-146)
147. زيادة منا. [↑](#footnote-ref-147)
148. أي في حال كونه قادرا. [↑](#footnote-ref-148)
149. في الأصل« وصف». [↑](#footnote-ref-149)
150. في الأصل« ماله». [↑](#footnote-ref-150)
151. كذا في الأصل. [↑](#footnote-ref-151)
152. في الأصل« نخير ذلك». [↑](#footnote-ref-152)
153. هنا سقط و الكلام غير مستقيم. [↑](#footnote-ref-153)
154. لعل العبارة« فإذا هذا المسموع». [↑](#footnote-ref-154)
155. كذا في الأصل. [↑](#footnote-ref-155)
156. في الأصل« و ليس باين». [↑](#footnote-ref-156)
157. في الأصل« و انا صح». [↑](#footnote-ref-157)
158. في الأصل« لما اجتمع». [↑](#footnote-ref-158)
159. أبو رشيد سعيد بن محمد بن حسن بن حاتم النيسابوري، من كبار المعتزلة و أخذ عن القاضي عبد الجبار المعتزلي و انتهت إليه الرئاسة بعده، و كانت له حلقة في نيسابور ثم انتقل إلى الري و توفى بها نحو سنة 440( الاعلام للزركلى 3- 101). [↑](#footnote-ref-159)
160. كذا في الأصل و لعل الصحيح« بأشياء». [↑](#footnote-ref-160)
161. العبارة منا و بياض في الأصل. [↑](#footnote-ref-161)
162. زيادة منا لاستقامة الكلام. [↑](#footnote-ref-162)
163. كذا في الأصل. [↑](#footnote-ref-163)
164. كذا في الأصل. [↑](#footnote-ref-164)
165. زيادة منا لاستقامة الكلام. [↑](#footnote-ref-165)
166. علم‏الهدى، على بن الحسين، رسائل الشريف المرتضى، 4جلد، دار القرآن الكريم - قم - ايران، چاپ: 1، 1405 ه.ق. [↑](#footnote-ref-166)
167. كذا في الأصل. [↑](#footnote-ref-167)
168. الزيادة منا. [↑](#footnote-ref-168)
169. كذا في الأصل. [↑](#footnote-ref-169)
170. في الأصل« أن من عينهم لانهار». [↑](#footnote-ref-170)
171. في الأصل« و ان لم تتساق». [↑](#footnote-ref-171)
172. الزيادة منا. [↑](#footnote-ref-172)
173. في الأصل« حظ». [↑](#footnote-ref-173)
174. في الأصل« و إذا». [↑](#footnote-ref-174)
175. لعل الصحيح« أو أنه العائد». [↑](#footnote-ref-175)
176. في الأصل« و ذكر أن ما ذكر». [↑](#footnote-ref-176)
177. الزيادة منا. [↑](#footnote-ref-177)
178. بياضات في الأصل. [↑](#footnote-ref-178)
179. بياضات في الأصل. [↑](#footnote-ref-179)
180. في الأصل« فعينه». [↑](#footnote-ref-180)
181. في الأصل« مع امتنع» [↑](#footnote-ref-181)
182. بياض في الأصل. [↑](#footnote-ref-182)
183. بياض في الأصل. [↑](#footnote-ref-183)
184. سورة الإسراء: 36. [↑](#footnote-ref-184)
185. سورة البقرة: 169. [↑](#footnote-ref-185)
186. في الأصل« فلم يجب العمل من عمل». [↑](#footnote-ref-186)
187. زيادة منا. [↑](#footnote-ref-187)
188. في الأصل« لقينا». [↑](#footnote-ref-188)
189. كذا، و العبارة فيها نقص. [↑](#footnote-ref-189)
190. في الأصل« بأنها على». [↑](#footnote-ref-190)
191. في الأصل« ان يكون الرر». [↑](#footnote-ref-191)
192. كذا في الأصل. [↑](#footnote-ref-192)
193. في الأصل« قد يخلوا». [↑](#footnote-ref-193)
194. في الأصل« و امرأة من حيث». [↑](#footnote-ref-194)
195. كذا في الأصل. [↑](#footnote-ref-195)
196. في الأصل« ان لها وجوب». [↑](#footnote-ref-196)
197. بياض في الأصل. [↑](#footnote-ref-197)
198. كذا في الأصل. [↑](#footnote-ref-198)
199. في الأصل« فلا تؤثر». [↑](#footnote-ref-199)
200. كذا في الأصل. [↑](#footnote-ref-200)
201. كذا في الأصل. [↑](#footnote-ref-201)
202. بياض في الأصل. [↑](#footnote-ref-202)
203. بياض في الأصل. [↑](#footnote-ref-203)
204. بياض في الأصل. [↑](#footnote-ref-204)
205. بياضات في الأصل. [↑](#footnote-ref-205)
206. بياضات في الأصل. [↑](#footnote-ref-206)
207. بياضات في الأصل. [↑](#footnote-ref-207)
208. بياضات في الأصل. [↑](#footnote-ref-208)
209. بياضات في الأصل. [↑](#footnote-ref-209)
210. بياضات في الأصل. [↑](#footnote-ref-210)
211. في الأصل« بأنه مسمور». [↑](#footnote-ref-211)
212. في الأصل« على انتهاء». [↑](#footnote-ref-212)
213. في الأصل« الوجود». [↑](#footnote-ref-213)
214. بياض في الأصل. [↑](#footnote-ref-214)
215. في الأصل« فاناحة». [↑](#footnote-ref-215)
216. كذا في الأصل. [↑](#footnote-ref-216)
217. بياض في الأصل. [↑](#footnote-ref-217)
218. بياض في الأصل. [↑](#footnote-ref-218)
219. بياض في الأصل. [↑](#footnote-ref-219)
220. بياض في الأصل. [↑](#footnote-ref-220)
221. بياض في الأصل. [↑](#footnote-ref-221)
222. بياض في الأصل. [↑](#footnote-ref-222)
223. بياض في الأصل. [↑](#footnote-ref-223)
224. بياض في الأصل. [↑](#footnote-ref-224)
225. بياض في الأصل. [↑](#footnote-ref-225)
226. في الأصل« هو بياع الزوج». [↑](#footnote-ref-226)
227. في الأصل« هدنة حاله». [↑](#footnote-ref-227)
228. علم‏الهدى، على بن الحسين، رسائل الشريف المرتضى، 4جلد، دار القرآن الكريم - قم - ايران، چاپ: 1، 1405 ه.ق. [↑](#footnote-ref-228)